فلسفة الأخلاق

جستن توزي براندن وورمكي

الاستعراض

الحسن والقبيح في الحوار الأخلاقي



ترجمة بثينة الإبراهيم

الاستعراض

الحسن والقبيح في الحوار الأخلاقي

جستن توزي براندن وورمکی

ترجمة بثينة الإبراهيم

الاستعراض

الحسن والقبيح في الحوار الأخلاقي

ح دار أدب للنشر والتوزيع، ١٤٤٢ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

توزي، جستن؛ وورمكي، براندن. الاستعراض: الحسن والقبيح في الحوار الأخلاقي. / جستن توزي؛ براندن وورمكي؛ بثينة الإبراهيم – ط۱ – الرياض، ۱۶۶۲هـ ۳۲۸ ص؛ ۲۱ * ۱۶ سم ردمك: ۷ –۳ –۹۱۲۱۸ – ۹۷۸ – ۹۷۸

١ الحوار - ٢ أدب الحوار - ٣ الأخلاق
 أ . ووركي ، براندن (مؤلف مشارك)
 ب . الإبراهيم ، بثينة (مترجم)

1287/9.77

ديوي ۱ ،۱۷۷

رقم الإيداع: ٩٠٧٦ / ١٤٤٢ ردمك: ٧ –٣ – ٩١٦١٨ – ٦٠٣ – ٩٧٨

> الطبعة الأولى ١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

· Copyright © 2021 by ADAB

جميع حقوق الترجمة العربية محفوظة حصريّاً لـ: دار أدب للنشر والتوزيع



المملكة العربية السعودية-الرياض

هذا الكتاب صادر عن مشروع «مذ» للترجمة الذي تقوم عليه دار أدب للنشر والتوزيع ضمن مبادرة إثراء المحتوى إحدى مبادرات مركز الملك عبد العزيز الثقافي العالمي (إثراء)

هذه الترجمة هي الترجمة العربية عن الإنجليزية لكتاب:

GRANDSTANDING
The Use and Abuse of Moral Talk

Justin Tosi Brandon Warmke

تنشر هذه الترجمة عن النسخة الأصلية للكتاب:

© Oxford University Press 2020

بموجب اتفاق حصري مع:

Oxford University Press.

الآراء الواردة في الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار

إلى

ديـڤد وماريا توزي و توم وجان وورمكي

المحتويات

11	مقدمة د. عبد الله السفياني
۲۳	توطئةتوطئة
۲۹	توطئةشكر وامتنان
	الفصل الأول: الحديث الأخلاقي ليس ساحرًا
٣٣	«ليتك تصابين بالسرطان»
٣٧	الكلام في الأخلاق
ر	الاستعراض: من هارڤي واينستين إلى روي مو
	كيف ننقد هذا الكتاب؟
۰۳	الفصل الثاني: ما الاستعراض الأخلاقي؟
	الاستعراض: مقدمة قصيرة جدًا
٥٥	التفسير الأولي للاستعراض الأخلاقي
٥٦	الرغبة في التقدير
٠٠٠١	التعبير عن الاستعراض
٦٨٨٢	أيظن المستعرض أنه جدير بالاحترام لأخلاقه؟
	الاستعراض الواعي وغير الواعي
	الاستعراض والكذّب
۸٠	أيحقق الاستعراض المراد؟
۸٤	أيعد الاستعراض مشكلة اليسار فقط؟
	أنستعرض؟
۹٠	ماذا عن التلويح بالفضيلة؟
	الخلاصة

4 V	الفصل الثالث: الاستعراض: دليل ميداني
	الاصطفاف
	التكثيف
118	التلفيق
	الانفعالات القوية
١٢٨	التنحية
14	اختبار بسيط؟
144	الفصل الرابع: التبعات الاجتماعية للاستعراض
140	الاستقطاب
181	قناعات خاطئة
١٤٨	فرط الثقة
١٥٠	السخرية
١٥٨	تبعة الغضب الموجّه بالاستعراض
١٥٨(مشكلة صيحة الذئب (التحذير من خطر وهمي
777	استنزاف الحنق
	عزوف المعتدلين
177	المنفعة الاجتماعية للاستعراض
174	الفصل الخامس: الاستعراض والاحترام
١٨١	الاستقواء
191	الخداع
۲۰۴	ِ الانتفاع المجاني
	الخلاصة
Y 1 W	الفصل السادس: أيستعرض الصالحون؟
	فعل الصواب لسبب وجيه

YY•	الاستعراض والفضيلة المدنية
YYY	الفضيلة وعواقبها
YY0	الغرور بوصفه فضيلة؟
YYV	أيكون الاستعراض فضيلة إذن؟
	الاستعراض ونيتشه
	الخلاصة
دق	الفصل السابع: السياسة باعتبارها مهرجانًا للاخلا
	لماذا يتباهى السياسيون؟
	مشكلة اللاتسوية
177	مشكلة السياسة التعبيرية
YV1	مفارقة حل المشاكل الاجتماعية
YVA	فوائد الاستعراض السياسي
YA+	الخلاصة
YAT	الفصل الثامن: ماذا نفعل بشأن الاستعراض
YAE	ضد الزجر
Y9Y	تغيير شخصي
Y98	هندس ظرفك
Y97	خطة للنجاح
	أعد توجيه رغبتك في نيل التقدير
Y99	التغيير الاجتماعي
٣٠٢	الخطوة الأولى: تصحيح المعتقدات
	الخطوة الثانية: كن أسوة حسنة
	الخطوة الثالثة: عقاب المستعرض
	سبب للتفاؤل

410		الهوامش
٣١٥	اعة	هوامش التوط
٣١٥	لل الأولل	هوامش الفص
	ل الثانيل	
440	ل الثالثل	هوامش الفص
440	لل الرابعل	هوامش الفص
34	ل الخامسل الخامس	هوامش الفص
۳٤۸	ـل السادسل	هوامش الفص
401	ل السابعل	هوامش الفص
	ال الثام:ا	

مقدمة

هذا الكتاب الذي نقدمه اليوم للقارئ العربي مترجمًا عن اللغة الإنجليزية، يعالج إشكالية نعتبرها في غاية الأهمية، بعد أن أصبحت الحوارات على الشبكات الاجتماعية نمطًا حياتيًا نتابعه كل يوم.

هذه الحوارات والجدل المتنامي عبر الشبكات وحتى في حياتنا الواقعية، هو ظاهرة إيجابية دون شك، ويعد تعزيزًا لمبدأ حرية التعبير، غير أن الإشكالية الكبرى التي تواجه هذه الحوارات المتنامية هو انحرافها في أحيان كثيرة عن الهدف المعرفي أو الأخلاقي، إلى مسارات أخرى قد تكون غير أخلاقية، وربما تلحق الضرر بالمتحاورين أنفسهم شعروا بذلك أم لم يشعروا.

وأبرز هذه الانحرافات التي يرصدها أي متابع اليوم لحوارات تويتر أو فيس بوك، هو توظيف الجدل الأخلاقي بطريقة غير أخلاقية، وبمعنى آخر هو استخدام القضايا العادلة والإنسانية لتمرير أهداف أخرى لا علاقة لها بصلب القضية

وأخلاقيتها، بل من أجل تحقيق أهداف وأغراض خاصةٍ جدًا، من أهمها الاستعراض والتباهي أمام الجماهير.

إحدى أهم التقنيات التي استخدمتها الشبكات الاجتماعية هي فكرة حصد المتابعين وتجميعهم والتأثير فيهم بتسميتهم أصدقاء كما في الفيس بوك، أو متابعين كما في تويتر وغيرها من الشبكات الأخرى، حتى صار من أولويات المشاركين في الشبكات جمع أكبر عدد ممكن من المتابعين، وكذلك الحصول على قدر أكبر من الانتشار عبر المشاركة أو إعادة التغريد (retweet)، أو الإعجابات

يشعر المشارك في الشبكات دون وعي بنشوة كلما استطاع أن يَبرز بشكل ملحوظ أمام المعجبين والمعجبات به، الذين يملؤون صفحته إما بالتعليقات الإيجابية أو بالتفضيل والمشاركة مع الآخرين، وتحت سطوة «وسلطة» هذه المشاعر والتعلق بها وبكيفية المحافظة عليها والازدياد منها يصبح المشارك أسيرًا لها ولِلَمعانها وأضوائها التي تحيطه بها، حتى يصبح الانفكاك منها عسيرًا، فضلا عن معارضتها أو تقديم فكر أو رأي يخالف ما تريده الجماهير المتعطشة للرّدح المستمر!

هـذا الكتاب بين أيدينا يتعرّض بشكل جوهـري لما يقوم به

بعض المتحاورين والذين نعتقد أنهم في كثرة وازدياد من أعمال غير أخلاقية، حين يتبنون قضايا سياسية عادلة أو أخلاقية بامتياز؛ ولكنهم يعبِّرون في دفاعهم عنها بطرق لا تخلو من استعراض ورغبة في البروز، وكسر الخصم وقهره والتندّر به والحط من قدره؛ من أجل إرضاء ذواتهم وإرضاء الجماهير المتابعة لهم، فيما يسميه المؤلفان: «تسويق الذات» (أ)

والمؤلفان من المعنيين جدًا بتمظهرات الحوار الأخلاقي في المجال العام وتجلياته المختلفة، ويقدمان هنا دراسة وافية لأبرز مشكلات الاستعراض، ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن المترجمة القديرة الأستاذة: بثينة الإبراهيم قد اختارت الاستعراض ترجمة لمصطلح (Grandstanding) بعد استشارات عديدة، وعدة مقارنات مع أكثر من مقابل عربي مثل (التباهي) أو (الإبهار) أو (الإدهاش)، وأعتقد أنها وُفقت كثيرا في اختيار اللفظ الأقرب للمفهوم المقصود من كلام المؤلفين!

https://mana.net/self-in-twitter

⁽i) يمكن الاطلاع على مقالنا المنشور على منصة معنى تحت عنوان: (تقديم الذات في الشبكات الاجتماعية) حيث يعالج فكرة تسويق الذات وغيرها من الأفكار المتعلقة بكيفية تقديم المشاركين في الشكبات لأنفسهم، تجده على الرابط التالي:

الاستعراض كما يراه المؤلفان ببساطة متناهية: توظيف النقاش الأخلاقي لتسويق الذات، فتصبح الأخلاق والدفاع عنها وعن قضاياها جسر عبور للشهرة والانتشار الواسع، وحصد المزيد من الإعجابات وتصفيق الجماهير، ولو كان ذلك في كثير من الأحيان على حساب نوعية الخطاب المستخدم في الدفاع عن القضايا الأخلاقية، الذي لا يخلو من تنمر وتسلط وهجوم شرس واتهام سياسي واستدعاء للسلطة.. إلخ، ويضعان معادلة بسيطة توضح مم يتكون الاستعراض الأخلاقي حيث الاستعراض = الرغبة في التقدير + التعبير عن الاستعراض.

يتساءل المؤلفان: ما المشكلة في حديثنا دفاعًا عن الأخلاق في الشبكات الاجتماعية؟ وهل يعد ذلك مخالفة أخلاقية أو أمرًا قبيحًا؟ ويجيبان بأن المشكلة ليست في الحديث الأخلاقي نفسه، بل في الطرق غير الناجعة المستخدمة في كثير من الحوارات الأخلاقية على الشبكات، ويحاجج المؤلفان بطرق متنوعة لإبراز المشكلات التي يتركها الاستعراض بالحديث عن الفضيلة في الفضاء العام، ويريان أن الكثيرين للأسف، يستخدمون الحوار الأخلاقي بلا مسؤولية، فهم يوظفونه لإهانة الناس الذين يكرهونهم، وترهيبهم وتهديدهم، وإثارة إعجاب أصدقائهم،

والظهور بمظهر الأخيار، وجعل الناس أقل شكًا في سوء سلوكهم، ويقدمان مقاربات مهمة بين الاستعراض والكذب والاستعراض الواعي وغير الواعي.

يعدد المؤلفان مجموعة من الأضرار التي يُوصل إليها الاستعراض على المستوى الفردي والاجتماعي، ويأتي في مقدمتها الاصطفاف والتكثيف والتنحية والاستقطاب والثقة المفرطة بالآراء والسخرية وتقليل احترام الغير والغضب الموجه بالاستعراض واستنزاف الحنق، إلى أن نصل إلى عزوف المعتدلين عن الحوار والمشاركة خوفًا مما قد ينتظرهم من هذا البلاء الموكل بالاستعراض.

وهنا يجب أن أشير إلى نقطة في غاية الأهمية للتعامل مع الكتاب، وهي أنه ينبغي علينا كقراء أن نبحث عن أخطائنا نحن ضمن الإشارات والإشكالات التي يعالجها الكتاب، لا أن نرى غيرنا في هذه الإشكالات، ذلك لأن ما يعرضه الكتاب محفز لاستحضار صور كثيرة مرت علينا للاستعراض والمستعرضين في الشبكات، فننسى أن نقيّم أنفسنا نحن قبل أن نقيّم الآخرين، وهو أمر شائع حتى في غير هذه المعالجة ولكن يبدو لي أنه هنا أكثر وضوحًا، لأنك ستتذكر صورًا صارخة من الاستعراض مرت عليك في خضم الحوارات التي تشاهدها في الشبكات.

بقى أن أشير إلى أن الكتاب في كثير من أمثلته عالج بعض تداعيات الأحداث السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد بذلت المترجمة جهدًا مشكورًا في إعطاء فكرة عنها، ولكن ذلك لا يعنى أن المشكلة ليست إلا في أمريكا، فحوارات كثيرة نراها في مجتمعاتنا العربية يظهر فيها الاستعراض بشكل صارخ، ولعل الأحداث الأخيرة في فلسطين(أ) وما صاحبها من حوارات نارية في تويتر، كانت مساحة مناسبةً استعرض بعض المعنيين بالقضية الفلسطينية شيئا من السلوكيات غير الأخلاقية في حواراتهم، ورغم أنها قضية إنسانية عادلة دون أدني شك، ولكن بـلا شـك كذلـك هنـاك مـن حـاول أن يعبّر عـن ظهـوره وبروزه باستخدام عدالة القضية على حساب تنمر وهجوم وتقليل احترام الآخرين الذين قد يكون بعضهم على نفس رأيه، ولكنهم يعبرون بطريقة تختلف جذريا عن طريقته، غير أن الاستعراض يريد منه أن يكون هو الاسم الأبرز في هذه المساحة، مع الحشود التي تجري وراءه في ردهات تويتر ليواصل تصعيده وسخريته من الآخرين باستثناء نفسه وفريقه الذي يصفق له!

ِ ستجد الاستعراض كذلك عنـ د بعض مـن يعتقـ دون أنهم

⁽i) أحداث حي الشيخ جرّاح واغتصابه من قبل المستعمرين الإسرائيليين وما لحقها من تداعيات وقصف جوي من إسرائيل لقطاع غزة.

وطنيون أكثر من غيرهم، وأنهم هم صوت الوطن في أوطانهم ولأجل أن يظهروا بهذه الصورة التي تعزز تقديرهم لذواتهم وإحساسهم بالتفرد الوطني، ولفت انتباه الآخرين لهم، أو التستر على ماض غير جيد لهم، لا يألون جهدًا في مهاجمة كل ما لا يروق لهم متمترسين باسم الوطن والوطنية، ورغم أن الأوطان وأمنها وسلامتها قضية ذات أولوية قصوى، ولكن الطرق التي يسلكونها لا يراد منها الوطن بالدرجة الأولى بل تعزيز حضورهم الجماهيري وبروزهم المستمر في هذه القضية.

ويمكننا أن نلحظ ذلك كذلك في نقاشات الهُوية والحفاظ عليها، فبعض المهتمين -مشلا- بالحفاظ على اللغة العربية ونحوها وصرفها وسلامة كتابتها وتداولها، ستجد عند بعضهم هذا الاستعراض المقيت، الذي عادة لا يراد منه حماية اللغة وتمكينها بقدر ما يود الواحد منهم الظهور بمظهر حامي حمى اللغة وأسد عرينها الهزبر الذي لا يقهر!، ولأجل همزة سقطت أو كلمة ندت عن سياقها يجيزون لأنفسهم الهجوم على من سؤلت له نفسه هذا الخطأ دون تورع!، فإذا قارنت بين الخطأ وبين ردة الفعل تجدهوة كبيرة لا يفسرها إلا رغبة المهاجم في الاستعراض والتباهى!

يشير المؤلفان إلى دافع خفي وخطير للاستعراض يكمن في

محاولة المستعرض على الشبكات التغطية على سلوكيات سيئة سابقة له ويضرب مثالا بالمتحمسين من الرجال في القضايا النسوية إذ يقولان: إن الاستعراض أكثر قيمة باعتباره أداة للتلاعب، أكثر من كونه إشارة لاستحقاق المستعرض للثقة، ويحيلون إلى حالات لأنصار النسوية المستعرضين الذين تبين لاحقًا أنهم متحرشون ومعتدون جنسيون، فقد يستخدم ذاك الاستعراض ليكون غطاء للسلوك السيء، وقد يفسر لنا هذا بعضا من الاستعراض والاندفاع عند من يكتبون بلغة متنمرة في القضايا النسوية، وبشكل لافت للنظر، وهو أمر سبق أن تعرضت له في كتابات سابقة!

إننا فعلا محاصرون بالاستعراض وقد ننزلق فيه دون أن نشعر، ونصيب غيرنا ممن نتحاور معهم بأضرار جسيمة لم نكن نحسب لها حسابا، إذ قد تطال نفسياتهم وأوضاعهم الاجتماعية والوظيفية والأمنية!

ولو عدنا بالذاكرة للوراء قليلا مع قصيدة «الشاعر: حيدرالعبدالله» التي ألقاها في محفل ملكي، والهجوم الشرس المتنوع الذي تعرض له الشاعر في الشبكات والتنمر من سب وشتم وانتقاص وسخرية، لوجدنا أن بعضا من هذا الهجوم كان مجرد استعراض بعضه اتخذ دثار الوطنية غطاء له بحجة أن هذه

القصيدة لا تليق بالوطن، ولا بشخص الممدوح، وبعضها بحجة الغيرة على الشعر العربي واللغة والفصاحة، وكانت هناك للأسف مشاركات من شخصيات معروفة لها حضورها الاجتماعي والثقافي، بل حتى أولئك الذين حاولوا أن يقفوا مع الشاعر ونصه الشعري نالهم شيء من التنمر السياسي أو النقدي أو المذهبي!(أ)

لقد تجاوز الشاعر الأزمة التي مرّت ولكنها تتكرر بصور مختلفة يكون كل شخص فيها تحت طائلة التهديد، إذ قد يتعرض هو الآخر لحفلة شواء مثل حفلة «سُكنانا» (ب)، ويصدق فعلا قول المؤلفان هنا: الكل يُتوقع مثوله أمام محكمة التفتيش على الفيس بوك و «تويتر»!

أخيرا..

إن كثيرين منا لهم مبادئهم الأخلاقية التي قد نلتقي معهم فيها، ولكن يجب أن نفصِل قدر المستطاع بين ذواتنا ورغباتها

⁽أ) يمكن استعراض القصيدة على اليوتيوب:

https://www.youtube.com/watch?v=WeSlk15w1gY

(ب) سُكنانا كانت إحدى قوافي القصيدة التي استخدمت بكثرة في الهجوم
على الشاعر حتى اشتهر وعرف بها حدّ أنه سجلها كعلامة تجارية
رسميا، وقد استأذنته مشكورا في الاستشهاد بالقصة في هذه المقدمة،
وقد عشت معه حينها تفاصيل التجربة القاسية.

الخفية، وبين القضايا التي ننافح من أجلها، لأجل هذه القضايا وعدم تشويهها وتزهيد الناس فيها، لكثرة ما نمارسه بوعي ودون وعي من استعراض فج، يشعر فيه بعضنا أن ذاته والقضية شيئًا واحداً، لذلك هو مستعد في أي لحظة أن ينفجر في وجوه الناس الذين يكرههم أو يختلف معهم ويتخذ القضية الأخلاقية ذريعة لهذا الانفجار البشع!

إن قضايانا الأخلاقية تتضرر من هذا الإلحاح الفج عليها، وإقحامها بمناسبة ودون مناسبة في كل حوار، حتى تحوّل بعضنا إلى متحدثين رسميين دون توكيل عن هذه القضايا، واستنزفنا كما يقول المؤلفان الغضب والحنق وصرفناه بكميات دون جدوى، مع أنه يمكن استثماره لقضايا حقيقية هي أكثر صدقًا وأجدى نفعًا!

ما دورنا بعد ذلك في ضبط الشبكات الاجتماعية وإعادتها لوضع بيئي صحي، يسمح بمشاركة الجميع والمعتدلين على وجه الخصوص الذين بدؤوا يهجرون الحوار في الفضاء العام حسب إفادة الكتاب.

قدم المؤلفان خارطة طريق حول هذه الفكرة، ولكنني أعتقد أن المسؤولية الفردية تجاه هذه القضية، وعناية كل شخص فينا بنفسه ومشاركته وتعهدها بالسؤال الدائم عن سبب المشاركة والدفاع: هل هو القضية الأخلاقية العادلة حقًا، أم الرغبة المكبوتة التي تتخذ ذرائع شتّى لظهورها، يمكن بتنمية هذا الوعي أن نحرز تقدمًا، وأعتقد أن هذا الكتاب وتقديمه للقارئ العربي هو خطوة جادة في هذا الاتجاه.

د. عبد الله السفياني

أستاذ أصول التربية وفلسفتها

توطئة

يضيق كثير منا ذرعًا بالطريقة التي يتكلم بها الناس على الملأ في الأخلاق والسياسة. بل نظن أن معظم الناس يشعرون بوجود خطأ يشوب هذه النقاشات. ولكن بعيدًا عن الإشارات إلى حالات كثيرة من التعيير المفرط، والتسرع في إطلاق الأحكام، وغيرها من السلوك السيء، يصعب تحديد ماهية المشكلة على وجه الدقة.

يقدم هذا الكتاب تشخيصًا لسبب مهم للسلوك السيء في الخطاب الأخلاقي العام. يتسم كثير من خطابنا بالقبح؛ لأنه يتضمن استعراضًا أخلاقيًا، بمعنى توظيف النقاش الأخلاقي لتسويق الذات. لا تسيء فهمنا، فنحن نرى النقاش الأخلاقي أمرًا حسنًا. فلا بد أن يتحدث الناس عن العدالة والحرية والمساواة وفعل الصواب. لكننا بحاجة لفعل ذلك بطرق ناجعة، لا أن نظهر أنفسنا بمظهر الأخيار فحسب، وهذا ما يهتم به المستعرضون عظيم الاهتمام.

لا يرتبط الاستعراض بأي وجهة نظر سياسية بعينها، فالناس ذوو الآراء الشتى يمكنهم، وعليهم أن يُجمعوا على إدانة

الاستعراض. إنها ليست ظاهرة مقتصرة على الحزبيين، بل هي ظاهرة إنسانية. إن كنت صادقًا مع نفسك، فلعلك تتذكر أوقاتًا شعرت فيها بحاجة للاستعراض. (نحن يمكننا ذلك قطعًا). تأمّل أحد المشاركين المتحمسين في الحروب الثقافية على الشبكة تاريخه في الاستعراض:

كلما نعت شخصًا بالعنصري أو المتحيّز جنسيًا، انتابتني فورة نشاط، وتعزز هذه الفورة ثانية وتديمها النجوم والقلوب وعلاماتُ الإعجاب التي تشكّل تفاهة تأييد وسائل التواصل الاجتماعي(١).

إن هذا الإقرار صادم وعجيب في آن. لم نشارك في طقوس كهذه؟ ما الذي يدعونا إلى الاهتمام إن كان حديثنا الأخلاقي يكسب علامات الاستحسان من أناس لا نكاد نتفاعل مع معظمهم؟ ولِم نكون مستعدين للإلقاء بالناس تحت الحافلة للحصول على الاستحسان؟

إن هذا الكتاب هو محاولتنا لفهم الاستعراض، ولإخبارك بما تعلمناه خلال السنوات الخمس الماضية. سنشرح، باستخدام براهين من العلوم الاجتماعية والسلوكية، سبب ميل الناس إلى الاستعراض وأسباب اتخاذه الشكل الذي يظهر به. وبتوظيف أدوات الفلسفة الأخلاقية، سنناقش كون الاستعراض مشكلة

أخلاقية على مستوى ثلاث نظريات أخلاقية كبرى: من حيث عواقبه الوخيمة، وإخفاقه في معاملة الناس بالاحترام، وكونه ليس أخلاقيًا. وأخيرًا، باستخدام قليل من العلم والفلسفة، سنتحدث عن السبب الذي يجعل من الاستعراض مشكلة في السياسة، وما الذي يسعنا فعله لتحسين خطابنا الأخلاقي.

سيلاحظ بعض القراء أننا نذكر الشبكة ووسائل التواصل الاجتماعي، وأن هذه الموضوعة تستمر على امتداد الكتاب. غير أن هذا ليس كتابًا عن وسائل التواصل الاجتماعي، بل عن الكلام في الأخلاق. إن الاستعراض الأخلاقي ليس ظاهرة حديثة، كما أنه لم يظهر بظهور شبكة الإنترنت. ولكن في مختلف الأحوال والظروف، فإن معظم النقاش حول الأخلاقيات والسياسة يدور حاليًا على الشبكة، حيث يسهل العثور على جمهور لإظهار مدى صلاحك. إن ضجرت من الحديث عن وسائل التواصل، فلا بأس أن تتظاهر بأننا جميعًا ما زلنا نلتقي حضوريًا في منتدى روما لنرى من يزدري قرطاج أشد الازدراء (أ)، أو في الصالون لنرى من

⁽أ) كان المنتدى الروماني ميدانًا عامًا تلقى فيه الخطابات العامة وتجرى فيه المحاكمات العلنية، وقد خاضت روما حروبًا مع قرطاج سميت بالحروب البونيقية، وشهدت حملة عسكرية قادها هانيبال وانتهت الحرب بهزيمة قرطاج ودمارها على يد روما. (المترجمة)

الأشد التزامًا بقيم التنوير. إن الخصائص النفسية والسلوكية متماثلة، والوسيط يصنع بعض الاختلاف، غير أن الاستعراض كان موجودًا منذ زمن طويل، وستدرك ما نود قوله حتى لو لم تلمس حاسبًا آليًا في حياتك.

لكننا نظن أن الحوار الأخلاقي مختلف اليوم بحيث أن كثيرًا منه يدور على الشبكة. لماذا؟ ليس عندنا حكاية نسردها عن التقنية الحديثة والانحطاط السريع للحضارة، غير أن وسيلة تواصلنا لها أثر في بعض ملامح نقاشاتنا. فالعثور على جمهور لكل فكرة من أفكارك، ونشر رسالتك أسهل. لدى مئات الملايين من منصة للحديث مباشرة إلى المئات، أو الآلاف أو الملايين من الناس. وبسبب هذا فإن منافستك لتسترعي انتباه الناس أشد من ذي قبل. ولا بـد لـك من فعل شيء مميز لتتمكن من الصمود. ولهذا تأثير مهم في محتوى نقاشاتنا، كما سنعرض لاحقًا.

لقد أصبح العثور على نقاش أخلاقي وسياسي والاستغراق فيه أسهل أيضًا. وهذا يعني أننا على الأرجح معرضون للمزيد من الاستعراض بين الحين والآخر أكثر من ذي قبل، رغم وجود المستعرضين غزيري الإنتاج دومًا. في الحقيقة، عوضًا عن القول إن العثور على الاستعراض أسهل من ذي قبل، فلعلنا نكون أدق إن قلنا إن تفاديه أصعب من ذي قبل.

وأخيرًا، ولأن العثور على حديث الآخرين في الأخلاق أسهل اليوم، فإن مراقبة الناس الذين تختلف معهم ومضايقتهم أسهل. وأكثر الأشخاص إدراكًا بحق لهذه الحقيقة هم الذين يكسبون قوتهم من نقاش الأفكار، فالصحفيون تنهال عليهم دومًا رسائل كراهية لأنهم كتبوا أمورًا لا يريد هؤلاء الناس سماعها تتعلق بشخصيتهم السياسية الأثيرة (أو، على العكس، الأكثر بغضًا). والأكاديميون الذين يعارضون آخر النزعات الإيدلوجية في مجالاتهم يتعرضون للتهديد بالعزل المهني وأسوأ. وأحيانًا حتى السابلة المطمئنون سيجولون في حقل الألغام الذي هو حرب ثقافتنا المعاصرة، ويشعرون بغضب العصبة الباحثة عن الانتباه.

عند البعض، يتطلب إدراك وجود خطأ في الخطاب الأخلاقي العام أن يكون مستقبِلًا لاستعراض الآخرين العدائي علانية. ونأمل في تأليفنا هذا الكتاب أنك لن تضطر إلى معرفة أن الاستعراض مشكلة أخلاقية بالطريقة الأسوأ. يمكن لهذا الكتاب أن يبين لك ما يحدث، ويشرح لك السبب الذي يجعله خطأ، ويمنحك بعض الأفكار عما يتعين عليك وما لا يجدر بك فعله حياله.

لوبك، تكساس بولنغ غرين، أوهايو

شكر وامتنان

بدأنا الكتابة في هذا الموضوع في ربيع عام ٢٠١٤، ومنذئذ حظينا بنقاشات مثمرة لا تعد مع الكثير من الأصدقاء والزملاء الكرام، الذين يصعب تعدادهم هنا؛ لذا نعتذر لمن أغفلناه.

لقد تلقينا آراء مفيدة حول المسودة الأولى للفصل الرابع في ربيع ٢٠١٨ أثناء ورشة عمل في الفلسفة الأخلاقية والسياسية في جامعة متشغن. نتقدم بالشكر للفلاسفة جوني أنومالي ودان جاكوبسن وستيقن وول وفيليب ليموين وسينسر جاي كيس وهريشيكا جوشي ونيقن كليماناغا لمساعدتهم في تجويد ذلك الفصل.

في صيف عام ٢٠١٨، تكرم معهد جورجتاون لدراسة الأسواق والأخلاقيات في كلية مكدونو للأعمال بإقامة ورشة عمل لكتابة مخطوط فخرجنا بمسودة أولى للكتاب. لذا نشكر المعهد وجيسن برينان على دعوتنا، والمشاركين بريان كاپلان ومايكل دوما ووليم إنغلش وروبن هانسن وجون هاسناس، وپيتر ياورسكي ولورين لوماسكي وتوماس مُليغن على تعليقهم على الكتاب.

في ربيع ٢٠١٩، أقام معهد الدراسات الإنسانية ورشة عمل متعددة التخصصات لكتابة مخطوط على مسودة مطورة من هذا الكتاب. نشكر كلًا من معهد الدراسات الإنسانية والمشاركين الذي قرؤوا الكتاب كاملًا وأعطونا آراء ونصائح مفيدة للغاية على مدى يومين كاملين وهم: آدم أريكو وپول بلاشكو وغابرييل برام وبل غولد وبرادلي جاكسن ولي جوسم وميلاني مارلو وج. پ. ميسينا وكاثرين نورلوك، كلاي روتلج وسين ستيــڤز وكايلي سوان وفابيان وندت.

قدم الكثير من زملاء براندن في جامعة بولنغ غرين الحكومية آراء مفيدة حول أجزاء عديدة من الكتاب، ومن هؤلاء: كريستن كونز (الذي صك مصطلح «الاستقواء» في الفصل الخامس) ومولي غاردنر وماكس هيورد وكفن ڤيلر. كما قدم مايكل وبر خصوصًا تعليقات مفصلة حول المخطوط. كما نود أن نعبر عن امتناننا لمجموعة كريمة من طلاب الدراسات الفلسفية في بولنغ غرين لقراءتهم المخطوط في مجموعة قراءة خريف عام ٢٠١٨ وتقديمهم آراء مفصلة ومفيدة وهم: جوشوا براون وكريستينا ديو ڤسكي وريان فشبك وسارا غفاري وإزكيل غراوندز ومارك هيرمان وڤسليكي ليونتس وأميتابا پالمر وشوانپو زونغ، وقدم ول لوغار تعليقًا واعيًا مفصلًا مكتوبًا حول كل فصل.

على مر السنوات، ساعدنا كريغ وورمكي ونيثان بلانتين في حل الكثير من المشكلات وقدما لنا النصح الحكيم والدعم. كما قرأ عدد من الفلاسفة فصولًا مفردة وقدموا آراء حولها. نتقدم بالشكر لهورد كوزر وبريان ليتر وكريستين ملر على وقتهم وتفكيرهم الحصيف. ولأننا تلقينا العون من أناس عديدين لا يعني أنهم يوافقون على محتوى الكتاب طبعًا. كما أن الأخطاء هي من صنع أيدينا.

لقد قدمنا مقتطفات مختلفة في أماكن مختلفة، لذا نشكر هذه المؤسسات على دعوتنا وعلى الآراء التي تلقيناها: جامعة إلىنوي الشمالية وجامعة وَيك فورست وجامعة متشغن، وجمعية الفلسفة في شمال كاور لاينا، وجامعة كريتن ومركز الديمقراطية والتقنية في واشنطن، والمركز الكندي للأخلاقيات والشؤون العامة في هاليفاكس، نوقا سكوشا.

التقى براندن بجون غربز في لقاء الهيئة التدريسية الجديدة في جامعة بولنغ غرين الحكومية خريف عام ٢٠١٦. لم يحتج جون الكثير من الإقناع ليرى أن الاستعراض موضوع صالح للدراسة باستخدام أدوات علم النفس التجريبي. لقد كان صبورًا معنا لثلاث سنوات ورعى بعظيم الاهتمام الدراسة العلمية للاستعراض في برنامج بحث مدروس. نتقدم إليه بالشكر

لإسهامه في هذا المشروع وللمشورة المفيدة حول عدد من المسائل التجريبية.

عمل غريغ جنكنز في مادهاوس كريبت معنا كثيرًا لتصميم غلاف الكتاب. وقد كنا محظوظين لوجود محررين للكتاب، إذ قرأت محررتنا المستقلة شين ماكسول ولكنز مسودة أولى من الكتاب وأعطتنا مراجعة مفصلة واضحة حول لب كتابتنا وشكلها. وكانت محررتنا مع منشورات جامعة أكسفورد لوسي راندال متفهمة صبورة وداعمة. لقد جعلت ملاحظاتها على المسودة قبل الأخيرة الكتاب أفضل بكثير مما سيكون عليه لولاها.

الفصل الأول الحديث الأخلاقي ليس ساحرًا

«ليتك تصابين بالسرطان»

قد يكون الأطفال بغيضين تجاه بعضهم بعضًا. فهم يتنمرون وينبذون ويهزؤون ويغايظون وينبزون بالألقاب. ويشعر العديد من الصغار بحاجة للفوز دون اكتراث بمن يجرحون، وتتسم استجابتهم لأي نقد بالعدائية. فيلومون الآخرين عند وقوع الأمور السيئة، ويتكتلون ضد المختلفين (۱).

إن الكثير من الدروس الهامة التي نتعلمها في نشأتنا تتعلق بمعاملة الناس بالحسنى، وتكون هذه الدروس فاعلة لدى معظم الناس. وحينما نبلغ سن الرشد يكون معظمنا قد تعلم احترام الآخرين والتعاطف معهم. كما يتعلم كثير من الراشدين أيضًا أن يكونوا انتقائيين في تطبيق هذه الدروس. ويزودنا تويتر بأمثلة لا حصر لها. في عام ٢٠١٦، قتل تمساحٌ صبيًا في الثانية من نبراسكا في منتجع في أور لاندو، فلوريدا. كانت مأساة، لكن المغردة في منتجع في أور لاندو، فلوريدا. كانت مأساة، لكن المغردة وقي منتجع في أور لاندو، فلوريدا. كانت مأساة، لكن المغردة وقي منتجع في أور لاندو، فلوريدا. كانت مأساة، لكن المغردة

لقد سئمت للغاية من امتياز الرجل الأبيض في الآونة الأخيرة، حد أنني لا أشعر بالحزن لأن تمساحًا أكل طفلًا في الثانية [من العمر] لأن أباه غفل عن قراءة اللافتات(٢).

في أكتوبر من عام ٢٠١٧، أطلق رجل مسلح النارَ على جمع في حفلة موسيقية في لاس ڤيغاس، وقد قتل مطلق النار ٥٨ شخصًا وجرح ٢٠٥١ آخرين. إنها لمأساة، مرة أخرى. غير أن موظفًا في الشؤون القانونية في قناة سي بي إس غرد برأي مختلف، رابطًا إطلاق النار في ڤيغاس بحادثة إطلاق النار في مدرسة ساندي هوك التي خلفت ٢٠ قتيلًا من الأطفال:

إن لم يفعلوا شيئًا عند قتل الأطفال، فلست آمل أن يفعل الجمهوريون المقرفون الصواب، بل إنني لست مشفقًا حقًا [لأن] هواة موسيقى الريف غالبًا هم جمهوريون مسلحون (٣).

بدأت الناقدة الإعلامية النسوية أنيتا سركسيان(أ) عام ٢٠١٣

⁽أ) ناشطة نسوية كندية أمريكية، تعد أكثر النسويات إثارة للجدل بعد إطلاقها حملة انتقادات لألعاب الشيديو، إذ تزعم أنها ذات طابع ذكوري، وتصور النساء بوصفهن شخصيات مثيرة جنسيًا وتزيد كراهية النساء لدى الأولاد. (المترجمة)

إنتاج سلسلة من المقاطع المصورة تنتقد فيها صورة النساء في ألعاب الشيديو. وقوبلت محاولاتها بجبال من التغريدات المسيئة، إليك نماذج منها:

ليتك تصابين بالسرطان.

لأقلها صراحة، تستحقين كل ما وصلك من تهديد بالقتل.

سيستمر «التحرش» وينزداد. لن نكف حتى لا يبقى أحد يقر علنًا بأنه نسوي.

كانت هذه بعض الردود الألطف(٤)، فالعديد تضمن تهديدًا بالعنف الجنسي، وتحريضًا على الانتحار، وتهديدًا بالقتل.

لا يصعب إدراك أن هذا النوع من السلوك لا يُقبل من الأطفال. تخيل الذعر الذي سيعتريك لدى معرفتك أن طفلتك قالت لأصدقائها إنها لا تشعر بالحزن على حادث حافلة وقع مؤخرًا، إذ إن الأطفال الذين كانوا على متنها هم تلاميذ مدرسة ابتدائية منافسة. أو تخيل معرفتك أن طفلك هدد زميله بالعنف الجنسي لأنه انتقد لعبة الـ شيديو المفضلة لديه.

لكن الكثير من الراشدين يرون هذا النمط من الكلام مقبولًا تمامًا في النقاشات السياسية والأخلاقية. نحن لا نسمح لأطفالنا

بالسخرية من الآخرين أو معايرتهم أو التهجم عليهم، ولكننا إن سخرنا أو عايرنا أو تهجمنا على آخرين يفصحون عن آرائهم الأخلاقية التي نراها مهينة، فهذا أمر مختلف. أو هذا ما يظنه هؤلاء الراشدون. لست بحاجة لقضاء وقت طويل في الاطلاع على وسائل التواصل الاجتماعي، أو متابعة الأخبار عبر قنوات الكيبل، أو خوض النقاشات السياسية في جمع من الأشياع المختلفين لتدرك أن الخطاب العام ما هو إلا ساحة مدرسة للراشدين الكبار المشاكسين.

لعلك ترى هذه المقارنة بين خطاب البالغين العام والسلوك السيء للأطفال ساذجة، بل لعلك تراها نابعة من جهل ذوي الامتيازات. حين يدافع المرء عن معتقداته وقيمه الأخلاقية، فلا بد أن يصبح الحديث حامي الوطيس، ولكن هذا عائد إلى اهتمامه اهتمامًا عظيمًا بالأخلاق. وإن كنت تكترث حقًا بالصواب والخطأ، فلا يجدر بك أن تستاء من فظاظة الحديث الأخلاقي. وإن عبر أحد عن رأي أخلاقي يهينك، فمن العدل إخباره صراحة بأنه خسيس.

نظن أن من يعتنق هذا الرأي الأخلاقي غافل عن الضرر الذي قد يسببه الحديث في الأخلاق. كثير منه جيد، غير أن بعضه ليس كذلك. دعنا نشرح.

الكلام في الأخلاق

نعني بقولنا «الكلام في الأخلاق» الحديث في المسائل الأخلاقية، أي مواضيع من قبيل العدالة وحقوق الإنسان، وعلى صعيد أكثر عمومية، من الذي يتحلى بصلاح الأخلاق وما الذي يتعين فعله أخلاقيًا. وبعبارة أكثر تحديدًا، قد يتضمن الكلام الأخلاقي أيًا من الآتي:

- الحديث عن الحقوق والكرامة والعدالة والاحترام: «الهجرة حق إنساني أساسي»، و «نطالب بالعدالة من أجل أنتون». (1)
- الحديث حول صواب فعل أحدهم أو ارتكابه خطأ أخلاقيًا: «لقد أحسنتْ صنعًا بتوبيخ موجّه التهمة إليها»، «لقد تحرش بكل هؤلاء النسوة قطعًا».
- الحديث عن مدى صلاح المرء أخلاقيًا أو فساده: «لقد كان شجاعًا شجاعة مدهشة»، و «إنها مخادعة».
- الحديث عما يجب أن يحدث لأناس يفعلون الصواب أو

⁽أ) أنتون بـ الك مراهـ ق أمريكي يبلغ التاسعة عشرة من العمر، مات في الحجز في سبتمبر عام ٢٠١٩، ولم تتلق عائلته أي معلومات عن موته من السلطات المحلية. (المترجمة)

يرتكبون الأخطاء: «إنها جديرة بإعجابنا»، و «ليذهب إلى الجحيم».

- الحديث عن العواطف الأخلاقية: «إنني أستشيط غضبًا لقولها هذه الأكاذيب القذرة»، و«إنني لمعجب به أشد الإعجاب للتضحيات التي قدمها لأسرته».
- الحديث الذي يروّج للسياسات الاجتماعية أو يحرض ضدها: «إن علينا واجبًا تجاه أجيال المستقبل في تقليل انبعاثات الكربون»، و «تتطلب العدالة تطبيق عقوبة الإعدام».

إن الحديث الأخلاقي من قبيل هذا لعظيم القيمة، فهو وسيلتنا الأولية لتطبيق الأخلاق على المشكلات العملية، كما نلجأ إليه للتحذير من المخاطر وللإشارة إلى الذين يسببون الأذى لآخرين. إننا نجاهر بالثناء على الجديرين بالثقة، ونحرّض على التغيير الاجتماعي الإيجابي بتحفيز الأحاديث حول مبادئنا الأخلاقية المشتركة، ونؤثّر في سلوك الآخرين بقول عبارات الإدانة الأخلاقية. بإيجاز، إن الكلام الأخلاقي أداة اجتماعية فاعلة ومهمة في جعل أنفسنا وجيراننا وعالمنا أفضل.

وما دام الكلام في الأخلاق مهمًا للغاية، فلعلك تظنه مبجلًا

عالميًا. قد تظن على الأقل أن الناس سيستخدمون أدواته بحذر ومسوؤلية، ويحرصون على عدم نشرها للشر، ومن ثم سيأخذ الجميع هذا الكلام على محمل الجد عندما تدعو الحاجة. نعرف جميعًا أنه حين يشهر أحد المسدس الكبير -كالمطالبة بالحقوق، والعدالة، والكرامة، والاحترام، وغيرها- فلا بد من تنحية المخاوف الصغيرة جانبًا، وإجراء نقاش جاد حول الأمور المهمة، دون أن تعيقه التوافه والأشياء سريعة الزوال والنزاعات الشخصية.

للأسف، يستخدم كثيرون الحوار الأخلاقي بلا مسؤولية، فهم يوظفونه لإهانة الناس الذين يكرهونهم، وترهيبهم وتهديدهم، وإثارة إعجاب أصدقائهم، والظهور بمظهر الأخيار، وجعل الناس أقل شكّا في سوء سلوكهم. وهذا وجه قبيح للكلام في الأخلاق. ولا تكمن المشكلة في فظاظة الناس فحسب، بل في انتقائهم لهذا الكلام لأجل أغراضهم غير الملائمة. وعند استخدامهم له على هذا النحو، فإنه يتحول إلى أداة حامية ضد الأشخاص أنفسهم الذين قُصد مساعدتهم بها.

إن اعتبار الكلام في الأخلاق متاحًا للجميع يؤذي الآخرين، إيذاء كبيرًا في بعض الأحيان كما سنشرح في هذا الكتاب. كما أن البذيء من هذا الكلام مدمر بطريقة أخرى. فعندما يكون شائعًا، يؤمن الناس أنه لا يجدر بهم المشاركة نظرًا لممارسة الجميع له. وفي نظر هؤلاء الذين نفروا من الكلام في الأخلاق، فإنه لا يعدو أكثر من كونه سلسلة من الادعاءات اللئيمة وغير القابلة للتصديق، لذا يؤثرون عدم المشاركة.

ولكن فيما يبدو، لا يرى كثيرون الجانب السلبي من الكلام في الفضيلة، إذ يتصرفون كأنما هذا الكلام رائع على الدوام (عندما ينبع من طرفهم على الأقل). وهو كلام ساحر في نظر هؤلاء. فاستحضار كلمات مقدسة -من مثل العدالة والكرامة، والحقوق والمساواة، أو الشرف والتقاليد والإيمان والعائلة تحول سلوكك الأناني المسيء البذيء تحولاً سحريًا إلى شيء بطولي جدير بالثناء. أتريد أن تقسو على الأشخاص الذين لا تحبهم، وتحصل على مباركة أقرانك الذين يماثلونك في التفكير؟ أضفِ على سلوكك لغة أخلاقية طنانة. مرحى! شجاع، التفكير؟ أضفِ على سلوكك لغة أخلاقية طنانة. مرحى! شجاع، رائع، لا يخشى شيئًا في قول الحقيقة.

لكن الكلام في الأخلاق ليس ساحرًا، وليس لنا مطلق الحرية في معاملة الآخرين بسوء، لأننا نستحضر كلمات مقدسة، أو لأننا نظهر اهتمامنا بطريقتنا الخاصة. أن تجاهر برأيك الأخلاقي ليس منجزًا بحد ذاته، بل إن هذا يذكرنا بالذين يكيلون المدح للناس على قراءتهم للمجلات الرخيصة: "إنهم يقرؤون

على الأقل، فمرحى لهم!». وعلى خلاف الكثير من الكلام الأخلاقي البذيء، فقد لا يكون في هذا النوع من القراءات ما يُعترض عليه أخلاقيًا، لكنها ليست باهرة قطعًا. ومثلما ينبغي ألا يُمدح البالغون على أي صنف من القراءة فحسب، فيجب ألا يمدحوا على كلامهم في الأخلاق. فليس كله جديرًا بالثناء، وسيكون العالم أفضل إن اختفى بعضه.

لهذا الحوار مَهمة يؤديها؛ إذ يهدف إلى مساعدتنا على أن نصبح أحسن ونعامل الآخرين بالاحترام الذي يستحقونه، ونجعل من عالمنا مكانًا أفضل. ولكن ليس كل ما يقال فيه يساعدنا في تحقيق تلك الأهداف، فإساءة استخدامه أمر ممكن، وقد ينتهي بنا الأمر إلى تقويض جهودنا في الإصلاح الأخلاقي عندما نسىء استخدامه.

يتطلب إحسان استخدام الكلام في الأخلاق إدراكًا لاحتمال أن يُمنّى بالإخفاق، وتكون بعض صور إساءة استخدامه واضحة بشكل أو بآخر، فسِبابك عند اختلافك مع نمط حياة أحدهم أو آرائه الأخلاقية يقابَل بالعبوس. ويدرك معظمنا أن إخبار إحداهن أنها تستحق الموت لأنها ارتكبت حماقة صغرى ليس بالأمر الصائب. غير أن بعض أشكال الكلام في الأخلاق المدمر أكثر غموضًا، رغم أنها ليست بأقل سُميّة. ويُعنى هذا الكتاب بنوع

واحد من السموم في الخطاب العام، ونعني به الاستعراض الأخلاقي.

سنخوض في تفاصيل أكثر في الفصل التالي، ولكن إن كنت تبحث عن وصف واضح مثل «ملصق»، فإن الاستعراض الأخلاقي يعني اللجوء إلى الكلام في الفضيلة من أجل تسويق النذات. أن تستعرض يعني أن تحول كلامك الأخلاقي إلى مشروع للخُيلاء. والمستعرض متباه أخلاقي يحاول إثارة إعجاب الآخرين بخصاله الحميدة. ولنتمكن من إدراك ماهية الاستعراض إدراكًا أفضل، فلنلق نظرة على بعض الأمثلة.

الاستعراض: من هارڤي واينستين إلى روي مور

سيكون لدى معظم القراء إدراك عام لمعنى الاستعراض، ولا سبب لذلك سوى تواتر استحضار المصطلح في السياسة المعاصرة. ففي عام ١٣٠٧، على سبيل المثال، انتقد أوباما، الرئيس حينئذ، اجتماعًا للجمهوريين لما فيه من الاستعراض، إذ هددوا بإيقاف الحكومة الفدرالية عن العمل، إثر نزاع حول تمويل قانون الرعاية الصحية؛ فقال أوباما: «لهذا الاستعراض تأثير حقيقي على الناس»(٥). كما اتهمت هيئة التحرير في صحيفة ل. أ. تايمز اجتماع الجمهوريين بالاستعراض، جراء محاولاتهم

إلغاء تمويل جمعية تنظيم الأسرة الأمريكية(٢). ووصف معهد بروكنغز خطاب مِت رومنى حول إيران عام ٢٠١٢ بالاستعراض^(٧). وانتقد روس دوتات مخيم مرشح الرئاسة حينئذ دونلد ترامب لمؤيديه من العمال قائلًا إنه «ليس أكثر من إلهاء مستمر عن ضغائن تويتر والمستعرضين من أشباه الوطنيين»(^). كُتب على الموقع الإلكتروني لحملة ترامب الرئاسية لعام ٢٠١٦ «نحتاج حلولًا حقيقية نعالج بها مشكلات حقيقية، لا استعراضًا أو برامج سياسية»(٩). ودعا ترامب، بعد توليه الرئاسة، المدير السابق للاستخبارات الأمريكية جيمس كومى بالمستعرض المتباهي عند عرضه لأسباب فصله(١٠٠). كما قال الأمور نفسها عن جون ماكين عقب تصويته ضد إبطال قانون الرعاية الأمريكية(١١١). ها قد اتضحت الصورة أمامك.

يتراشق الناس الاتهامات بالاستعراض كثيرًا، ولكن كيف يبدو الاستعراض؟ لنتأمل مثال هارڤي واينستين، منتج الأفلام الشهير وقطب السينما الهوليوودية. ففي خريف عام ٢٠١٧، اتهم عددٌ من النساء واينستين بأفعال لا حصر لها من التحرش والاعتداء الجنسيين. أصدر واينستين تصريحه الأول في الخامس من أكتوبر [من العام نفسه] يفنّد الادعاءات، وافتتح خطابه بالإشارة إلى أنه «نشأ في الستينيات والسبعينيات [من القرن القرن

العشرين] عندما كانت قوانين السلوك وبيئة العمل مختلفة». ثم أعرب عن أسفه على سنتي السلوك السيء، وتعهد بأن يحسن التصرف في المستقبل، قائلًا: "إنه يحترم كل النساء، ويندم على ما حدث». ولكن الجزء الأكثر إثارة في تصريحه، الذي يلائم ما نرمي إليه، يأتي في النهاية:

أنا بحاجة إلى مكان لأنفس فيه غضبي، لذا عزمت على أن أولي كامل اهتمامي للاتحاد القومي للأسلحة (أ). وأرجو أن يستمتع وين لو بيير [الرئيس التنفيذي للاتحاد القومي للأسلحة] بحفل تقاعده... سأصنع فيلمًا عن رئيسنا، ولعلنا نجعل منه حفلا مشتركًا. بدأت إنشاء مؤسسة بخمسة ملايين دولار، لتقديم منح للمخرجات في جامعة كاليفورنيا الجنوبية (ب). نحن نعمل على ذلك منذ عام، وإن بدا متزامنًا. وسأطلق عليها اسم أمي، ولن أخيب أملها(۱۲).

⁽أ) منظمة غير ربحية أمريكية تدافع عن حقوق حمل السلاح في الولايات المتحدة. تأسست في سنة ١٨٧١ ويقع مقر الاتحاد في مدينة واشنطن. (المترجمة)

⁽ب) رفضت كلية الفن السينمائي قبول الهبة. (المترجمة)

نالت تصريحات واينستين انتقادات واسعة، وأدرك المراقبون من كل القطاعات السياسية أنه يلمّح إلى قضايا سياسية أخطر ليصرف الانتباه عن أفعاله المشينة. ربما ارتكب خطأ، لكنه امرؤ صالح، فهو يكره الاتحاد القومي للأسلحة، وينتقد الرئيس ترامب بشدة، وأنشأ بمحض الصدفة منحة للنساء؛ غير أننا واثقان تمام الثقة بأنه يستعرض.

أو لنتأمل قضية أخرى. في خريف عام ٢٠١٧ أيضًا، ترشح عضو الحزب الجمهوري في ألاباما روي مور، ضد الديمقراطي دوغ جونز في انتخابات خاصة لمجلس الشيوخ الأمريكي. لمور مسيرة طويلة مثيرة للجدل - تتضمّن تاريخه من الاتهامات بسوء السلوك الجنسي- لن نخوض في تفاصيلها هنا. فما يثير اهتمامنا أنه كثيرًا ما اتّهم بالاستعراض. وقبل انتخابات ألاباما الخاصة، قالت ميشيل كوتل من صحيفة ذا أتلنتك إن «شخصًا محبًا للشجار، ومستعرضًا معظَّمًا لذاته مثل مور هو ما لا تحتاجه ألاباما لتمثيل مصالحها»(١٣). كما وصفه دوغ جونز، خصم مور، بالمستعرض أيضًا. ففي إعلان تلفزيوني للحملة، نظر جونز إلى الكاميرا مباشرة وأخبر المشاهدين بأن النظام الصحى «معطل»، وأن «آراء مور المتطرفة واستعراضه لن تفعل شيئًا لإصلاحه»(١٤). ودعا ديــقد فرنتش في مقال له في صحيفة ناشـونال ريــقيو مور

«برجل الدستور الجهول الأحمق المستعرض»(١٥).

لم تكن هذه الاتهامات جزافًا. إذ ما إن غدا مور قاضيًا في المحكمة العليا في ألاباما، أمر بنقش الوصايا العشر على نصب يزن ٥٢٨٠ رطلًا من الغرانيت، ووضعه في مبنى المحكمة في ألاباما. وقاضته مجموعات الحريات المدنية، زاعمة أن النصب ليس دستوريًا. فخسر مور القضية، وأمر بإزالة النصب، فرفض الانصياع لأمر المحكمة، وأعفي من منصبه لعدم امتثاله لأوامر المحكمة. وأثناء ذلك، كان يدافع بلا هوادة عن النصب على أسس أخلاقية ودينية. وأشهر المدفعية الأخلاقية الثقيلة قبل إعفائه من منصبه بثلاثة أشهر.

ما دمتُ قاضيًا في ولاية ألاباما، فإن من واجبي إدارة النظام القضائي في هذه الولاية لا تدميره. لا نية لدي لإزالة نصب الوصايا العشر والأساس الأخلاقي لقانوننا. فإن فعلت، كان ذلك تقويضًا لنظام العدالة في هذه الولاية، وهذا ما لا أستطيعه، ولن أفعله. ولكن على نطاق أوسع، أيها السيدات والسادة، فإن الأمر لا يتعلق بإزالتي للنصب أم لا، إنها ليست مسألة عصيان حكم قضائي أو إذعان له. بل إن المسألة الحقيقية تكمن فيما إذا كنت سأنكر

أن الرب خلقنا ووهبنا حقوقًا منيعة، من بينها الحياة والحرية والسعي نحو السعادة (١٦٠).

لعل هذا هو الموقف الذي أراد الرب لمور أن يتخذه. أما التفسير البديل فيقول إن مور أراد أن يعرف أهل ألاباما أن لا قوة على الأرض، صغيرة كانت أم كبيرة، بوسعها زعزعة قناعته الأخلاقية بأن النصب الغرانيتي محوري لحماية حقوقنا المنيعة. فما الرابط حقًا بين النصب وتلك الحقوق؟ إنه ليس واضحًا. أما الواضح فهو رغبة مور أن يراه الناخبون في ألاباما مثالًا للأخلاق، يدافع عن الدين والأسس الأخلاقية للقانون. ومرة أخرى، إننا واثقان تمام الثقة أنه كان يستعرض.

رغم نزوع المشاهير والسياسيين إلى الاستعراض، فقد احتكروا السوق من غير شك. إذ تعج مواقع التواصل الاجتماعي عندك بأشخاص يحاولون إثبات وقوفهم على الجانب الصحيح من التاريخ. ويعود الفضل إلى هؤلاء في تحول الخطاب الأخلاقي العام إلى حرب للمزايدة الأخلاقية. لا بد أنك رأيت أشخاصًا يناقشون مزايا ضبط السلاح، فينتهي بهم الأمر إلى محاولة إقناع الآخرين بأن جل اهتمامهم ينصب على أطفال المرحلة الابتدائية.

ويتسرع كثيرون في الإجماع على أن الخطاب العام في حال مؤسفة، رغم أن ما يجول في أذهانهم أحيانًا كثيرة هو سلوك «الطرف الآخر». إذ يسهل تمييز السلوك السيء في الجماعة الأخرى، لكن تمييزه في جماعتنا أصعب، ناهيك عن تمييزه في أنفسنا.

يقوم هذا الكتاب على رؤية أنفسنا بصراحة وصدق، والتساؤل إن كنا نحسن صنعًا بكلامنا الأخلاقي، أم أننا نحاول أن نظهر بمظهر الأخيار. سنبين لك أن محاولتك تحسين صورتك عبر كلامك الأخلاقي، هو نفسه ما يمنعك من توظيفه من أجل الخير.

كيف ننقد هذا الكتاب؟

لأن الاتهامات بالاستعراض قد أصبحت في الآونة الأخيرة سلاحًا آخر في الحروب الثقافية، فإن النقاشات حوله تميل إلى السخونة والفوضوية. ونحن نريد أن نستحث التقدم في هذا النقاش، لا أن نخلق دراما. لذا قبل الخوض في تفاصيل الاستعراض الأخلاقي ولماذا نعده خطيرًا، دعنا نوضح بعض الأمور التي بدأت تثير قلقك، ونقدم عرضًا قصيرًا لما سيأتي.

قد يساء استخدام الكلام الأخلاقي، كما بت تعرف الآن.

ورغم تعهد هذا الكلام بأن يكون حول أمور نتفق جميعًا على أهميتها، من قبيل العدالة والمساواة والاستقامة وما شابهها، فقد يكون ذا آثار سلبية إن حاد عن الصواب، مثلما يحدث حين نستعرض. سنوضح في الفصل التالي ماهية الاستعراض الأخلاقي، رغم أنك قد عرفته من الأمثلة التي عرضناها ومن تلك التي نشهدها كل يوم.

وأثناء تفكيكنا للاستعراض الأخلاقي، قد تساورك بعض الشكوك المفهومة. فلعلك تتساءل: أيستعرض الناس حقًا؟ أو إن كانوا يفعلون حقًا، فلمَ نظنه أمرًا شائعًا؟ لو كانت حوادث قليلة من هنا وهناك، ما كان الأمر ليهم كثيرًا.

سنحاول إقناعك على صفحات هذا الكتاب أن الناس لا يستعرضون فحسب، بل إن كثيرًا منا يفعل ذلك بانتظام. لا بد أنك، وإن وافقتنا على وجود الكثير من الاستعراض، فما زلت تظن أن نظريتنا حول الاستعراض الأخلاقي خاطئة. وإن كان هذا صحيحًا، فنحن نأمل أن نتعلم من الآخرين كيف نحسن فهمنا لماهية الاستعراض الأخلاقي وعمله.

كما أننا نظن أن الاستعراض وسيلة لإساءة استخدام الكلام الأخلاقي، أي أنه في عمومه سيء، وعلينا تحاشيه. وقدمنا الكثير

من النقاشات في محاولة لإقناعك بهذا، وقد لا تقنعك كلها، ولا بأس. وما دام معظم النقاشات جيدًا، فإننا نرى أننا أثبتنا أن الاستعراض سيء عمومًا ويجب تجنبه.

ثمة اعتراضات أخرى قد يبديها القارئ سنحاول تحديدها مسبقًا، ونحن نعرضها لأنها مثبّطة، إذ قد تمنع القارئ من البقاء منفتحًا على آرائنا، لذا نود أن نناقشها بإيجاز هنا. قد يشير ناقد إلى أن الاستعراض ليس الطريقة الأسوأ أو الأكثر شيوعًا في إساءة استخدام الكلام الأخلاقي، ولكننا لا نزعم أيًا من هذين الأمرين، ونقاشنا لا يقوم عليهما. كما قد يعترض أحدهم قائلًا إنه لم يجدر بنا تأليف كتاب نشرح فيه إساءة استخدام الكلام في الأخلاق، ما لم يكن أكثر الأشكال خطورة أو شيوعًا. غير أنه ما من أحد يؤمن حقًا بمبدأ «نقاش المشكلة الأسوأ فقط». ولا أحد يرى أنه لا يجدر بك تأليف كتاب حول مشكلة التحرش الجنسي في الجامعات، لأن في الجامعة انتهاكات أخطر، كالاعتداء الجنسي، أو لأن بعض الأخطاء أكثر شيوعًا كالكذب أو الانتحال. وإن كان هـذا المبـدأ صحيحًا، فسيُظهر في أحسـن الأحوال أننا ارتكبنا خطأ أخلاقيًا بتأليف هذا الكتاب أكثر من أي كتاب آخر، لكنه لن يثبت أن أيًا من نقاشاتنا عديم الجدوي.

وثمة مثال أخير من النقد المحتمل العقيم يستحق انتباهًا خاصًا. ما دام موضوعنا يتعلق بأخلاق الخطاب العام، فسينجر البعض إلى الزعم بأن نقاشنا يتعارض بصورة ما مع تقدير حرية التعبير. والمقصد، بظننا، لأننا نبتغي إظهار أن بعض الكلام العام مشكوك في أمره من الناحية الأخلاقية، فلا بد أننا أيضًا نرى أن الناس ليس لهم الحق في الإفصاح عن مكنونات أنفسهم. ولكن هذا خطأ، فلا شيء في هذا الكتاب يتعارض مع الحق القوي في حرية التعبير. ولكن في الآن نفسه حقك في قول ما تريد لا يعني أن قول ما تريد صائب أخلاقيًا، وبأي صورة تريد قوله بها. ولتتمكن من فهم هذه الفكرة فهمًا أوضح، فكّر بالكذب. إذ يدرك الجميع أن الكذب في أحوال كثيرة خطأ أخلاقي، ولكن لا أحد يرى بوجوب اختيارك بين رؤيتك الكذب خطأ، وبين تأكيد الحق بحرية التعبير.

سنشرح الاستعراض في الفصول الخمسة القادمة، ونقدم أسبابنا في اعتبارنا له خطأ. وبعد عرض نقاشنا، سننتقل إلى النظر في تأثير الاستعراض في السياسة في الأنظمة الديمقراطية، ثم نختتم الكتاب باقتراح أمور نرى إمكان فعلنا لها جميعًا لتحسين الوضع الحالي للكلام الأخلاقي.

لذا إن كنت من الأشخاص الذين يهتمون اهتمامًا بالغًا بالعدالة، فواصل القراءة.

الفصل الثاني ما الاستعراض الأخلاقي؟

الاستعراض: مقدمة قصيرة جدًا

ليس كل الاستعراض من الضرب الأخلاقي، فلدينا شتى الأساليب التي يسعنا بها أن نستعرض أمام الآخرين. استُخدم مصطلح "يستعرض» مدونًا أول مرة بمعنى "يتباهى»، في كتاب حول كرة القاعدة الأمريكية (البيسبول) نشر عام ١٨٨٨. استخدم المصطلح لوصف لاعبي كرة القاعدة الذين يحبون التفاخر بعد أدائهم في مباراة رائعة: "إن الأشياء الصغيرة من هذا القبيل هي ما يصنع 'اللاعب المستعرض '[كذا وردت في الأصل]. فهو مسك الكرة في التقاطات صعبة، ويدور حول الملعب عندما يمسك الكرة في التقاطات صعبة، ويدور حول الملعب عندما يمسكها» (۱). لا بد أن المعنى المقصود أن اللاعبين من أمثال هؤلاء كانوا يلعبون للجالسين في المقاعد ذات التذاكر الرخيصة، أي الجالسين في المقاعد ذات التذاكر الرخيصة، أي الجالسين في المسقوفة.

كما يظهر الاستعراض في حقول أخرى، إذ ينخرط الناس في أنشطة مماثلة بغية إبهار الآخرين. لدى كثير منا أصدقاء أو

زملاء ينغمسون في الاستعراض الثقافي عبر استغلال الحوار لإظهار ذكائهم الحاد أو معرفتهم العميقة جدًا. ولعلك صادفت ما يُعرف بالاستعراض الروحاني أو الديني. فبعد دعوتك شمّاس كنيستك إلى منزلك لمشاهدة سوپر بول [مباراة البطولة السنوية للرابطة الوطنية لكرة القدم]، يبدي اندهاشه، وقد أسمع كل الواقفين بالقرب، من أن عندك وقتًا لهذه الأشياء، وأن ليلة الأحد هي وقته الذي يكرسه للصلاة لكل البعثات التبشيرية، لذا فإنه يأسف لأنه لن يتمكن من الحضور. بإيجاز، إن كان ثمة سمة محبذة اجتماعيًا يسع المرء إظهارها في حديثه، فلا بد له من تجربتها.

يبدو أن مصطلح الاستعراض قد انتشر على نطاق أوسع في النصف الثاني من القرن العشرين. تتضمن مراجعة منشورة عام ١٩٧٠ في هارڤرد كرِمْزِن لكتاب نعوم تشومسكي الحرب مع آسيا سطرًا يقول: «لمن لم يعجبه منا قدرتنا على إنهاء الحرب بقليل من الاستعراض في [متنزه] بوسطن كومون، فإن فعل شيء هادف حيال إنهاء النزاع لم يزل في مرحلة النقاش»(٢). واتهم مقال نُشر في ذا رِببلك عام ١٩٧٥ الرئيسَ السابع أندرو جاكسن بانخراطه في «الدفاع عن المحكمة العليا دفاعًا مستعرضًا»(٣).

شابرول قبل حلول الظلام "إن الفيلم دراسة للشعور بالذنب. إذ يعزم الزوج على تسليم نفسه للشرطة، فتتهمه الزوجة بالاستعراض. ويأسف كل من الزوجة والصديق لوقوع الجريمة أسفًا كبيرًا من غير شك، ولكن إقحام الشرطة... حسن، سيكون في هذا شيء من المغالاة»(٤).

لقد وصلنا إلى المرحلة التي صار فيها المصطلح جزءًا من اللغة العامة التي يستخدمها الأمريكيون في نقاش الأخلاق والسياسة. فعندما ترى مذيع أخبار عبر قنوات الكيبل يتهم الناطق الرسمي لمجلس النواب پول ريان أو السناتور بيرني ساندرز بالاستعراض، فقد تكونت لديك فكرة أولية عن ماهية التهمة. وفي هذا الكتاب سنوضح تلك الصورة، ونساعدك على فهم معنى الاستعراض، وبخاصة في السياقات الأخلاقية.

التفسير الأولي للاستعراض الأخلاقي

يُستخدم مصطلح الاستعراض، كما رأينا مما مر معنا من الأمثلة، في مختلف مجالات الحياة. فماذا نعني إذن عند حديثنا عن الاستعراض؟ (٥) إليك شرحنا الأولى:

١- يرغب المستعرض في إبهار الآخرين عبر ملكاته
 الأخلاقية، ونسمّى هذا الرغبة في التقدير.

٢- يحاول المستعرض إشباع تلك الرغبة بالإدلاء بدلوه في الخطاب الأخلاقي العام، ونسمّي هذا العرض العلني التعبيرَ عن الاستعراض.

يمكنك إذن أن تنظر إلى الاستعراض من خلال معادلة بسيطة:

الاستعراض= الرغبة في التقدير+ التعبير عن الاستعراض.

لنناقش كل عنصر من هذين العنصرين بشيء من التفصيل.

الرغبة في التقدير

يود المستعرض أن يرى الآخرون أنه مبهر بأخلاقه، وهذه هي الرغبة في التقدير. وهي الجزء الأول من وصفنا الأولي للاستعراض.

مثلما تحاول التظاهر بانشغالك في العمل لإيهام الآخرين أنك تعمل بجد، فالاستعراض وسيلة يستخدمها المرء للإيحاء للآخرين بأنه قدّيس فاضل، أو بطل نبيل. وربما كان للمستعرض أهداف أكثر اعتدالًا، إذ يرغب فحسب أن يظنه الآخرون امرأً محترمًا. وسيكون عندئذ واحدًا من القلة القليلة التي تلتي أدنى

معايير الاحترام الأخلاقي في عالم اليوم. فقد يرغب المستعرض، على سبيل المثال، أن يدرك الآخرون أنه يهتم بالمهاجرين، رغم عدم اهتمام أحد بهم اهتمامًا فعليًا. وسواء أأراد أن يُنظر إليه على أنه رائع الأخلاق أو محترم فحسب، فإنه يريد عادة أن يُرى تفوقه على شخص أو جماعة ما. من المفيد أن يكون عندنا مصطلح لوصف ما يريده المستعرض، لذا فلنقل إن المستعرض يريد أن يعد «محترمًا من الناحية الأخلاقية».

كما يود أحيانًا أن يتكون لدى الآخرين انطباع إيجابي صغير حول احترامه. وغرضه من ذلك تلقى شكل عام من الإعجاب أو الاحترام لكونيه «في صف الملائكة». ويريد المستعرض في أحيان أخرى أمرًا أكثر تحديدًا. فيرغب، مثلًا، أن يرى الآخرون أن قناعاته جديرة بالاحترام الأخلاقي؛ بمعنى أن آراءه فيما يعد جمالًا أو تقدمًا أخلاقيًا آراء مميزة بحق. أو يود من الآخرين أن يعجبوا بحساسيته عند الحديث في المسائل الأخلاقية. فقلة من الآخرين تحزنهم آثار الزلازل، أو يثير غضبهم قوانين الحد الأدنى للأجور مثل حزنه أو غضبه. أو ربما يود المستعرض أن يوحي للآخرين بأن عنده أولويات أخلاقية لا تشوبها شائبة، فقد يهتم متابعوه في تويتر في أن يخفف عنهم عب، الضرائب، أما هو فيهتم بالعدالة في المقام الأول. وقد يرغب أحيانًا بإثارة

إعجاب الاخرين بآرائه الأخلاقية في حل مشكلة ما؛ ولا بد أن يرى الجميع أنه يعرف حق المعرفة أسباب الفقر والسبل لعلاجه.

بوسعنا أيضًا التفكير فيما يريده المستعرض عبر تأطير رغباته وفقًا للمكانة الاجتماعية. يرى علماء النفس وجود طريقتين لكسب المكانة الاجتماعية: الوجاهة، والهيمنة (١٠). ونعني بالوجاهة المكانة التي تنالها من حسن ظن الناس بك لأجل علمك أومهاراتك أو نجاحك. أي أن بوسعك الوصول إلى مصادر معلومات ليست متاحة لهم، فيعاملونك باحترام. قد يعني هذا في العصور القديمة قدرتك على صنع المقلاع، أو مهارتك في الصيد. وقد يعني في العصور الحديثة امتلاكك معرفة الخبير في قانون براءات الاختراع، أو أنك لاعب كرة مضرب مصنف عالميًا.

في المقابل، نقصد بالهيمنة المكانة التي تنالها من بث الخوف في نفوس الآخرين عبر التهديد أو الإجبار أو إظهار القوة المفرطة. ويعاملك المسيطر عليهم باحترام لخشيتهم من أن تعاملهم بقسوة. وقد اكتسب أسلافنا الهيمنة من خلال ضرب الأزواج أو قتل الأنداد. ما زال الناس في العصور الحديثة يستخدمون العنف الجسدي، لكن بوسعنا أيضًا اكتساب الهيمنة عبر إحراج الآخرين على مواقع التواصل الاجتماعي، أو مهاجمة زميل لنا في اجتماع.

سيساعدنا هذا التمييز بين الوجاهة والهيمنة على التفكير في ما يحرض المستعرض. فهو يسعى إلى بناء وضعه الاجتماعي ضمن بعض الشبكات الاجتماعية المناسبة على الأقل. وغالبًا ما يفعل ذلك عبر سعيه إلى الوجاهة من أجل ملكاته الأخلاقية، ويطمع بالشهرة لكونه نموذجًا أخلاقيًا ملهمًا مثلًا. ويود الحصول على الشهرة دون قيامه بشيء بطولي نبيل بالضرورة، بل مقابل على الشهرة دون قيامه بشيء بطولي نبيل بالضرورة، بل مقابل الطباعة على لوحة المفاتيح أو قول بعض الكلمات. ويظن حصوله على هذه الوجاهة سيسفر عنه احترام الآخرين، حين يتعلق الأمر بالأخلاق على الأقل.

ولكن بعض المستعرضين يستخدم الكلام في الأخلاق بغية تحقيق أهداف أسوأ. فهو يتباهى للسيطرة على الآخرين، ويوظف هذا الكلام لإحراج الآخرين أو إخراسهم وبث الخوف في النفوس، إلى جانب تهديدهم لفظيًا ومحاولة إذلالهم، ويحاول إثارة الإعجاب عبر الحط من قدر خصومه، وهذا دافع بشري شائع جدًا(٧). وبدلًا من السعي نحو المكانة عبر بناء الوجاهة، فإنه يلتمسها بإذلال الآخرين. «اخرس وامتشل لرأيي في العالم وإلا أهنتك وأحرجتك! فأنا ذو الخلق الصالح هنا!». وإن كان المستعرضون يسعون إلى الوجاهة الأخلاقية عادة، فإن بعضهم المستعرضون يسعون إلى الوجاهة الأخلاقية عادة، فإن بعضهم يسعى إلى الهيمنة أيضًا.

إن عنصري الوجاهة/ الهيمنة يؤكدهما البحث التجريبي النذي أجريناه حول الموضوع (^). في الدراسات التي أجريت على طلاب الكليات والراشدين في الولايات المتحدة، يترافق الاستعراض الأخلاقي عادة بإحدى الوظيفتين أو كلتيهما. وتقاس وظيفة الوجاهة بمدى اتفاق الناس بشدة، أو معارضتهم بشدة لعبارة من قبيل «يجب أن تكون قناعاتي السياسية/ الأخلاقية مصدر إلهام للآخرين». وتقاس وظيفة الهيمنة بمدى اتفاق الناس بشدة أو معارضتهم بشدة لعبارة من قبيل «أشارك قناعاتي السياسية/ الأخلاقية لأشعر الذين يخالفوني الرأي قناعاتي السياسية/ الأخلاقية لأشعر الذين يخالفوني الرأي بالسوء».

من الذين يحاول المستعرض إبهارهم؟ يتوقف الأمر على عدة أمور. يأمل المستعرض أحيانًا بأن يظفر باحترام أقرانه الذين يماثلونه فكرًا. فالأشخاص الذين يشاطرونك آراءك في السياسة أو الدين أو الاقتصادهم «عُصبتك». وقد يسعى المتباهي، مثلًا، إلى لفت انتباه أفراد من عصبته لأنه «يقف على الجانب الصحيح» في قضية ما. لكن المستعرض يرغب في حالات أخرى أن يراه أعضاء «الجماعة المخالفة» جديرًا للغاية بالاحترام أخلاقيًا. كما قد يرغب، مثلًا، أن يدرك من يخالفونه رأيه الأخلاقي الرفيع الشأن فيذعنون له في الخطاب الأخلاقي. وقد يكون الاستعراض

الموجه إلى «الجماعة المخالفة» محاولة للهيمنة. في بحثنا التجريبي التمهيدي، وجدنا أن شكل عنصر الهيمنة من الاستعراض يميل ميلًا قويًا إلى استهداف «المخالفين»^(۹). وقد يوجه المستعرض تباهيه في حالات أخرى لجمهور عام، دون أن يعمد إلى التمييز بين المجموعات، ويريد لجمهوره أن ينظر إليه نظرة إيجابية وفقًا لملكاته الأخلاقية.

لنتجه الآن إلى الجزء الثاني من وصفنا الأولي:

التعبير عن الاستعراض

عندما يستعرض المرء، فإنه يفعل ذلك بقول شيء ما أو كتابته. فالسياسي الذي يريد أن يرى الناخبون اهتمامه بالفقراء أكثر من اهتمام خصمه، سيذكر شيئًا عن ذلك في خطاب سياسي في جولات الحملة الانتخابية. والطالب الجامعي الذي يريد أن يرى أقرانه أنه أكثرهم استياء من نتائج الانتخابات، سيكتب على الفيسبوك أو تويتر. بوسعنا أن نسمّي ما يقوله المستعرض أو يكتبه بالتعبير عن الاستعراض. إذ يعبر هؤلاء عن استعراضهم لجعل الناس يصدقون أنهم مميزون رفيعو الأخلاق. وبعبارة أخرى، فإن لدى المستعرض رغبة في نيل التقدير، فيتحدث عن أفعاله بغية إشباع هذه الرغبة. يحاول السياسي والطالب الجامعي جعل الآخرين يؤمنون أنهما جديران بالاحترام لأخلاقهما.

قليلًا ما يتصرف الناس بناء على دافع واحد. فقد تطلب طبق الأدامي (أ) لأنك تستسيغ مذاقه، ولرغبتك في تناول طعام صحي. إن أفعال الاستعراض لا تختلف عن هذا، فقد يرغب السياسي المستعرض أن يظنه جمهور الناخبين مهتمًا كثيرًا بالفقراء، لكنه قد يود أيضًا إثارة حفيظة الجمهور أو إحراج خصمه. وقد يرغب في إثارة إعجاب الآخرين بالتزامه الفذ بحقوق العمال، ويرجو أن يتحرك الآخرون، بعد سماعهم ما يقول، لدعم الحركة العمالية.

لذا لا يتعين على الرغبة في التقدير أن تكون الدافع الوحيد للتعبير عن الاستعراض. بل إننا لا نرى أنها الدافع الأقوى، غير أنها يجب تكون قوية. إلى أي حد؟ يجب أن تكون قوية بحيث يصاب المستعرض بالإحباط إن عرف أن جمهوره لم يفتن بملكاته الأخلاقية بسبب ما قاله. وهذا لا يعني أنه سيعرف فعلا إن أعجب الناس به تبعًا لاستعراضه. وما هذا إلا اختبار لمدى قوة رغبته.

لعلك تقول: ولكن ألا نشعر بالإحباط دومًا إن لم نحصل على ما نريد؟ لا نظن ذلك. تكون رغبتنا بالأشياء ضعيفة نسبيًا،

⁽أ) طبق من المقبلات اليابانية يعد مصدرًا جيدًا للبروتينات والألياف. (المترجمة)

فإن لم نحصل عليها قلنا «أوه لا بأس»، ونمضي قدمًا. فقد يرغب براندن أن يفوز فريق لكرة القاعدة من الرابطة الوطنية بالسلسلة العالمية العام المقبل، لكنه لن يشعر بالإحباط إن لم يتحقق ذلك، لأنه ليس منشغلًا به تمامًا. وما هذه إلا رغبة ضعيفة من رغباته؛ إذ يقول في نفسه «إن حدث هذا فسيكون أمرًا رائعًا». وقد يصدق الأمر نفسه على الرغبة في إبهار الاخرين. فلن يرقى الإخفاق في إشباع رغبة ضعيفة جدًا في إثارة الإعجاب إلى مستوى الشعور بالإحباط إن أدركنا أننا لم نثر إعجاب أحد. وفي المقابل، سيشعر المستعرض بالإحباط إن عرف أنه فشل.

لماذا يعد الإحباط اختبارًا جيدًا؟ الإجابة مرتبطة بأسلوب انشغال المستعرض بإثارة الإعجاب. ثمة دافع نرغب فيه جميعًا، هو أن ينظر إلينا الآخرون نظرة تقدير. تكون هذه الرغبة عادة بريئة من الناحية الأخلاقية، ولا تسبب ضررًا كبيرًا لأننا قادرون على كبح لجامها وعدم الانسياق خلفها(١٠٠). فقد تعتريك رغبة أن يعرف الضيوف في حفل عشاء مقدار ما تجني من المال، غير أنك قادر على كبح نفسك فلا تتفوه بذلك. ولكن إن كانت هذه الرغبة قوية فسيكون كبحها أصعب. ويود المستعرض أن يثير الإعجاب، ولهذا يُعدُّ الشعور بالإحباط اختبارًا جيدًا.

إن المستعرض في وضع حرج. إذ لا يمكنه، من جانب، قول أي شيء وينتظر أن يغادره الآخرون ظانين أنه جدير بالاحترام حقًا. فإن أردت لأحد أن يرى اهتمامك الحقيقي لأمر الفقراء، فليس منطقيًا أن تقول شيئًا من قبيل «هذا البرتزل [البسكويت المملح] يثير عطشي!».

ومن جانب آخر، فإن المستعرض نادرًا ما يخرج على الملأ ويقول شيئًا مباشرًا من قبيل:

«أنا أكثر الناس رهافة من الناحية الأخلاقية، وإني لأهتم لأمر الفقراء أكثر منكم».

غير أنه سيميل إلى قول شيء غير مباشر:

«بوصفي شخصًا ناضل طويلًا من أجل الفقراء، فإني أجد كل هذه المقترحات لإلغاء قوانين ضبط الإيجار مقرفة. إن كنت تراها جديرة بالانتباه، فأنت لا تهتم بالفقر في هذه البلاد».

رغم أن هذا المقتطف أقوى بكثير، فإن المقاربة غير المباشرة لا توحي بمدى اهتمام المتحدث بالفقراء. ومع ذلك، فإن التأثير المقصود من تصريح كهذا هو التأكيد على هذه الحقيقة للناس. لدينا ما يقوله المستعرض، وما يحاول المستعرض أن يلمح إليه (۱۱). أي أن المستعرض يحاول عادة تضمين كلامه شيئًا عن

نفسه دون الاكتفاء بالتصريح به فحسب. واللغة غير المباشرة من مثل هذا واسعة الانتشار (۱۲). فإن أردنا أن نطلب شيئًا، على سبيل المثال، فسنقول أشياء من قبيل «إن استطعت تمرير الملح فسيكون ذلك رائعًا»، وعندما نعرض رشوة نقول «حسن أيها الضابط، أتظن أن ثمة وسيلة ننهي بها هذه المخالفة الآن؟»

قد يكون بعض القراء مطلعين على شكل آخر من الكلام غير المباشر، ونعني به التواضع المصطنع؛ أي التبجح المغلف بلغة متواضعة أو شاكية. «لن يتيح لي أمازون أن أطلب أكثر من ثلاث نسخ من كتابي في كل مرة. أيضعون حدًا على الكتب الأكثر مبيعًا؟ يا له من أمر مزعج!»(١٠) «لماذا يختارني رئيسي لخدمة أهم العملاء؟» يحاول المتواضع المتصنع التفاخر، لكنه يحاول أيضًا تغليف مقصده الحقيقي بلغة تخلو من العجرفة. ويستخدم المستعرض اللغة غير المباشرة لأسباب مماثلة.

فلماذا يستخدم لغة مواربة قد تفسل في إيصال الأمر الذي يريد أن يؤمن به الآخرون؟ لسنا ندري إن كان للأمر تفسيرًا واحدًا. فقد تتطلب السياقات المختلفة كلامًا غير مباشر لأسباب مختلفة. يشير ست فن پنكر ومارتن نواك ومارتن لي إلى تفسيرات عديدة ممكنة للكلام غير المباشر تشرح سبب انجذاب المستعرض إليه كثيرًا. سنناقش أحدها فيما يلي.

إن أحد الأسباب المحتملة التي تدعو المستعرض إلى استخدام اللغة غير المباشرة عائد إلى كونها تتيح له الإنكار المقبول. ثمة رفض اجتماعي عام للتفاخر على الملأ بصفاتك الأخلاقية الرائعة المزعومة. ومثلما سيكون تصريحك بامتلاكك أفضل الإحساسات الذوقية أو الذائقة الموسيقية الأكثر ثقافة عملًا أخرق، فليس مقبولًا اجتماعيًا تصريحك بأن أخلاقك مثيرة للإعجاب. ولكن ما دام هذا هو بالضبط ما يود المستعرض إيصاله، فإنه بحاجة إلى استغلال اللغة لقول ذلك بصورة غير مباشرة، ودون الحاجة إلى القدوم والإعلان عن عظمته الأخلاقية، فإنه يحتفظ بالإنكار المقبول. تخيل أن يُتهم أحدهم بالاستعراض فيجيب: «أوه، لم أكن أتحدث عنى. أنا آسف حقًا لأني أرى أن إبطال قوانين ضبط الإيجار وبيل حقًا». وما دام ثمة ثمن اجتماعي لتعظيم الذات الواضح، فإن المستعرض يمنح نفســه وسـيلة لإنكار ما يزمع فعله. غير أن حقيقة استخدامه اللغة غير المباشرة تشير إلى معرفته غالبًا بغباء ما يفعله.

ورغم ذلك، يبدو واضحًا، غالبًا، في سياق ما أن أحدهم يستعرض وإن كان يستخدم كلامًا غير مباشر. ما الغرض من استخدام الكلام غير المباشر إذن؟ لاحظ أنه يصعب تأليف جملة تكون مثالًا واضحًا على الاستعراض، وأمرًا يقوله المرء في

حوار عادي في آن واحد. وهذا عائد إلى أن كثيرًا من الأدلة التي تستخدمها لتخلُص إلى أن أحدهم يستعرض تتطلب سياقًا؛ أي شخصية المرء وطباعه، وتاريخه في الحديث في الأخلاق، وموضوع النقاش ونبرة صوته، ومشاركات الآخرين في النقاش الحالي، وغيرها (١٤٠). وهذه الإلماحات مهمة لأن الاستعراض يشمل الرغبة في إثارة إعجاب الآخرين، ويصعب معرفة ما يجول في ذهن امرئ آخر. وقد توحي كل هذه الأدلة السياقية، إلى جانب ما يقوله المرء، إلى تضمنها الرغبة في التقدير.

وبذا تكون محقًا إن استنتجتَ أن أحدهم يستعرض، لأنك حظيت بمساعدة الأدلة السياقية. ولكن إليك المفتاح: لن يشير الكلام غير المباشر المقتطع من سياقه إشارة واضحة إلى أن الشخص يستعرض، لكن الكلام المباشر سيفعل ذلك. إن جملة كهذه "إنني أكثر الأشخاص هنا رهافة من الناحية الأخلاقية...» ستظل إدانية وإن اقتطعت من سياقها. أما جملة "بوصفي شخصًا ناضل طويلًا من أجل الفقراء...» فأقل إدانة حتى بعد اقتطاعها من سياقها. لذا، فإن ثمة حافز لاستخدام الكلام غير المباشر، حتى وإن لم توفر للمرء الغطاء في السياق. لا شيء من هذا يعني، بطبيعة الحال، أن المستعرض ناجح دومًا في سلوك الكياسة النسبية. والمقصد أن عندنا سببًا وجيهًا للمحاولة.

أيظن المستعرض أنه جدير بالاحترام لأخلاقه؟

يحاول المستعرض الإيحاء للآخرين بأنه جدير بالاحترام لأخلاقه. فيريد أحيانًا أن يُظن أنه فرد من العصبة. وفي أحيان أخرى، يريد أن يُرى على أنه يفضُل الآخرين بأخلاقه. لكننا لم نقل شيئًا عن إيمان المستعرض بأنه يَبزُّ الآخرين بأخلاقه حقًا. أيجب أن يظن هذا؟

كلا، باختصار. تخيل سياسيًا يتظاهر في خطاباته بالتعاطف مع محنة عمال المصانع الأمريكيين، لأنه يريد الإيحاء للناخبين بأنه يهتم لأمر [العمال] أكثر من غيره (وسيشعر بالإحباط إن لم ينته بهم الأمر إلى هذا الظن). وفقًا لوصفنا فإن هذا السياسي يستعرض. ورغم أنه لا يصدق حقًا أنه يثير الإعجاب من الناحية الأخلاقية، فإنه يريد أن يراه الاخرون على هذه الشاكلة. ومع ذلك، نظن أن كثيرًا من المستعرضين يرون أنهم رائعون أخلاقيًا، مثلما يريدونك أن تؤمن بهذا. وسيساعدنا إدراك هذا على معرفة سبب شيوع الاستعراض.

قد ترى نفسك أفضل من معظم الناس في كثير من الأمور $^{(1)}$.

⁽i) تحدث جوناثان غوتشل في كتابه الحيوان الحكاء وذكر أن علماء النفس يسمون هذا «بتأثير بحيرة ووبيغون»، وهي بلدة خيالية =

فلعلك ترى نفسك سائقًا للسيارة أفضل من كثيرين، أو أنك أكثر إحساسًا بالمسؤولية، أو أنك أب أفضل، وقد ترى أنك بطرق عديدة تفضُل الشخص المتوسط. يسمي علماء النفس ميلنا نحو اعتناق رأي يشبع غرورنا بالافتتان بالذات. وتظهر الدراسات مثلًا ميلنا إلى الظن بأننا أكثر اقتدارًا وطموحًا وذكاء وحكمة من الشخص العادي (١٥). كما نظن أننا أكثر جدًا في العمل وأقل تحيزًا، وأكثر ضيقًا بأحداث ١١/٩، وأكثر اهتمامًا بالبيئة من الشخص العادي (١١). كشفت دراسة، في نتائج محرجة للغاية للمؤلفين وزملائهما، أن ٩٠ بالمئة من أساتذة الجامعة يقولون إنهم أفضل من المدرسين العاديين (١٥). أي أننا نمنح أنفسنا درجات جيدة جدًا عمومًا (١١).

والمثير للاهتمام أن افتتاننا بذواتنا يكون أقوى عندما يتعلق الأمر بالأخلاق. أظهرت الدراسات ميلنا إلى تقييم سلوكنا بالتفوق الأخلاقي على سلوك الشخص العادي(١٩). إذْ نرى أننا

ابتدعها غريسن كيلر وكانت موضوعًا لبرنامج إذاعي استمر بثه طويلًا.
استخدم الأستاذ ديــ قد مايزر هذا المصطلح للتعبير عن نزوع الإنسان
إلى المبالغة في تقدير قدراته، بما يعني وهم التفوق النسبي. (للمزيد،
انظر الحيوان الحكاء جوناثان غوتشل، ترجمة بثينة الإبراهيم،
منشورات تكوين ٢٠١٨ نحن أبطال ملاحمنا الخاصة ص١٩١ ما
بعدها). (المترجمة)

أكثر ميلًا من الآخرين لفعل الصواب، وأقل ميلًا منهم لارتكاب الأخطاء (٢٠)، كما نظن أننا أكثر ميلًا للصدق واستحقاق الثقة (٢٠). يسمي علماء النفس هذا بالافتتان الأخلاقي بالذات (٢٠). وقد وصفها عالم النفس ديـ قد دَننغ بقوله «يضع الناس أنفسهم في مرتبة عالية ينكرونها على أقرانهم (٢٢٠). ليست البرهنة على هذه النزعة صعبة عبر البحث التجريبي أيضًا. فوفقًا لعالمي النفس ناداڤ كلاين ونكولاس إللي «يسهل إثبات بضعة تحيزات في الأحكام التي يطلقها البشر أكثر من إثبات استقامة الذات؛ أي ميل المرء إلى التصديق بأنه يتفوق على الاخرين أخلاقيًا (٤٢٠).

لننظر في بضع حالات. قال ٨٠ بالمئة من المشاركين في إحدى الدراسات إنهم يرفضون غش الإجابات من زميل أثناء الامتحان، ولكن ٥٥ بالمئة فقط من أقرانهم سيفعلون ذلك (٥٠). وفي دراسة أخرى، قال ٨٣ بالمئة من المشاركين إنهم سيشترون وردة لدعم جمعية أبحاث السرطان، ولكن ٥٦ بالمئة فقط من أقرانهم سيفعلون ذلك (٢٠). ويميل الناس إلى الظن أن شعورهم سيكون أسوأ من شعور الآخرين عند ارتكابهم لفعل لا أخلاقي، ويحرون أنهم أقل اقتدارًا على ممارسة السلوك اللاأخلاقي من الآخرين (٢٠). بل إن المجرمين العنيفين يرون سلوكهم أفضل إن قورن بسلوكنا. فقد قيم السجناء أنفسهم بأعلى من المتوسط في

كل خصلة خيّرة عدا الخضوع للقانون، إذ منحوا أنفسهم متواضعين تقييمًا متوسطًا (٢٨).

كما أننا نقيم أنفسنا بأننا صالحون للغاية، لا مقارنة بالآخرين فحسب، بل بشروط مطلقة (٢٩). يبدو أن الافتتان الأخلاقي بالذات ظاهرة بشرية عالمية، يظهر في الثقافات الشرقية والغربية على حد سواء (٣٠). إذ نميل إلى الظن بأننا نماذج آسرة للغاية، إن كان الحديث عن الأخلاق.

يسمى علماء النفس هذا الرأي المعجب بأنفسنا وهم التفوق الأخلاقي(٢١). فلماذا يكون وهمًا؟ أولًا: لأنه يستحيل أن نكون كلنا أعلى من المتوسط. كما أن عقودًا من الأبحاث التي أجريت حول الشخصية الأخلاقية تشير إلى أننا لسنا فاضلين بقدر ما نحسب أننا كذلك(٢٠). إذ يحتمل أن يكون تقييمنا الذاتي المتسم بالمبالغة الحمقاء خاطئًا، ويحتمل أنك متوسط من الناحية الأخلاقية(٢٣). أتذكر قول ٨٣ بالمئة من الطلاب المشاركين في الدراسة المذكورة آنفًا إنهم سيشترون زهرة لدعم جمعية أبحاث السرطان، ولكن ٥٦ بالمئة من أقرانهم سيفعلون ذلك؟ سئل الطلاب بعد حملة الجمعية، ولم يشتر الزهور إلا ٤٣ بالمئة منهم فحسب (۳٤).

إن مفهومنا الذاتي الأخلاقي مهم لنا(٥٣)، إذ نمضي كثيرًا من حياتنا ونحن نحاول ضبط انطباع الآخرين عنا. تُعرف هذه المحاولات في علم النفس به (إدارة الانطباع)(٢٦). إن كنت ترى نفسك موظفًا كفوًا مجدًّا، فسترغب أن يراك الآخرون هكذا. لذا تحاول تنشئة ذلك الانطباع عنك في نفوس زملائك، فتحاول دومًا التظاهر بالانشغال مثلًا. نحاول إظهار صورة إيجابية عن ذواتنا بشتى الأساليب، فنحرص على أن يرى الساقي في المقهى المقشيش الذي تركناه، ونعرض كتب أودن ودكنز، لكننا نخفي الروايات الرومانسية الرديئة الطباعة. لقد كان شكسهير محقًا بقوله إننا نرى العالم خشبة مسرح.

ليس مما يثير العجب إذن أن نهتم كثيرًا بسمعتنا الأخلاقية، ونبالغ في رعايتها وحمايتها (٢٧). أجرى أندرو ڤانوتش وزملاؤه دراسة أظهرت مدى اهتمامنا بما يظنه الآخرون بخصالنا الأخلاقية (٢٨). فقد خلصوا إلى تفضيل كثير من الناس قضاء سنة في السجن، أو فقد يد أو الموت على أن يُعرفوا في مجتمعهم بأنهم مجرمون، أو يُظن أنهم من النازيين الجدد، أو يُظن بطريق الخطأ أنهم يشتهون الأطفال. واختار كثير من المشاركين في الدراسة أن يدسوا يدًا في وعاء من يرقات الخنافس المتلوية المتقلبة، لمنع أن يعرف عدد أكبر في الجامعة أنهم حصلوا على

درجة (ملفقة) عالية في «العنصرية» في اختبار التداعيات الضمنة (أ).

إن كانت عظمتك الأخلاقية مهمة لمفهومك الذاتي، فسترغب للآخرين أن يعرفوا ذلك أيضًا. ولا عجب أن يخرج كثير من الناس عن عادتهم في الخطاب العام، ليوحوا للآخرين بأن يروا فيهم ما يرونه هم في أنفسهم؛ أي أن أخلاقهم استثنائية. بعبارة أخرى؛ يجدر بنا ألا نعجب من تحفز الناس إلى الاستعراض.

الاستعراض الواعي وغير الواعي

وفقًا للوصف الأولي، يحاول المستعرض إشباع الرغبة بالتقدير. ويحاول ذلك واعيًا في كثير من الحالات. يخبرنا علماء النفس أن بعضًا من إدارتنا للانطباع واع للغاية (٢٩). فقد يقول امرؤ لنفسه «أود أن يعجب بي هؤلاء الناس عبر التزامي بالعدالة، لذا سأقول شيئًا كهذا...». ولنا أن نسمي هذا «الاستعراض الواعي»؛

⁽i) مقياس في علم النفس الاجتماعي مُصمَّم للكشف عن قدرة تداعي الأفكار بحالة ما دون الوعي للشخص بين التمثيلات الذهنية للأشياء (المفاهيم) في الذاكرة. وقد استُخدم لاستقصاء التحيزات في المجموعات العرقية والجندرية والجنسية والعمرية والدينية، بالإضافة لتقييم تقدير الذات. (المترجمة)

أي أن المستعرض يدرك أنه يحاول لفت الانتباه إلى خصاله الحميدة (وإن لم يصف ما يفعله «بالاستعراض»).

ورغم ذلك، فلا يلزم أن يكون الاستعراض واعيًا. أحيانًا نفعل أشياء لإشباع بعض الرغبات، وإن لم نقل «يجب أن أفعل شيئًا لإشباع هذه الرغبة». فقد ترغب بأسنان سليمة، مثلًا، ولذا فإنك تغسل أسنانك. لكنك نادرًا ما تقول لنفسك «أريد أسنانًا سليمة، لذا سأغسل أسناني». وما زلت تغسلها إشباعًا لتلك الرغبة في أسنان سليمة، لكنك لا تفكر بها. قد يكون الأمر مماثلًا في الاستعراض. فقد تكون عندك رغبة في نيل التقدير، وتحاول إشباعها بالتعبير عن الاستعراض، لكنك لن تفكر واعيًا «سأقول هذا لأني أريد أن يعجب الناس بتفوق أخلاقي»(۱۰۰).

قد يعترض ناقد بقوله: «إن لم يحاول المرء واعيًا إثارة الإعجاب بكلامه الفاضل، فلا يمكن أن يكون مستعرضًا إذن. وإن سألته عن السبب الذي دفعه إلى قول رأيه الفاضل النبيل، فسيرد ببساطة بأنه يهتم بأمر الفقراء، أو بعمال المصانع المظلومين، لكن هذا ليس استعراضًا!»

تشير هذه الإجابة إلى رأي ساذج حول مدى معرفتنا بعقولنا. في تجربة شهيرة، طلب عالما النفس رتشارد نسبت وتموثي ولسن، من المشاركين الاختيار من صف للجوارب. المثير للاهتمام أن المشتركين اختاروا باستمرار الجوارب الواقعة أقصى اليمين. وعند سؤالهم عما دفعهم إلى اختيار هذه الجوارب باللذات، لم يقولوا إنهم اختاروها بسبب موقعها. بل قالوا إنهم اختاروها تبعًا لجودتها أو لونها، أو لأنها متماثلة. لقد بحثوا عن أسباب – أو اخترعوها – لإضفاء المنطق على خيارهم (١٤). ويسمي علماء النفس هذا بالتخريف (٢١). أو لأن دوافعنا الحقيقية لا تكون جلية في الأغلب –حتى لأنفسنا – فإننا نختلق تفسيرات لسلوكنا. وباختلاقنا نحكي قصصًا تتسق مع تصورنا العام عن الذات. فقد نقول لأنفسنا، مثلًا، إننا اخترنا الجوارب لأننا نحسن تمييز الأشياء الأجمل في الحياة، وتلك الجوارب كانت الأجمل.

⁽أ) – عرفه لطفي الشربيني في موسوعة شرح المصطلحات النفسية بأنه حالة مرضية طريفة تحدث في الشيخوخة في حالات العته، حيث يحدث ضعف في الذاكرة فيقوم المريض بتعويض ذلك بملء الفراغ الناجم عن النسيان بروايات وأحداث مختلفة من وحي الخيال». وعرفه أ. د فضل خالد أبو هين أستاذ علم النفس في جامعة الأقصى بأنه التذكر الكاذب، أي تذكر أو اختلاق حوادث وأشياء غير موجودة فعلًا. ورغم أن الأستاذين يشيران إلى ارتباطها بحالة مرضية، لكن غوتشل في كتابه الحيوان الحكاء ذكر عددًا من التجارب التي لجأ فيها المشاركون إلى التخريف (الاختلاق) دون أن يكونوا مصابين بالعته. (راجع الحيوان الحكاء، سبق ذكره، ص ١٢٥ وما بعدها).

وما دمنا نمنح لأنفسنا درجات عالية في الأخلاق، فليس غريبًا أن نخترع أسبابًا لانخراطنا بالكلام الفاضل من وجهة نظر مستحسنة. يشعرنا هذا بشعور جيد وبالأهمية. ورغم قولنا لأنفسنا إن استخدامنا الكلام الفاضل لأهداف تستحق الإعجاب، فقد تظل دوافع أخرى مريبة تتخفى تحتها.

تعج الحياة اليومية بأمثلة على التخريف. يعرض كيفن سلِمر وروبن هانسن في كتابهما الفيل في الدماغ الحالتين الآتيتين:

كثيرًا ما يفرض الآباء موعدًا لنوم الأطفال «لأجل صالحهم»، في حين أن دافع المنفعة الذاتية محتمل بقدر مماثل؛ أي أن الآباء يودون قضاء ساعة أو اثنتين في هدوء وصفاء دون الأطفال. يؤمن كثير من الآباء حقًا بأن موعد النوم فيه صالح أطفالهم، لكن هذه القناعة نفعية أنانية بما يكفي لإثارة شكنا بأن هذه هي الحقيقة الكاملة.

يبرر الأشخاص الذين ينسخون محتوى ذا حقوق؛ من قبيل الأغاني والكتب والأفلام، فعلهم بالقول «إن شركات مجهولة الهوية تأخذ معظم الأرباح من الفنانين على أية حال». تثبت حقيقة أن

معظم هؤلاء الناس لن يتخيلوا سرقة أقراص مضغوطة أو أقراص قيدو من بست باي (وهي شركة مجهولة الهوية أيضًا)، تفسيرًا مختلفًا لسلوكهم، أي أنهم يشعرون على الشبكة بأنهم مجهولون وأقل خشية من أن يلقى القبض عليهم (٦٤).

الأشخاص الذين يبثون في وسائل التواصل الاجتماعي آراء أخلاقية سامية، ويستخدمون الكلام في الفضيلة لإهانة الآخرين وإخراسهم، كثيرًا ما يفسرون سلوكهم بقولهم إنهم يدافعون عن المضطهدين أو يدافعون عن الصواب. لكن هؤلاء الأشخاص لن يتكلموا هكذا في حوار خاص وجهًا لوجه. وهذا يشير إلى أن ما يريدونه حقًا هو استخدام منصتهم العامة للفوز بوجاهة أخلاقية، أو ما هو أسوأ، للهيمنة على الآخرين لتحقيق منافع اجتماعية.

لنشرح هذا بعبارة بسيطة. قد نخدع أنفسنا بدوافعنا الحقيقية للمشاركة في الخطاب العام، ونستعرض أحيانًا دون أن ندرك. لماذا يحدث هذا؟ يشرح عالم النفس وليم قون هيل وعالم الأحياء التطوري روبرت ترقرز أن البشر تطوروا ليضللوا أنفسهم بشأن دوافعهم في مواقف قد يكشف التصرف الواعي فيها بناء

على هذه الدوافع مرادهم ومن ثم يفسـد أهدافهم(٤٤). ثمة سبب واحد يجعلنا غالبًا غير مدركين لدوافعنا في الافتتان بالذات، وذلك أننا تطورنا لكبحها. وهذا معقول. فقد تفضى محاولتك عامدًا إثارة إعجاب الأخرين بك إلى ارتكاب سلوك أخرق تتضح منه النفعية الذاتية، ولذا يكون فاشـكَّد. إن راقبت المواعيد الغرامية الأولى في المقهى، فلا بـد أنه تناهى إلى سمعك هذا الضرب من الافتتان بالذات، الذي يميل إلى الفشل. ولكن إن كانت دوافع التعزيز الذاتي عندنا خفية عن الرأي الواعي، فقد نكون أحذق في عملنا على إثارة الإعجاب. لخداع الذات هذا ميزة إضافية، إذ يسعك الإنكار بضمير مرتاح عند اتهامك بالاستعراض، إذ إنك لم تظن أنك كنت تحاول إثارة الإعجاب.

بعض الاستعراض واع بلا شك، إذ نحاول عامدين الترويج لأنفسنا بآراء علنية تستهدف عرض نزاهتنا الأخلاقية. ولكن المحزن أن الاستعراض غير الواعي شائع أكثر مما يظنه الناس.

قلنا في مستهل هذا الكتاب أنك قد تتساءل وتشك طوال قراءته، ولعلنا تطرقنا إلى ذلك جزئيًا بعد أن شرحنا وصفنا الأولي. فلنتحرَّ بعض الأسئلة والاعتراضات المحتملة قبل المضى قدمًا.

الاستعراض والكذب

تنهال الاتهامات بالاستعراض عادة من خصوم إيديولوجيين، يظنون أيضًا أن ما يقوله المستعرض المزعوم كذبًا. ونتيجة لذلك ربما، يظن البعض أن ما يقوله المرء كذب إن كان يستعرض، وهذا خطأ.

لا شيء في الاستعراض يستلزم أن يكذب المستعرض. وقد يرغب في أن تصدق أنه واسع المعرفة أخلاقيًا، وقد لايصدق هذا، ولكن ما يقوله صحيح حقًا. لك أن تتخيل مستعرضًا ينشر شيئًا من هذا القبيل على الفيسبوك، كما فعل أحد المؤلفين ذات مرة:

لا ينبغي أن يموت أحد لأنه عاجز عن دفع تكلفة الرعاية الصحية، وينبغي ألا يفلس المرء لأنه أصيب بالمرض. فقوتنا لا تكتمل إلا بتحقق قوة أضعف شخص بيننا. إن كنت تتفق]معي[، فانشر هذا على الحالة في مساحتك على الفيسبوك أو ماي سييس.

ورغم أن هذه [الجملة] تحفة غريبة تعود إلى أزمنة أكثر بساطة على شبكة الإنترنت، فمن الجلي ألا عيب يشوب هذه العبارة. قد يكون كل رأي أخلاقي فيها حقيقيًا للغاية، لكن هذا لا يعفيه من أن يكون تعبيرًا عن الاستعراض، وهذه هي حقيقة الأمر. (ونحن نعرف هذا حق المعرفة).

إن كان لا يزال عندك بقية من شك، فعد إلى تصريح هارڤي واينستين في الفصل الأول. فقد كان كل ما قاله صحيحًا، على حد علمنا، لكن هذا لن يغير من الأمر شيئًا في تقييمك بأنه استعرض استعراضًا من طراز رفيع. إن المعنى بسيط لكنه مهم؟ أي لن تكون الإشارة إلى صحة ما تقوله وسيلة لرد تهمة الاستعراض، إذ بوسعك قول الحقيقة والاستعراض في آن معًا.

مما لا شك فيه أن المستعرض يقول غالبًا أشياء غير صحيحة. والحق أن بعض القوى المحركة الاجتماعية للسعي نحو المكانة في الخطاب العام تشجع المستعرض على فعل ذلك حقًا، كما سنبين في الفصل التالي.

أيحقق الاستعراض المراد؟

يلجأ المستعرض إلى الكلام في الأخلاق ليظهر بمظهر المستعرض إلى الكلام في الأخلاق ليظهر بمظهر الصالحين، إذ يريدك أن تظنه محترمًا أخلاقيًا. ولكن أينخدع الناس حقًا؟ أيعد الاستعراض وسيلة فعالة لصنع سمعتك؟ نعلم - نحن معشر الجمهور - أن الكلام في الأخلاق يُستغل لنيل

مكاسب شخصية، وبوسعنا تمييز أمثلة عديدة على الاستعراض، إن لم نميزها كلها. يمتعض معظمنا من المستعرض، أو قد نرسل رسالة نصية إلى المؤلف المشارك [لهذا الكتاب] قائلين إنه يتباهى مرة أخرى. لكن الاستعراض يحقق المراد غالبًا، وهذا يفسر السبب الذي يدعو كثير من الناس إلى ممارسته. ويمكن للمستعرض المتمرس بخاصة أن يقنع الكثيرين بأنه مثال في الأخلاق. فلماذا ينجح الاستعراض؟ ولماذا يخفق أحيانًا؟ يجب دراسة هذين السؤالين عبر البحث التجريبي، ولكن بوسعنا قول بضعة أمور هنا.

لنبدأ بالسؤال عن سبب نجاح الاستعراض. نفترض عادة أن الآخرين لا يخدعوننا (٥٤)، وستكون الحياة الاجتماعية صعبة للغاية إن لم تستطع الاعتماد على صدق الآخرين. وتبعًا لرأي عالم الاجتماع إرفنغ غوفمان فإننا نتوقع عمومًا «أن الفرد الذي يشير صراحة أو ضمنًا إلى تمتعه ببعض السمات الاجتماعية، لا بد أن يكون ما يدعيه حقًا (١٤٠). وعند لجوء الناس إلى اللغة الفاضلة للإشارة إلى أخلاقهم الرفيعة، فإنهم يفعلون ذلك على خلاف الافتراض المسبق أن الناس يعرّفون بأنفسهم تعريفًا دقيقًا عادة. وقد ينجح الاستعراض لأننا نميل إلى الأخذ بكلام الآخرين.

لكن كثيرًا ما يفشل المستعرض في إقناع الناس بصلاحه. فقد يساورنا الشك، مثلًا، بأن تصريح هارڤي واينستين الذي ناقشناه في الفصل الأول، قد أقنع أحدًا بأنه شخص صالح (أو شخص محترم). فما الذي يفسر نجاح الاستعراض أو فشله؟ ثمة الكثير من التفسيرات المحتملة، وسنعرض اثنين منها.

الأول؛ سيقل نجاح استعراضك إن كانت الصورة التي تحاول إظهارها تتناقض مع ما يظنه جمهورك مسبقًا. فلن يعجب الناس باستعراض أحد إن كانوا يرونه امراً فاسدًا. بعبارة أخرى، يقلّ احتمال قبول الجمهور لاستعراض أي متحدث عند شكهم في نفاقه. وهذا واحد من الأسباب التي تفسر الإخفاق المذل لاستعراض واينستين. فقد تعارض سلوكه الفاسد الذائع الصيت بشدة مع احتجاجه بأنه واحد من الصالحين. وما إن يرى الجمهور اختلافًا بين الصورة النبيلة التي يريد المستعرض إظهارها، وبين أخلاقه الفعلية، فسيفقدون احترامهم له (٧٤٠). فالناس لا يغفرون للمنافقين (٨٤٠).

الثاني؛ يكون الاستعراض ناجحًا ما دام جمهورك يشاطرك قناعاتك وقيمك الأخلاقية سلفًا. وكلما زاد اختلافهم عنك، قلّت قدرتك على إثارة إعجابهم. ألقت الممثلة ميرل ستريب في حفل غولدن غلوب لعام ٢٠١٧، خطابًا نوقش على نطاق

واسع انتقدت فيه مرشح الرئاسة [آنذاك] ترامپ. بدأت بقولها:

اجلسوا من فضلكم. شكرًا لكم. أحبكم جميعًا. لا بدأن تغفروا لي، إذ فقدت صوتي وأنا أصرخ وأبكي هذا الأسبوع (٤٩).

ووصفت [ستريب] في الخطاب الذي أعقب هذا نتائج الانتخابات الأخيرة بهجمة الكراهية على قيم هوليوود التقدمية، وعلى «الغرباء»، وعلى الصحافة. لا يمكننا التأكيد بأن ستريب كانت تستعرض، ولكن لنفترض ذلك بغية الشرح. وقد انقسمت ردود الأفعال على خطابها. فإن كنت تتفق أساسًا مع قيم ستريب التقدمية عمومًا وآرائها بشأن انتخاب تراميب- مثلما كان معظم الحاضرين - فقد ترى إذن أنها اتخذت موقفًا شجاعًا جريتًا من أجل العدالة. وغردت الممثلة لاڤرن كوكس بقولها: «أوافق على كل ما قالته. شكرًا MerylStreep# على عملك وعلى كل ما قلته الليلة. empathy #GoldenGlobes#»(٥٠٠). وغردت الممثلة الكوميدية ريتا بقولها «امرأة يقتدي بها. MerylStreep#»(۱۵). كما غرد الموسيقي مارك رونسن بدوره «أكرر قولي، ميرل ستريب هي الأروع »(٢٥).

ومن جهة أخرى، إن كنت تخالف قيم ستريب وآراءها

بشدة، فلن يعجبك ذلك. وقد توافق أحد النقاد رأيه إذ يقول إن «نفاق ستريب الوعظي نمطي في هوليوود المنطوية على امتداح الذات»(or). وتبين ردود الفعل المتباينة تباينًا واسعًا على الخطاب نفسه أنه كلما اتفق جمهورك معك، أعجبه استعراضك.

وبعد أن عرفنا بعض العوامل التي تؤثر في نجاح الاستعراض، لنوجه اهتمامنا إلى السؤال المهم عمّن يستعرض. أيشيع الاستعراض في جماعات أكثر من غيرها؟

أيعد الاستعراض مشكلة اليسار فقط؟

وجّه اليمين السياسي الاتهامات الصريحة بالاستعراض على نحو متفاوت إلى اليسار في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة على الأقل، وإلى اليسار التقدمي خصوصًا. ولكنه أثار قلق بعض أوساط التقدميين لوجود المستعرضين بينهم. إذ كتب جين كوستن في مجلة ذا نيويورك تايمز:

يسهل في حوارات التقدميين أن ترى امتعاضًا من نمط بعينه من الأشخاص؛ ذلك الذي يتخذ موقفًا بطوليًا في كل شأن - كالازدراء الغاضب من طاقم التمثيل في فيلم 'علاء الدين' بالتصوير التمثيلي، أو الدفاع المستميت عن خيارات هلاري كلنتن في الثياب، أو المساندة مفرطة العاطفة في محنة جماعة لا ينتمي إليها المتكلم- فيما يبدو محاولة جلية لنيل المديح والإعجابات وهالة النزاهة التي تعقب ذلك(١٥).

وفقًا للآراء الشائعة عن أكثر المتورطين بالاستعراض، فلعلك انتقيت هذا الكتاب متصورًا تشكيًا من الحالة المحزنة للسياسة عند اليسار. إن كان هذا يصف توقعاتك، فلا بد أنك لاحظت أن وصفنا الأساسي عام تمامًا، وهذه وهي حقيقة مهمة. إذ لا يشير إلى المحتوى السياسي لآراء المستعرض، لأن كافة المذاهب السياسية قد تضم مستعرضين بين أعضائها، وهذا ما هو حاصل فعلًا. والأمر نفسه يصدق على تصورنا للخصائص السلوكية للمستعرض. فالآليات النفسية التي تفضي إلى سلوك الاستعراض هي صفات بشرية عامة، ولا تقتصر على أفراد مجموعة وحيدة.

وتثبت جولة قصيرة في التاريخ السياسي أن الاستعراض ليس مقتصرًا على اليسار المعاصر. فلننظر إلى الولايات المتحدة، قبل هذه النهضة الواضحة للاستعراض في اليسار. كان الاستعراض يدور حول الأمن الوطنى بعد هجمات ١١/ ٩

وأثناء حرب العراق، إذ انتهز السياسيون الأمريكيون كل فرصة لإظهار أنهم «ليسوا متساهلين مع الإرهاب». وتجلى الهدف الدنيء للاستعراض السخيف في هذه المرحلة عندما أجبر عضو الكونغرس الجمهوري بوب ني المطاعم على تغيير اسم البطاطا الفرنسية [المقلية] إلى «بطاطا الحرية»، ردًا على معارضة فرنسا لغزو العراق. وقبل ذلك، ظهرت فضيحة كلنتن الجنسية، التي أثارت استعراضًا ووعظًا لا متناهيين من اليمين عن الأخلاقيات الجنسية وكفاءة القائد. وفي وقت أسبق من العقد نفسه، جدد اليسار اهتمامه بالإصلاح السياسي، وهي حركة بدأت في أمريكا تحت هذا الاسم في سبعينيات القرن الماضي. ولعل الدمغة القوية لاستعراض اليمين في حياتنا ظهرت أثناء حكم منظمة الأغلبية الصالحة(أ)، التي نال أبرز أعلامها سمعة وطنية لإظهارهم الورع الأخلاقي. وظهر قبل كل هذا طبعًا الخوف الأحمر (ب)،

⁽i) منظمة أمريكية أسسها القس جيري فالويل سنة ١٩٧٩ ذات توجه ديني سياسي. (المترجمة)

⁽بِ) الخوف الأحمر هو حالة أعلى من الخوف واسع الانتشار من قبل المجتمع أو الدولة حول احتمال نهوض الشيوعية أو الأناركية أو اليسارية المتطرفة. يُستخدم هذا المصطلح غالبًا للإشارة إلى فترتين في تاريخ الولايات المتحدة بهذا الاسم. (المترجمة)

الذي تنافس أثناءه أشخاص بارزون للحصول على اللقب الوهاج بكون أحدهم مناهض للشيوعية، وتنمروا على الآخرين في سعيهم لذلك.

مهم أن نتأمل السبب الذي يجعل صيت المستعرض الأسوأ يتردد في الجماعات والانتماءات السياسية. إذ لا يبدو أنه يتبع كون المرء في سلطة سياسية، كما يتضح أنه ليس مقصورًا على أي إيديولوجيا أو انتماء حزبي. علاوة على ذلك، يمكن للشرفاء أن يدركوا أن جماعتهم تمارسه.

يدعم هذه الملاحظات حول تصنيف الاستعراض بحث علمي اجتماعي تمهيدي أجريناه (٥٥). فقد ذكرنا قبلاً أن دراساتنا تشير إلى استعراض الناس سعيًا نحو الوجاهة والهيمنة، وتشير هذه الدراسات ذاتها إلى أن الاستعراض و بخاصة إن استهدف اكتساب الوجاهة - شائع واسع النطاق إلى حد ما. كما وجدنا أن بعض الانتماءات الحزبية لا تترافق باستعراض طلبًا للوجاهة أو طلبًا للهيمنة. بعبارة أخرى، لا يرتبط الاستعراض بآراء مؤيدة لليمين أو آراء مؤيدة لليسار. إذ يتساوى الديمقراطيون والجمهوريون في الاستعراض، مثلما يتساوى الليبراليون والمحافظون. غير أن المثير للاهتمام أننا وجدنا الأشخاص ذوي الآراء السياسية المتطرفة (سواء أكانوا من اليمين أم من اليسار)

يميلون إلى الاستعراض طلبًا للوجاهة أكثر من الوسطيين. لكن هذا لا يصدق على الاستعراض طلبًا للهيمنة. بعبارة أخرى، إن كان المتطرفون من الطيف السياسي أميل إلى الاستعراض طلبًا للوجاهة، فإننا لا نكاد نجد العدد نفسه من المستعرضين طلبًا للهيمنة.

لذا نقول باختصار، رغم التصورات الرائجة في الآونة الأخيرة حول الأمر، فإن الاستعراض ليس مشكلة اليسار. بل إنه سلوك شائع، لكن الأشخاص ذوي الآراء السياسية المتطرفة أميل إلى الاستعراض لترقية مكانتهم من ذوي الآراء المعتدلة.

أنستعرض؟

منذ أن رأى كثيرون عنوان هذا الكتاب، أولونا - نحن المؤلفين - اهتمامهم، وساورهم شك بأن نكون متورطين بالاستعراض. وتصاغ الفكرة على هذا النحو: إن ألفنا كتابًا كاملًا عامرًا بالكلام عن الأخلاق، ونقول للناس إنهم يسيؤون التصرف في الخطاب العام، وندعي أننا نعرف أسلوبًا أفضل، ألسنا نحاول أن يبدو بمظهر الصالحين؟ ألسنا نستعرض فحسب؟

إن كانت هذه ردة فعلك، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا نشعر بالإطراء لجذب الانتباه. وإن اعتبر أحد هذا اعتراضًا قويًا على الكتاب حتى بعد تقليب الأمر، فسيكون مخيبًا قليلًا. وإن كنا مستعرضين فظيعين، فلعلك ترى نقاشاتنا منطقية. كما أن كوننا شخصين صالحين لا علاقة له بصواب كلامنا عن الاستعراض. فكر بالأمر هكذا: تظاهر بأن هذا الكتاب ألفه رجل آلى خارق الـذكاء كان يراقب وسـائل التواصل الاجتماعي. بوسـعك تقييم نقاش الرجل الآلي دون أن يساورك القلق حيال حقائق أخرى عنه. ورغم ذلك، فقد فهمنا ما ترمي إليه. فقد يهمك لك لسبب ما أن تصدق أن هذا الكتاب هو فعل استعراض، وبوسعنا ردّ التهمة. وسيكون إنكارنا بطبيعة الحال ذا قيمة استدلالية صغيرة لمن يشك سلفًا في دوافعنا. وبوسعك عندئذ أن ترد بأنك لا تصدق إفادتنا إن كان دافعنا هو الرغبة في التقدير. ولكننا سنظل عالقين في صراع ممتد من الاتهام والإنكار دون نهاية تلوح في الأفق. وهذا الشد والجذب العقيم برهان جيد على اقتراح عام سنناقشه لاحقًا؛ يجب ألا نمضي ونحن نتهم الآخريـن بالاستعراض.

على أية حال، فإننا نرى صحة نظريتنا عن الاستعراض أو خطأها أكثر أهمية من معرفة ما إن كنا نستعرض أم لا، وهذا بطييعة الحال ما قد يقوله ثنائي من المستعرضين.

ماذا عن التلويح بالفضيلة^{٥١}؟

بعد بضع سنوات منذ أن بدأنا الكتابة حول الاستعراض، لاحظنا أن الناس يستخدمون مصطلح «التلويح بالفضيلة». إن المفهومين متصلان اتصالًا واضحًا، ونظن أن الناس يستخدمون العبارتين بالتناوب. لا تهم التسميات كثيرًا في العادة، فما يثير اهتمامنا الفكرة التي يشير إليها الاسم. لكن بعض التسميات ما تعمل على زيادة الفهم وتقليل اللبس أكثر من تسميات غيرها. ونرى أن هذا يصدق هنا، لذا لنقل بضع كلمات حول السبب الذي يجعل من لفظ الاستعراض مصطلحًا أفضل للتعبير عن الظاهرة التي تثير اهتمامنا.

على حد علمنا، دخل مصطلحُ التلويح بالفضيلة العامية

⁽i) التعبير بوضوح عن القيم الأخلاقية. استخدم هذا المصطلح لأول مرة في نظرية الإشارات لوصف أي سلوك يمكن أن يشير أو يلوح بالأخلاق، وخصوصًا التقوى بين المتدينين. وفي الأعوام القليلة المنصرمة، أصبح المصطلح أكثر شيوعًا باعتباره أسلوب ازدراء يطلقه المعلقون لينتقدوا ما يعتبرونه تأييدًا فارغًا وسطحيًا لوجهات نظر سياسية معينة. يعود أقدم استخداماته إلى عام ٢٠٠٩. والمصطلح مستوحى من علم الأحياء إذ إن تأشير الخلية signalling cell يعني تبادل الإشارات بين الخلايا. (المترجمة)

الدارجة عام ٢٠١٥ (٢٠١٠). ويشمل كثير من استخدامه الحالي شكاوى اليمين السياسي من سلوك اليسار السياسي (وتخطئة اليسار لليمين لانتقادهم على هذا النحولقد غدا المصطلح مشحونًا سياسيًا، قطعًا، ولذا نرجح عدم استخدامه، ليس لهذا السبب فحسب، بل لأن المصطلح قد يكون مضللًا.

لا يتضمن مفهوم «التلويح» المستخدم في علم الأحياء وعلم النفس بالضرورة محاولة للتواصل أو رغبة به. فالإشارات هي سلوكيات أو سمات للكائن الحي تعمد إلى إرسال معلومات، أو اختيرت لذلك عبر عملية التطور لأنها توصل المعلومات التي تجعل الكائن الحي أكثر تكيفًا. فللطاووس ذيلٌ طويلٌ من الريش يرسل إلى الأنشى إشارة التوافق، وكلما طال الذيل، كان أكثر ملاءمة للبقاء على قيد الحياة (فلا بد أن تكون قويًا سليم البنية لتتمكن من جر ذلك الذيل)، وهذا يعني أنه سيكون أفضل للشريك(٥٧). لكن الطاووس لم يحاول إطالة الريش لهذا الغرض. وللعديد من الحشرات السامة ألوان براقة، وهذا ينبّه الفرائس فتتحاشاها. إن ألوانها إشارة، لكننا نكرر القول إنها ليست إشارة تحاول إرسالها(٥٨).

يرسل البشر بعض الإشارات عامدين. فقد يقود بعض الأشخاص، على سبيل المثال، سيارات فارهة لأنهم يريدون أن

يوحوا للآخرين بأنهم أثرياء. لكن الكثير من السلوك البشري يرسل إشارات، سواء أكنا نقصد ذلك أم لا. فالتبضع في هول فود، وقيادة سيارة من طراز پريوس والاستماع إلى الإذاعة الوطنية العامة يرسل رسائل عنك، وإن لم تدرك ذلك. وقد نكون مخطئين في ذلك. يشير الاقتصادي بريان كاللان أنه في حين يظن معظم الناس أن نظامنا التعليمي يحاول في جوهره خلق راشدين مطلعين بارعين متكاملي الثقافة، فالأمر ليس كذلك (٥٩). بل إن الوظيفة الجوهرية للنظام التعليمي، وفقًا لكاپلان، في الكليات والجامعات خاصة، هي إرسال رسالة للرؤساء المحتملين بمدى ذكائك وإتقانك لعملك، إلى جانب براعتك في التكيف مع توقعات الآخريـن. وهذا ما يبحث عنه المديرون العصريون: لاعبون جماعيون أكفاء يعملون بجد. ولكن من الذي يرتاد الكلية وهو يعلم أن الحصول على الشهادة يثبت للمدير أنك كفؤ ومجدّ ولاعب جماعي؟ نحن لم نعلم.

لذا، مادامت معظم الإشارات غير مقصودة، فإن الظاهرة التي نشير إليها بكونها استعراضًا تتضمن الرغبة أو محاولة الإيحاء للآخرين بأمر ما. وما دام كثير من الإشارات يحدث دون رغبة أو محاولة لإرسال رسالة، فإننا نرى مصطلح «التلويح بالفضيلة» مضللًا، ونؤثر ألا نستخدمه.

كما أن هذا المصطلح مضلل لسبب آخر. لاحظ أننا عندما نقول إن سيلوح بص»، فإننا نعني أن سيملك صحقًا. لنقل مثلًا «إن الحصول على شهادة جامعية يلوّح بمعرفة القراءة والكتابة والحرية الاقتصادية لتكريس ست سنوات من حياتك للدراسة». في ظروف عادية، نقول هذا لرغبتنا في الإشارة أن هذه الأمور تصدق على أشخاص يحملون الشهادة الجامعية. لذا حين نقول إن شخصًا ما يلوح بالفضيلة، فقد يوحي قولنا خطأ بفضيلة الشخص. ولكن بطبيعة الحال لا يقصد بالكثير من الاتهامات بالتلويح بالفضيلة أن الشخص فاضل حقًا.

وهذا مصدر محتمل آخر للبس. إن مصطلح «التلويح بالفضيلة» يعني ضمنًا إشارة المرء (أو محاولته الإشارة) إلى فضيلته. يُنظر إلى الفضيلة عادة على أنها تفوق في الشخصية، ولكن قد يستعرض المرء دون أن يحاول جعل الآخرين يظنونه شخصية نبيلة، كما شرحنا في موضع سابق من هذا الفصل. فقد يرغب المرء في أن يظنه الآخرون متمتعًا بالحد الأدنى من التهذيب (إذ إن معظم الآخرين هم أدنى من هذا المعيار). وليس في «الاستعراض» إيحاء إلى محاولة المرء جعل الآخرين في يدركون فضيلته تحديدًا.

على نحو مماثل، يدفع مصطلح «التلويح بالفضيلة» البعض إلى الحديث عن «التلويح بالرذيلة». يتضمن مصطلح «التلويح بالرذيلة» ظاهريًا تفاخرك بمدى فسادك. فقد يلوح داعية الحرية المتطرف بالرذيلة، على سبيل المثال، بشأن قلة اهتمامه بمحنة الفقراء. يبدو لنا، رغم ذلك، أنه يمكن فهم «التلويح بالرذيلة» على نحو أفضل بوصفه وسيلة أخرى للاستعراض، بغية إثارة إعجاب زمرتك من خلال القيم الأخلاقية «المناسبة» (سيهلل لك معجبو آيان راند)، أو الحط من قدر مخالفيك الذين لا يتمتعون بالقيم الأخلاقية «المناسبة» (الذين يدافعون دفاعًا عقيمًا عن الضعفاء والكسالي). إلى جانب ذلك، إن واصل نقاش «التلويح بالرذيلة» انتشاره، فسننتظر الكثير من النقاشات العقيمة حول ما إذا كان أحد «يلوح بالفضيلة» أم «يلوح بالرذيلة»، بناء على طبيعة القيم التي يعبر عنها نبيلة كانت أم خسيسة. ولذا نرى وجوب تفادي المصطلح تمامًا.

أخيرًا، كثيرًا ما يتهم الناس آخرين بالتلويح بالفضيلة لشكّهم بأن الملوِّح المزعوم لا يؤمن حقًا بالرأي الأخلاقي الذي يقوله. بعَبارة أخرى، تتلخص التهمة في مشاركة المتهم بكلام رخيص مراء. فهو يكتفي بالتلويح دون أن يكلفه الأمر شيئًا، بمعنى أن على الآخرين أن يذعنوا لبعض المطالب الأخلاقية التي لا يؤمن

بها. يتسم هذا الهوس بالرياء بقصر النظر، ويجعل الناس يتجاوزون النظر إلى مشكلات أخرى تنجم من الحديث في الفضيلة للترويج للذات. يحدث بعض من أخطر المشكلات في الاستعراض الأخلاقي لأن المستعرض صادق غالبًا، كما سنرى. لكنه ينافق أحيانًا، فقد يستعرض المرء سواء أكان مؤمنًا بما يقوله أم لا.

قد لا يكون أي من هذه المخاوف وحده سببًا كافيًا لرفض مصطلح «التلويح بالفضيلة»، ولكنها مجتمعة تظهر أن المصطلح مضلل إلى حد ما، فلمَ لا نتجنب استخدامه؟

ومع ذلك، فإن علينا الاعتراف أن «التلويح بالفضيلة» يبدو مصطلحًا أفضل في ميدان واحد من الترويج الأخلاقي للذات؛ ونعني به السلوكيات غير اللغوية. لنقل، مثلًا، أن توزي يريد أن يظنه الناس مهتمًا بالبيئة للغاية، فيشتري سيارة پريوس ويقودها().

⁽أ) تويوتا بريوس هي سيارة هجين متوسطة الحجم تنتجها شركة تويوتا للسيارات. تحوي السيارة محركين، أحدهما يعمل بالبنزين والآخر بالكهرباء. كما تحتوي على مجموعة بطارية أيون الليثيوم وذلك لتخزين الطاقة أثناء عمل المحرك البنزيني لاستخدامها عندما يتوقف ذلك المحرك، وذلك لتوفير استهلاك الوقود وثقليل تأثير السيارة الضار بالبيئة. (المترجمة)

ستبدو تسمية فعله هذا بالاستعراض أمرًا غبيًا، بل إن مصطلح «التلويح بالفضيلة» أدق، رغم أنه سيبقى مضللًا من بعض الوجوه التي ناقشناها. ولكن لأن هذا الكتاب يدور حول الوجه الحسن والوجه القبيح في الكلام في الأخلاق، فلن نشغل أنفسنا بنقاش الأشكال غير اللغوية للتباهى بالفضيلة.

الخلاصة

إن الاستعراض هو استخدام الكلام في الأخلاق للترويج للذات. وتبعًا لوصفنا الأوّلي لهذه الظاهرة، فهو يتضمن الرغبة (بقوة ما) بأن يُحسن الآخرون الظن بأخلاقك النبيلة، والمشاركة في الخطاب العام بهدف إشباع تلك الرغبة. ليس ضروريًا أن تعرف أنك تستعرض بغية الاستعراض، ولا يتعين عليك أن تكذب. وقد قلنا الكثير عن السمات العامة للاستعراض في هذا الفصل، لكن نقاشنا كان مجردًا بعض الشيء. سيفيدنا أيضًا أن نعرف شكل الاستعراض في الظروف الطبيعية. لذا سنقدم في الفصل التالي مساعدة تعين في فهم هذا؛ أي دليلًا ميدانيًا للاستعراض.

الفصل الثالث الاستعراض: دليل ميداني

تشيع المحاولات لإثارة الإعجاب في وسائل التواصل الاجتماعي، وفي الأغلب لا يكون لهذا الأمر علاقة بالأخلاق. فيحاول بعض الناس، على سبيل المثال، أن يثيروا إعجاب الآخرين بذكائهم، وتتجلى إحدى الطرق لفعل ذلك في تصحيح عبارات الآخريين. يذكر صديق لك أن جبل K2) هو ثاني أعلى الجبال على سطح الأرض، فتتدخل قائلًا «صحيح، ولكن ذلك من حيث الارتفاع فحسب، أما من حيث النتوءات الصخرية فهو لا يحتل مرتبة بين أعلى ٢٠ جبل». كما يضيف البعض تفاصيل لا داعي لها في قصصهم للإشارة إلى ذكائهم. وتذكر إحدى الزميلات بلا مبالاة، في خضم حديثها عن خلع ضرس العقل، إجراءها العملية في الأسبوع نفسه الذي أحرزت فيه الدرجة الكاملة في امتحان القبول في كلية القانون. وينشر البعض وثائق تظهر تحصيلهم درجات علمية متقدمة، ويندفع البعض في نقاش

⁽أ) ثاني أعلى جبل في العالم بعد إقرست، وأصعبها تسلقًا لوعورته وانحداره الشديد، يقع على الحدود بين باكستان والصين.

الأطروحة زاعمًا «آسف لتأخري. كان ستار فنسكي يعزف على الإذاعة الوطنية العامة، ولا بد من الاستماع إليه حتى النهاية!» اعتاد مراهق أصبح أستاذًا للفلسفة في جامعة هار قرد حمّل نسخة من كتاب الجمهورية لأفلاطون في أنحاء بروكلن متعمدًا إظهار الغلاف(۱). وقد يقضي شخص متوسط الذكاء حياته في استنباط طرق يتأكد بها من إدراك الآخرين تمامًا لمدى ذكائه.

ويصدق الأمر نفسه على الاستعراض. يستخدم الناس الكلام في الأخلاق بطرق إبداعية للإيحاء للآخرين بأنهم مثيرون للإعجاب أخلاقيًا. وقد عرضنا في الفصل السابق تفسيرًا نفسيًا عامًا للسبب الذي يدعو الناس إلى الاستعراض، وفي هذا الفصل سنتحدث عن كيفية فعلهم ذلك. وسنبين خمسًا من الطرق الشائعة للاستعراض: الاصطفاف، والتكثيف، والتلفيق(٢)، وإظهار الانفعالات القوية، والتنحية. وسنستفيد من أبحاث علم النفس لشرح السبب الذي يجعل الاستعراض يتخذ هذه الأشكال.

ولكن نود أولًا أن نستبق وقوع اللبس. يضم هذا الفصل دليلًا ميدانيًا للاستعراض، وسنبين لك السبب الذي يجعل الاستعراض يتخذ شكل الغضب المفرط النبيل، مثلًا، لكننا لا نزعم أن المرء يستعرض كلما أظهر غضبًا مفرطًا. كما أننا لا نقدم اختبارًا لمعرفة إن كان الشخص يستعرض. تذكر ثانية الشخص الذي يحصّل درجاتٍ علمية عليا لإثارة إعجاب الآخرين بذكائه، وهذا هو السبب الأساسي عند البعض للحصول على الشهادات العليا. ولكن سيكون خطأ واضحًا أن نخلص إلى أن كل من يحصل على هذه الشهادات يحاول استعراض ذكائه فحسب، فقد يستمتع البعض بالدراسة، مثلًا.

إن هدفنا إذن أن نبين لك كيف يبدو الاستعراض غالبًا، ولسنا نقصد تقديم منهج مضمون لتحديد حالات الاستعراض قطعًا.

الاصطفاف

لا بدأن كثيرين منا وجدوا أنفسهم يومًا عالقين في اجتماع يبدو أنه سيستمر إلى الأبد. والسبب المشترك للاجتماعات اللامتناهية هو تكرار ما قيل سلفًا. لماذا يتكلم المرء لقول شيء شرح باقتدار قبلًا، وربما لعدد من المرات؟ ربما لم يكن شديد الانتباه، أو ربما أراد أن يُظن أن مشاركته مهمة بصورة ما، وإن كان ذلك دعمًا لفكرة شخص آخر. وربما أراد أن ينظر إليه على أنه لاعب جماعي، وزميل عمل لطيف، أو شخص ينسجم فكره مع قيم المنظمة. أيًا تكن الأسباب، فإننا عالقون هناك، مبعدون عن أعمالنا الحقيقية حتى يسأموا.

يحذو الكلام في الأخلاق أحيانًا حذو الاجتماع الطويل. إذ يردد الناس نقاشات القضايا الأخلاقية بحماس لئلا يقولوا شيئًا أكثر من "صحيح!". نسمي هذه الظاهرة "الاصطفاف". وهو يحدث، مثلما يوحي الاسم، عندما يطرح أحدهم مشاركة في الخطاب الأخلاقي العام، فلا يفعل المستعرض شيئًا سوى إبداء موافقته على شيء قيل سلفًا. وعندما يستعرض المرء عبر الاصطفاف، فهو يحاول أن يدلي بدلوه أو إظهار انتمائه إلى الجانب الصحيح. وله أن يفعل ذلك بعدد من الطرق، فقد يصطف عبر تجديد تعليق أحدهم، أو تكراره كلمة بكلمة، أو إشارته إلى اتفاقه مع ما قاله الآخرون.

تسهل ملاحظة الاصطفاف في النقاشات التي تجري على شبكة الإنترنت. لنفترض، مثلًا، أن عددًا لا يحصى من المشاركين في سلسلة نقاشات قد أشاروا بحماس إلى ضرورة إنشاء عريضة للمطالبة بالعدالة. إن أهداف المجموعة جلية للغاية سلفًا، ولا حاجة لمزيد من النقاشات حول الأمر، ومع ذلك يضيف أحدهم ما يلى:

أريد أن أكرر ما قاله الآخرون. فهذه العريضة مهمة لقضية العدالة ويسعدني ويثير حماسي أن أدعمها. نحن بحاجة لإظهار أننا نقف على الجانب الصحيح من التاريخ. أتحرق شوقًا للتوقيع!

يشمل الاصطفاف أحيانًا سلوكًا أسوأ، مثلما يركز الناس على وسائل التواصل الاجتماعي في لحظة حنقهم على مخترق وحيد لعرف متفق عليه فيلومه الجميع ويهينونه على الملأ. يستمر هذا عادة إلى أن ينجح المصطفون في استخلاص تصريح من ضحيتهم بالندم، ثم يحكمون على التصريح «بأنه غير كافٍ، ومتأخر جدًا»، ثم يتصيدون خروقات جديدة من أجل المزيد من الاصطفاف.

ولنتأمل قضية كيزيا دام، مثالًا عن الاصطفاف في عالم الواقع، وهي مراهقة بيضاء شاركت صورًا لها على مواقع التواصل الاجتماعي وهي تلبس ثوبًا تقليديًا صينيًا ضيقًا في الحفلة الراقصة. علّق أحد المستخدمين على صورها قائلًا «إن ثقافتي ليست ثوبًا لحفلتك اللعينة»، وكان في عبارته تلك نداء للتكالب على دام [بتهمة] الاستحواذ الثقافي. أعيدت تلك التغريدة بعد ذلك أكثر من أربعين ألف مرة (٣).

اتخاذ الاستعراض شكل الاصطفاف أمر منطقي للغاية. فإن أردت أن يظن الآخرون أنك تشاطرهم قيم جماعتك المختارة، فإن الخطة الواضحة لإشباع تلك الرغبة تكمن في إظهار رأيك علنًا، وإن لم يضف ذلك شيئًا إلى النقاش. وإضافة إدانتك في اصطفاف لإهانة أحد ما طريقة بسيطة زهيدة الثمن لنشر آرائك الأخلاقية.

يحاول المستعرض الذي يصطف في حالات كهذه أن يوضح انتماءه إلى الجانب الصحيح. ويؤمن في كثير من الحالات أن المستهدف مذنب يستحق الازدراء. ويحدث كثيرًا أن ما تحتّمه عليه الأخلاق يتزامن مع فرصة سنحت له لإثبات مزاياه السامية.

ولكن ثمة سبب وجيه للظن أن بعض المستعرضين الذين يصطفون ليسوا أكيدين، بل مرتابين بمعنى الكلمة، في أن الضحية الحالية يستحق التشهير، ولكنهم يُسهمون في الاصطفاف على أية حال، ليظهروا بمظهر المحترمين في أعين أقرانهم.

عرف علماء النفس منذ وقت طويل أن الناس عادة يعبرون عن اتفاقهم مع الآراء العامة لجماعتهم، وإن كانوا يخالفونها الرأي سرًا. وأظهر عالم النفس الاجتماعي الرائد سولومن آش هذا بدقة في عمله المعروف حول سلوك الامتثال الاجتماعي (٤)(١). ففي تجربته الشهيرة، وُضع مشترك وحيد في جماعة فيها عدد من الممثلين الذين تصرفوا وفقًا لنص قدمه لهم صاحب التجربة.

⁽i) يقصد بسلوك الامتثال أو الاتباعية أو الإمعية أن يرى الفرد بعض أفراد المجتمع يتصرفون خطأً في موقف ما، ثم يتبعهم بالرغم من تيقنه من خطأ موقفهم، لعدم رغبته في مخالفة الأكثرية والشذوذ عنهم. (المترجمة)

(يسمي علماء النفس هؤلاء الممثلين «بالحلفاء»). قدم الحلفاء عامدين (وبوضوح) إجابات غير دقيقة حول الطول النسبي لخطوط معروضة أمام الجماعة. كثيرًا ما عبر المشاركون عن موافقتهم على الإجابات غير الدقيقة (حوالي ٣٦ بالمئة من عدد المرات)، وإن اعترفوا لاحقًا أنهم لم يتفقوا معها(٥٠).

أحجم الناس في البيئة المصطنعة قليلة الخطورة، وبتوجيه سؤال بسيط إليهم، أن «يفتعلوا المشاكل» على حد تعبير أحد المشتركين، من خلال مخالفتهم للجماعة. وقد تضمنت نسخ أخرى من التجربة زرع حليف واحد مخالف في أغلبية تقريبية، وأظهرت النتيجة أن المشاركين كانوا أميل للتعبير عن آرائهم الحقيقية (٢). والمثير للاهتمام أن المشاركين في هذه النسخة من التجربة زعموا أن وجود مخالف آخر لم يسهل تعبيرهم عن الاختلاف بالرأي. غير أن مخالفة رأي الأغلبية كان سائدًا بوجود زميل مخالف أكثر مما كان عليه في عدم وجوده؛ لذا فإننا لسنا واعين بالضرورة لمدى تأثرنا بضغط الامتثال.

نود أن يظننا أقراننا محترمين، مثلما نود أن يرى الآخرون أننا خير من يحكم على طول الخطوط [في التجربة المذكورة آنفًا]. وكذا سيستعرض الأشخاص الذين يضمرون تحفظات حول مسوغات الاصطفاف لاستغلال الحدث على أية حال. تشير دراسات آش حول سلوك الامتثال الاجتماعي أن الكثير من المستعرضين سيواصلون الاصطفاف، وإن كانوا يضمرون تحفظات. لكن الكثير من الاصطفاف سيتضمن تعييرًا علنيًا بذيئًا. أسيغالي الناس إلى هذا الحد لإثبات أنهم يقفون على الجانب الصحيح، وإن لم يكونوا على ثقة من أن ضحية تقريعهم المخيف قد ارتكب خطأ؟(٧)

عزز عالم الاجتماع روب ولِر وزملاؤه، في دراسات حديثة، نتائج [أبحاث] آش، وأثبت أن الناس ينزعون إلى المغالاة فعلًا (٨). فقد قيّم المشاركون في إحدى الدراسات نوعًا من النبيذ بأنه أفضل بكثير من النوع الآخر (المطابق) خضوعًا لضغط اجتماعي، رغم حكمهم في سريرتهم بتماثل النوعين. وواصل الكثير من هؤلاء المشاركين أنفسهم بإدانتهم علنًا للعضو الشاذ عن المجموعة الذي قيّم النوعين تقييمًا متماثلًا. بعبارة أخرى، يعاقب الناس الآخرين الذين يشذُّون عما يعد رأيًا عامًا، وإن كان المعاقِبون لا يتفقون حقًا مع هذا الرأي(٩). يسمى ولر وزملاؤه · هـ ذا «بالفـرض الزائـف للمعاييـر». يبـدو هـذا سـلوكًا غريبًا في ظاهره، فلماذا يعاقب الناس الآخرين لاعتناقهم آراءً يعتنقونها هم أنفسهم؟

يشرح ولر وزملاؤه أن الناس عندما يكيفون آراءهم العلنية لينسجموا [مع الآخرين] ويتفادوا النقد، فإن ما يقلقهم هو ظهورهم بمظهر المنافقين الانتهازيين. ولكن كيف تقنع الآخرين بصدقك وإن كنت تقر الجماعة على رأيها؟ إحدى الطرق التي ستظهرك أكثر جدية فيما تقول أن تضعه موضع الفعل، أي أن تعزز القول بالفعل. ولذا كان لدى المرتابين في سرهم حل طبيعى: معاقبة المخالفين.

إن كنت تتعمد عقاب الأشخاص الذين يعتنقون «الرأي الخاطئ»، فأنت تبدو مقنعًا أكثر بأنك مصدق حقيقي. والنتيجة هي «آلية التعزيز الذاتي»؛ أي أن يدافع المرء عن آراء ليتجنب النقد، ثم ينتقد الآخرين ليتجنب الشك بعدم إخلاصه. حينها يراك الآخرون تعاقب الناس على «آرائهم الخاطئة»، ويَخلصون أن عليهم الانضمام أيضًا لمعاقبة الآخرين. وقد ينتهي الأمر بقطاع كبير من «المؤمنين الحقيقيين» في بعض الحالات، لا إلى الموافقة علنًا على رأي لا يعتنقونه فحسب، بل إلى عقاب الآخرين على عدم اعتناقهم له!

قد يساعد هذا الوصف لفرض المعيار في شرح ما تراه في وسائل التواصل الاجتماعي من اصطفاف. كم تحدّث في الأخلاق أناس يبحثون عن الانتماء؟ كم من الأشخاص الذين لم

يروا في سرائرهم أن لبس ثوب صيني تقليدي إلى حفلة راقصة يعني استحواذًا ثقافيًا مسيئًا، لكنهم وافقوا المصطفين، لأن هذا ما يؤمنون أن جماعتهم تطلبه منهم؟ الإجابة عن هذا صعبة (١٠٠).

يكون الضغط الواقع على شخص ما ليمتثل لسلوك جماعة أقوى حين تكون عضوية تلك الجماعة جزءًا مهمًا من الهوية الاجتماعية. ويصدق هذا بخاصة على الأعضاء الجدد في المجموعات. ففي الأخويات والأندية، مثلًا، يحكم المنتسبون على أنفسهم بالاتفاق مع النمط في مجموعتهم في بداية انضمامهم أكثر مما يفعلون لاحقًا(١١١). بعبارة أخرى، إنهم يمتثلون ليشعروا بمطابقتهم لمفهومهم الذاتي بوصفهم أعضاء جماعة. ويسهل تصور أناس يتبنون آراء أخلاقية مستحسنة ضمن الجماعة ويعبرون عنها لأسباب مماثلة.

يجازف الذين يخفقون في الامتثال الكلي بالوقوع ضحية لما يسميه علماء النفس تأثير الخروف الأسود(١٢١٠). مما لا

⁽i) يقصد به ميل أعضاء مجموعة إلى الحكم الإيجابي على أعضاء المجموعة المجموعة المجموعة المجموعة المنحرفين بصورة أقسى مقارنة بأعضاء المجموعة الأخرى. يقابله في الثقافة العربية «البطة السوداء» الذي يقصد به فرد حامل لقيم ومعتقدات تختلف عن بقية السرب. (المترجمة).

عجب فيه، أن الناس يطلقون أحكامًا إيجابية للأعضاء ذوي المكانة العليا في مجموعتهم، أكثر مما يفعلون تجاه أشخاص ذوي مكانة عليا في مجموعات أخرى. كما أنهم يطلقون أحكامًا سلبية على ذوى المكانة الدنيا أو الأعضاء الشاذين في مجموعتهم، أكثر مما يطلقونها على أمثال هؤلاء بين أعضاء المجموعات الأخرى. يبدو هذا معقولًا إن فكرت به. فقد يثير إعجابك أعضاء عنيدون من الحزب السياسي المعارض في أمر واحـد على الأقل، فهـم أصحاب مبادئ وإن كانـوا مخطئين. بل يمكن للأعضاء المعتدلين من الحزب المعارض أن يكونوا مفيدين، فهم عقلاء عند تحولهم لدعم سياسات تروق لك. لكن الأعضاء «الشاذين» من حزبك بحاجة إلى تنظيم أنفسهم، ألا يعلمون على أي جانب يقفون؟ تذكر، مثلًا، كيف تحدث بعض الجمهوريين ثابتي الجنان عن السناتور جون ماكين عندما انتقد الرئيس ترامب، أو كيف يتحدث الجناح التقدمي للحزب الديمقراطي عن الرئيس كلنتن وأجندة يسار الوسط التي سعت إليها إدارته في تسعينيات القرن الماضي. بوسعك أن ترى فعالية تأثير الخروف الأسود في الحالتين.

بعبارة أخرى، إن تساوت الأحوال الأخرى، فإن أسوأ ما تكونه تبعًا لأعضاء مجموعتك هو أن تكون الخروف الأسود، وهذا أسوأ من عدم انتمائك إلى المجموعة في المقام الأول. حين يناقش أشخاص من عصبتك مسألة أخلاقية، تكون المخاطر أعلى. فتصبح الزلة البسيطة أمرًا كبيرًا وتضع مكانتك في الجماعة موضع الشك. ولذا، يجدر بك أن تكرر وتذكّر الجميع أنك معهم، وإن تحفظت على ما تفعله الجماعة.

قد يعترض أحدهم قائلًا إننا نزعم أن كل التصريحات حول التكافل هي حالات للاستعراض. ومع ذلك، عند إظهارك تكافلًا مع قضية أو مجموعة من الناس، فإنك تصرح تصريحًا أخلاقيًا - تصريحًا لا يضيف على الأغلب شيئًا إلى ما قاله الآخرون سلفًا لا لشيء إلا لإعلان آرائك الأخلاقية. إن المغزى برمته من إظهار التكافل هو تمييز نفسك صراحة بوصفك داعمًا لبعض الأشخاص أو الجماعات المحرومة، مثلًا، فيرى الناس اتخاذك هذا الموقف. ولكن لا ضير طبعًا في إظهار تكافل المرء مع القضايا المستحقة، لذا إن كان وصفنا يحكم على تصريحات كهذه بأنها مظاهر نمطية للاستعراض، فتلك مشكلة.

نتفق أن جل عبارات التكافل جديرة بالثناء، ووصفها بالاستعراض يجانب الصواب. لكن نوع عبارات التكافل التي في أذهاننا هي التي تحرضها أساسًا رغبة لمساعدة الذين يتضامن معهم المتحدث. والقول إن المتحدث يأمل بأن يشار إليه على

أنه ذو رأي أخلاقي وصف ناقص ومضلل لدافع المتحدث. سيراود شخص كهذا شعور بالإحباط بالضرورة، بل سيشعر بقليل من الذنب إن كان هو المنتفع الوحيد مما قال. ومن ناحية أخرى، فقد لا يعتري المستعرض كدر كبير، بل سيسره أنه جذب الانتباه الذي يسعى إليه، وسيشعر بالإحباط إن فشلت محاولته (١٣).

التكثيف

في النصف الثاني من القرن العشرين، انخرط الأمريكيون والسوڤيت في سباق تسلح نووي. إذ في بداية الثمانينيات من القرن نفسه، خزن كل جانب عشرات الآلاف من الرؤوس النووية (١٤٠). ما الذي حرض التسابق إلى التسلح؟ الرغبة في تجنب تفوق الآخر (١٠٠). لم يقل السوڤيت لأنفسهم بعد إنتاج كل قنبلة جديدة، «بلى، هذا هو العدد الذي يجدر بنا امتلاكه من القنابل، لذا يمكننا التوقف الآن». بل استمروا عوضًا عن ذلك في صنع القنابل ومراكمة المزيد من الرؤوس النووية أكثر مما يملكه الأمريكيون. كانت تلك منافسة، وكل جانب يحاول أن يسبق الآخر.

كثيرًا ما يتحول الكلام في الأخلاق إلى سباق للتسلح، حيث يقول الناس عبارات قوية أكثر فأكثر حول الموضوع محل النقاش. لنسم هذا بالتكثيف. عندما يلجأ الناس إلى التكثيف فهم

لا يحاولون الوصول إلى العبارة الأخلاقية الصحيحة، أكثر من محاولة السوڤييت والأمريكيين إنتاج العدد المناسب من القنابل. بل إنهم يحاولون أن يسبقوا الآخرين، وما يدفعهم هو الرغبة في أن يكونوا أكثر إثارة للإعجاب من الناحية الأخلاقية. لذا يمعنون في إطلاق عبارات أخلاقية قوية للتلويح بأنهم أكثر انسجامًا مع قضايا العدالة، وأن الآخرين لا يفهمون أو لا يقدرون اختلاف الموقف أو خطورته.

يتخذ الاستعراض كثيرًا شكل التكثيف. تأمل الحوار الآتي: آن: نتفق جميعًا على أن سلوك السناتور خطأ، وأنها يجب أن تخضع للرقابة العامة.

> بن: أوه، أرجوك. إن كنا نهتم لأمر العدالة حقًا، فعلينا السعي إلى عزلها من منصبها. لا يمكننا التساهل مع سلوك كهذا، ولن أدعمه.

> تشب: بوصفي امراً ناضل طويلًا من أجل العدالة، فإني مؤيد لهذه الاقتراحات. ولكن أيعرف أحدكم القانون الجنائي في هذه القضية؟ أقترح أن نسعى لإصدار تهم جنائية. علينا جميعًا أن نحسن الفعل، ولنتذكر أن العالم يراقبنا.

لماذا يتخذ الاستعراض هذا الشكل؟ كثيرًا ما يتخيل الناس أنهم يشغلون مكانة ما بالمقارنة مع الآخرين. ويسمي علماء النفس هذا «بالمقارنة الاجتماعية» (١٦٥) فنحن نقيّم جاذبيتنا أو حس الدعابة عندنا، على سبيل المثال، بالإشارة إلى جاذبية الآخرين أو ظرافتهم. إذ يظن معظمنا أننا مثيرون للإعجاب أخلاقيًا، كما ذكرنا في الفصل الثاني.

كثيرًا ما نحكم على نقائنا الأخلاقي النسبي قبل سماع آراء الآخرين، وحين نسمع آراءهم (أو ما يصفون به أنفسهم على الأقل)، يكون عندنا خياران. أن نقبل أننا عاديون في أخلاقنا ونحتفظ بآرائنا كما هي، أو أن نغير آراءنا قليلًا (أو طريقة عرضنا لها)، لاستبقاء مكانتنا بوصفنا المثال الأخلاقي ضمن الجماعة. يفضل الكثيرون الخيار الثاني، وهكذا فإن ما بدا مرة رأيًا معقولًا يجب استبداله الآن لصالح شيء أدق.

عد إلى الحوار السابق لتعرف كيف يحدث ذلك. لا بد أن كلًا من آن وبن وتشب، قبل بدء ذلك النقاش، رأوا أنفسهم جديرين بالاحترام من الناحية الأخلاقية في قضايا العدالة. ثم

⁽أ) نظرية طرحها عالم النفس الاجتماعي ليون فيستنغر عام ١٩٥٤، و وتنص على أننا نقيم آراءنا وقدراتنا وقدراتنا من خلال مقارنتها بآراء الآخرين. (المترجمة)

أبدت آن رأيها، وحالما قدمت آن تحليلها الأخلاقي، تعين على بن وتشب أن يتحركا لاستبقاء مكانتهما المتوقعة ضمن الجماعة. بل عليهما أن يكثفا مشاركتهما، وإلا كانا كمن حاصره أحد بكفاءته الأخلاقية الفائقة. سينزع بن وتشب إلى الدفع بآراء الجماعة نحو أحد الأطراف، وإن أرادت آن أن تكرر ثانية، فسينتهي بها الأمر إلى تغيير رأيها لتديم الصورة التي ترغب بعرضها. فقد كانت تؤيد السعي لإصدار تهم جنائية منذ البدء كما ترى، لكن الأمر شديد الوضوح حد أنها لم يخطر لها أن تذكره.

رغم أن مثالنا عن التكثيف يستثمر ردود الفعل القوية المنتقدة، فقد ينجم عنه تصريحات قوية إيجابية. فقد يصف شخص سلوك أحدهم «بالشجاع الحقيق بالإعجاب»، في حين يرى آخر أن «ذلك الفعل لم يكن شجاعًا فحسب، بل الفعل الأشجع والأكثر إيثارًا مما شهدته في حياتي». هنا أيضًا، قد يستغل التكثيف للإيحاء بأن ذلك الشخص جدير بالاحترام؛ وأنه قادر على تمييز قديسي الأخلاق الذين يُغفل عنهم بلا وجه حق.

في نقاش دائر بين كثير من الناس ممن تدفعهم الرغبة في التقدير، نتوقع سباق تسلح أخلاقي. يبين التكثيف السبب الذي يجعل الكثير من الحوارات حول الأخلاق والسياسة تخرج عن

نطاق السيطرة بسرعة. وما يبدأ بوصف خلافًا في الرأي حول التعرفة، الجمركية ينتهي بنعت أحدهم لآخر، يتفق معه في الكثير من القضايا الأخلاقية، بالنازي.

هل يغير الناس أحكامهم الأخلاقية المعلنة ليبدوا بمظهر ما؟ يبدو ذلك. أظهر عالما النفس سارا روم وبول كونوَي أن الناس يغيرون أحكامهم الأخلاقية المعلنة (لا السرية) بناء على ظنهم بأن ما يتوقعه الآخرون منهم هو إظهار الحماس، أو التنافس(۱۷). ويجب ألا نفترض أن كل قول في الأخلاق يقوله الناس على الفيسبوك هو الرأي الذي يعتنقونه بقوة ويتدارسونه بعناية. كثير من المزاعم الأخلاقية يطلقها بشكل مدروس أناس يأملون أن يدفعوك لتراهم بصورة محددة.

ولكن ليس كل نقاش «منطوعلى التكثيف» مدفوعًا بالاستعراض طبعًا. فقد يقول الناس أحيانًا تصريحات أقوى؛ لأنهم يختلفون في الرأي مع آخرين ويحاولون الاقتراب أكثر من حقيقة الأمر. إن رأيت أحدًا يقول رأيًا تعوزه الحماسة حول العبودية، فالأجدى معارضته برأي أقوى. ويصعب تحديد إن كان ما تراه مزاعم قوية بنيّة خالصة، أو أن ما تراه سباق تسلح أخلاقي يشعله الاستعراض. ولكن صعوبة تحديد الفرق لا تلغي وجود الفرق.

في الحكاية الخرافية «الأميرة وحبة البازلاء»، لهانز كريستيان أندرسن، يبحث أمير عن أميرة حقيقية لتكون زوجة له. لكنه رغم كل محاولاته يفشل دومًا في العثور على زوجة مناسبة. وذات ليلة، ظهرت شابة عند بوابة المدينة تبحث عن مأوى من العاصفة، زاعمة أنها أميرة حقيقية. وبعد أن دعيت للإقامة، اختبرت الملكة ادعاء الشابة بانحدارها من أصول ملكية، فوضعت لها حبة بازلاء تحت كومة من عشرين مفرشًا، وعشرين فراشًا من الريش لتنام عليها الشابة. ولما سألوها صباحًا كيف نامت، قالت: «أوه، كانت ليلة سيئة. لم يغمض لي جفن طوال الليل. السماء وحدها تعلم ما كان في الفراش. كأنني نمت على شيء قاس، وجسمي كله مبقع بالأزرق والأسود هذا الصباح. هذا فظيع!» فأدركت العائلة المالكة أنهم وجدوا ضالتهم، «فلا أحد إلا أميرة حقيقية سيكون له بشرة رقيقة كهذه»(١٨)(أ).

⁽i) في حكاية خرافية هندية اتخذ تصوير هذه الرهافة الحسية شكل مباراة «من أجل الوصول برهافة الحس إلى أقصى درجة. فيحكى مثلًا أن زهرة اللوتس سقطت في حجر ملكة رقيقة فجرحتها وسببت لها الإغماء، وكذلك أصابت أشعة القمر جسم ملكة أخرى بالقروح. وسمعت ثالثة صوت مدفع فأصيبت بدمامل. وقد حازت الملكة =

ما يجعل القصة مسلية أنه لا يمكن لأحد بالطبع أن يبلغ هذا الحد من الحساسية. يهزأ أندرسن باختبار سخيف للحساسية لتأكيد السمات الملكية. ومع ذلك يحاول البعض توكيد سماتهم الأخلاقية بإظهار درجة مماثلة من الحساسية تجاه المشاكل الأخلاقية. وكثيرًا ما ينجم عن هذا أقوال زائفة حول وجود مشكلة أخلاقية، في عدم وجود واحدة حقًا. نسمي هذا التوظيف الضال للكلام في الأخلاق بالتلفيق. إذ يعرض المشاركون في الخطاب الأخلاقي أحيانًا شكاوي أخلاقية زائفة، مثلما يختلق محام تهمًا مزورة ضد مشتبه به. والتلفيق أداة نافعة للمستعرضين، إذ يحاولون من خلالها أن يثيروا الإعجاب بأخلاقهم، باعتراضهم على صفات العالم التي تبدو ضئيلة القيمة أو ساذجة أو جديرة بالثناء في أعيننا نحن معشر بسطاء الأخلاق. إنهم، لكونهم أميرات في الأخلاق، أكثر إحساسًا بالظلم من البقية. لاحظ أن التلفيق، على خلاف الاصطفاف والتكثيف، يتطلب قول أشياء كاذبة في الأخلاقيات. يمكنك الاصطفاف بتكرار رأي أخلاقي متطرف لكنه حقيقي، ولكن إن أردت التلفيق فليس لك إلا الكذب.

الأخيرة على الجائزة بوصفها أكثرهن حساسية، فقد اتضحت حساسيتها عن طريق السمع، في حين أن الملكتين الأخريين ظهرت حساسيتهما عن طريق اللمس». الحكاية الخرافية، فردريش فن دير لاين، ترجمة د. نبيلة إبراهيم، دار رؤية ٢٠١، ص ٢٢١. (المترجمة)

للأسف، يشيع في الخطاب الأخلاقي العام دافع التلفيق. ففي عام ٢٠١٤، مر الرئيس أوباما باثنين من سلاح البحرية وردّ تحيتهما حاملًا كوب القهوة. ولكن نظام التشريفات العسكري العادي يحرّم أداء التحية أثناء حمل شيء باليد. فهب المعلقون المحافظون لكيل نقد أخلاقي لأوباما، فقال كارل روف: «المراد أننى سأتنزه هناك حاملًا كوب الشاي، وأمنحهم [التحية] القديمة...، أعنى أي قلة احترام هذه؟»(١٩). وقدم بريتبارت تقريرًا بعنوان «'تحية أوباما باللاتيه' العديمة الاحترام صادمة ومهينة»(٢٠). يتطلب الأمر الكثير من الحساسية ليقلق المرء بقدر ما فعل البعض حول خرق ثانوي لتقليد عسكري. لا نزعم أننا نعرف إن كان روف وغيره مستعرضين، لكن هذه الشكوى الأخلاقية مختلقة قطعًا.

يجسد التلفيق ما تسميه الفيلسوفة جوليا درايفر بالحكمة الأخلاقية، أي «الاستخدام المحظور للنقاشات الأخلاقية» (٢١). ويتخذ الوعظ أحيانًا شكلًا متطلبًا جدًا أو مفرط الصرامة. فقد تعظ بقولك، على سبيل المثال، إن سلوك الطريق الأكفأ عند القيادة واجب أخلاقي، لا القيادة نصف ميل في انعطافات مستهلكة للوقود لأن الطريق أجمل منظرًا! ويستغل شكل آخر من الوعظ قضايا غير أخلاقية، فيجعلها أخلاقية. تقدم درايفر

مثالًا لرجل مسن يرد بازدراء على عرض أقل من السعر المطلوب في بيته، متهِمًا المشتري المحتمل بمحاولة استغلال كبار السن (۲۲).

يستخدم علماء البيئة مصطلح «أنواع مجتاحة» للإشارة إلى أنواع ليست من سكان نظام بيئي ما، بل بوسعها الاستيلاء والسيطرة عليه. وإن بـدأت بذلـك، تسببت بخلـل بيئي وهلاك الأنواع الأخرى. لعل مثال كودزو⁽⁾ مألوف لدى كثير من القراء الأمريكيين. إنها نوع من النباتات المعترشة من نبات اليابان، جُلب إلى أمريكا الشمالية للحد من انجراف التربة. غير أنه انتشر بسرعة في أنحاء الإقليم، متسببًا بخنق وقتل ملايين الفدادين من الأشجار والأجمات الواطنة. ولو قدت في أنحاء جورجيا أو ولايتي كارولينا، لرأيت مئات الأميال من الكودزو تحد الطريق السريع. إن ميلنا للوعظ يشبه الكودزو، إذ حالما يبدأ البحث عن مشكلات جديدة يصبح التوقف صعبًا. وقد لاحظ الفيلسوف والمصلح الأخلاقي البريطاني جون ستِوَرت مِل هذه النزعة في

⁽أ) نوع من الكشت أزهاره تميل إلى الزّرقة البنفسجيَّة الموشّحة بالأبيض. جذوره درَنِيَّة مأكولة، سوقه صناعيَّة نسيجيَّة، بزوره وأوراقه علفيَّة. وهو من النّباتات الّتي تُزرَع في المناطق المُعرَّضة للحتّ، لأنّها تتشبَّث بالتُّربَة، وتمنع انجرافها. (المترجمة)

القرن التاسع عشر وكتب قائلًا: «لا يصعب، بالأمثلة الوفيرة، إظهار أن واحدة من أكثر النزعات البشرية شيوعًا توسيعُ حدود ما قد يدعى السياسة الأخلاقية حتى تتعدى على أكثر الحريات الفردية شرعية»(٢٣).

ويستوجب التلفيق ارتكاب خطأ بحق الأخلاقية. لكنك لست بحاجة للاستعراض لتقول شيئًا كاذبًا في الأخلاق، فهي معقدة، ويخطئ الناس أحيانًا رغم بذلهم الجهد لفعل الصواب. ولكن المستعرض، حتى في محاولته فعل الصواب، يسعى لإظهار صورة فاضلة مثيرة للإعجاب عن نفسه، وغالبًا ما يتعارض هذا مع فعل الصواب.

يسهل معرفة السبب الذي يجعل الاستعراض يتخذ شكل التلفيق. إذ يتلهف المستعرض لإظهار احترامه الأخلاقي، ويتلهف غالبًا إلى إطلاق اسم المشكلة الأخلاقية على أمور لا يراها الآخرون كذلك (وهم على صواب). وإذا كانت الرغبة في نيل التقدير تقود الناس أحيانًا إلى تحديد مشاكل أخلاقية حقيقية ولفت الانتباه إليها، فتلك مكاسب سهلة المنال بالنتيجة. أي إن حالات ارتكاب الأخطاء المنطقية التي يسهل تحديدها ستكون معلنة، لكن المحرض على اكتشاف (أو تلفيق) تهم أخلاقية جديدة حاضر دومًا، وهكذا سيتجه البعض نحو التلفيق.

يستغل المستعرض الذي يختلق مطالب أخلاقية حقيقة أن توجيه التهم الأخلاقية قد يكون أداة فاعلة في إدارة انطباع الآخرين عنه (٢٤). وتظهر الدراسات أن الاتهامات العلنية لا تقلل ثقة الآخرين بالمتهم فحسب، بل تزيد ثقتهم بموجه الاتهام (٢٥). فإطلاق الاتهامات، وبخاصة في أمر تجاوزه الآخرون، يشير إلى تمتع موجه الاتهام بمعايير أخلاقية رفيعة.

قد يصعب إدراك فكرة التلفيق. وقد يساور القلق البعض بأننا نقول إن أي مطلب أخلاقي جديد أو لا يحظى بالرواج مختلق. لكننا لا نرى هذا قطعًا، مع أننا لا ننكر أن الرأي العام كثيرًا ما يغفل عن المشكلات الأخلاقية، ولذا فإننا بحاجة إلى أشخاص ينبهونا إلى الظلم الذي غفل عنه الآخرون. كانت آراء حول بعض الموضوعات، لنقل الجنوسة والجنسانية الشائعة الآن، مثيرة للجدل إلى حد بعيد قبل عقود، وهذا يعني أن بعض المخاوف الأخلاقية جديدة وصادقة.

ولكن ثمة بِدَع أخلاقية مصطنعة وريادة أخلاقية بقصد نيل التقدير. فيمكن أن يكون التلفيق، شأنه شأن كثير من الأشكال الأخرى للاستعراض، صعبًا في تمييزه – إن لم يكن مستحيلًا عن الكلام الأخلاقي المطروح بنوايا حقيقية. وإن كنت مهتمًا

بإثارة إعجاب الاخرين، فإن دوافع التلفيق واضحة، وسنتوقع أن يفعل الاستعراض الأمر نفسه تمامًا.

الانفعالات القوية

في مشهد شهير من فيلم شبكة للمخرج سدني لومت عام ١٩٧٦ ، يختم منسق الأخبار الفاسد هورد بِل تشدقه حول الفساد الأخلاقي بالإيعاز إلى مشاهديه ليتجهوا نحو نوافذهم ويصرخوا بعبارة «إنني أستشيط غضبًا، ولن أقبل بهذا بعد اليوم!» واحدًا تلو الآخر، أخرج مشاهدوه رؤوسهم من نوافذ شققهم ووقفوا على سلالم الحريق. فصرخوا ونقسوا عن غضبهم، وقد أثار حماسهم سماع جيرانهم غاضبين مثلهم.

إن تقنيتنا في إظهار الغضب قد تطورت منذئذ. ولسنا بحاجة للصراخ خارج النوافذ لنجرب الغضب المشترك. وللجميع الآن منتدى افتراضي ينفسون فيه عن غضبهم متى شاؤوا. ففي مارس عام ١٨٠٧، بلغ عدد المستخدمين النشطين يوميًا في الفيسبوك ١,٥٥ مليار مستخدم (٢١٥)، ينشرون قرابة ٢٠٠٠ منشورًا كل دقيقة (٢٠٠). وفي تويتر بلغ عدد المشتركين النشطين شهريًا ٣٣٠ مليون مستخدم (٢٠٠)، ينشرون قرابة ٥٠٠ مليون تغريدة كل يوم (٢٠٠). تشهل منصات التواصل الاجتماعي على الجميع الإعراب عن غضبهم من آخر النزاعات السياسية أو زلات المشاهير.

لكنك لست بحاجة إلى الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي لترى الغضب. أدر قنوات الكيبل الإخبارية، أو اقرأ عمدة الرأي في صحيفتك المحلية، إذ تعج وسائل الإعلام الموالية تحديدًا بالأشخاص الذين يعبرون عن أقصى درجات الغضب طوال ساعات اليوم. وقد درس العالم السياسي جيفري بري وعالمة الاجتماع سارا سوبراج عام ٢٠٠٩، ولمدة استمرت عشرة أسابيع، نشرات الأخبار الأمريكية في قنوات الكيبل، والبرامج الحوارية على الإذاعة الوطنية، والمدونات السياسية والإيديولوجية، وأعمدة الرأي العام في الصحف من مختلف الأطياف السياسية. فوجدا شكلًا من أشكال الغضب عُبر عنه في الأطياف السياسية من مئات المواد التي شملتها عينة دراستهما(٢٠٠).

وإن تحدثنا عن «الحنق»، تبادر إلى أذهاننا شكل بعينه من الغضب الذي يتضمن الأخلاق. قد تغضب لأن السماء أمطرت في يوم ميلادك، أو لأن پلوتو ليس كوكبًا. لكننا مهتمون بالحنق الفاضل على وجه الخصوص. ونعني به ما ينتابك من شعور حين تسمع بمقتل طفل على يد سائق مخمور، أو قصف بناية مليئة بالمدنيين بهجوم طائرة من غير طيار.

نعبر أحيانًا عن الحنق الفاضل تعبيرًا مباشرًا فنقول: «أنا حانق! لبس أوباما بزة لونها ضارب إلى الصفرة في مؤتمره الصحفي حول الدولة الإسلامية [داعش]. ألا يخجل؟ الصحفي حول الدولة الإسلامية [داعش]. ألا يخجل؟ مديدة: من مثل النبز بالألقاب، والسخرية، والإهانة وإظهار الانفعالات (كالصراخ، والصياح، والهياج والحظر على الفيسبوك)، والكلام النابي، والجدال الحاد والغلق والإفراط في تزييف الحقائق(٢٠٠). وإن كان ما ينشر على مواقع التواصل عندك يشبه ما ينشر عندنا، فقد رأيت كل ذلك.

كثيرًا ما يتخذ الاستعراض شكل التعبير عن الحنق وغيره من الانفعالات القوية، وهذه وسيلة أخرى لإدارة انطباعات الآخرين عما يضمره في نفسك. ومن أجل فهم آلية عمل هذا علينا أن نناقش علم النفس قليلًا.

سبرت عالمة النفس لِندا سكيتكا، على امتداد العقد الماضي، ما تسميه «القناعات الأخلاقية»، (تعرف أحيانًا بالتفويض الأخلاقي) (٢٦٠). فكر بأحد أقوى مواقفك الأخلاقية، كأن ترى الإجهاض خطأ، أو الرأسمالية شرًا. أيّا ما كان الأمر، فذلك على الأرجح شيء من قناعاتك الأخلاقية. هذه مواقف

⁽أ) تعد البدلات ذات الألوان الفاتحة ثيابًا صيفية غير رسمية، ولذا رأت قناة فوكس الإخبارية المحافظة أن بدلة أوباما غير رسمية رغم أنه حاضر لمؤتمر صحفى لمناقشة مسألة بالغة الأهمية. (المترجمة)

«متشربة بحماسة وعاطفة أخلاقية محددة»، كما تقول سكيتكا(٣٣). يشعر الناس بالحنق أو بالابتهاج لدى حديثهم عن قناعاتهم الأخلاقية.

حين ينفعل شخص حيال أمر ما، فطبيعي أن نظنه يكن شعورًا لذلك الأمر. ويؤكد عمل سكيتكا هذا الظن، فقد استنتجت أن ردود الفعل الانفعالية الأقوى على العديد من الأفعال أو السياسات (كانتحار شخص بمساعدة طبيب أو حرب العراق) تترافق مع قناعات أخلاقية أقوى بشأن هذه الأفعال أو السياسات (٢٤). وينزع المرء إلى الغضب في الأمور التي يتبنى قناعات أخلاقية بشأنها.

يشير بحث سكبتكا إلى إن إظهار حنقك أو الإفصاح عنه في مسألة أخلاقية يمكن أن يستخدم للإلماح إلى قوة قناعتك الأخلاقية بشأنه (٥٣). وتخبرنا سكبتكا «أن الانفعال يؤدي دورًا رئيسًا في إخبار الناس ما إذا كانت مواقفهم قناعات أخلاقية (٢٦٠). فقد يستغل المستعرض هذه المظاهر الانفعالية استغلالا مدروسًا ليبين للآخرين قناعاته الأخلاقية السامية. وأينما فاز الحنق الأخلاقي بالنفوذ الاجتماعي، كان الافتراض الضمني بأن أكثر الأشخاص سخطًا يملك أعظم الآراء الأخلاقية أو القناعات الأخلاقية الأقوى في القضية موضع النقاش. يستغل المستعرض

هذا الافتراض المستتر ويسخّر حنقه للتلويح بأنه الأكثر تأثرًا بخلل الأخلاق في العالم، أو أكثر تعاطفًا مع ضحايا الأذى. فإن كدر صفوك الكثير من الأمور في العالم، رآك الناس عندئذ صاحب كثير من القناعات الأخلاقية (٣٧).

سيبدو هذا النقاش متشككًا جدًا عند البعض، فيعترضون بالقول إن الناس حين يعربون عن حنقهم الأخلاقي فإنهم يفعلون ذلك للإشارة إلى الظلم في العالم. يهتم الحانقون بضحايا الظلم، ويقودهم غضبهم إلى معركة سياسية تثير الإعجاب، واحتجاج سلمي، وإنزال العقوبة على المخطئين نيابة عن الذين لا صوت لهم ولا سلطة. إن غضبك دليل على أنك تولي اهتمامًا لمشاكل العالم وتستجيب لها استجاةب ملائمة.

كان الرأي الشائع بين علماء النفس أن دوافعنا للتعبير عن حنقنا اتسمت بهذا النقاء حقًا. ولكن في السنوات الأخيرة، اكتشف عالما النفس زاكري روتشايلد ولوكاس كيفر أن دوافع أخرى أقل إثارة للإعجاب تكمن خلف الكثير من التعبير عن الحنق (٢٨).

فأحد الأسباب التي تدعو الناس للتعبير عن حنقهم الفاضل هـ و محاولتهـ م التخفيف من ذنوبهم (٢٩). المشتركون في إحدى

الدراسات ممن أحسوا بالذنب لاستخدام سلع صنعت في معمل معرِّق (أ)، أظهروا مستويات من الغضب، واستعدادًا لمعاقبة المؤسسات التي تدير هذه المعامل، أكبر من المشاركين الذين لا يستخدمون هذا النوع من السلع ولا يراودهم الإحساس بالذنب. لماذا أظهر المستهلكون المذنبون حنقًا أكبر؟ خلص روتشايلد وكيفر إلى أن الناس إن أحسوا أنهم مشاركون في خطأ أخلاقي، فإنهم يحاولون تخفيف هذا الشعور وحماية صورهم بوصفهم أشخاصًا صالحين. ويفعلون هذا بالتوجه نحو الحنق والمواقف التأديبية للآخرين، ولدي تعبيرهم عن حنقهم، يستعيدون الشعور بصلاحهم الأخلاقي. وهذا يعني أن الحنق الأخلاقي الذي تراه دفاعي على الأرجح. وانظر مثلًا إلى الدعوات المستمرة إلى الحذر من الاعتداء والتحرش الجنسيين والإبلاغ عنهما، اللذين حرضت عليهما حركة أنا أيضًا (ب) التي بدأت عام ٢٠١٧. يتساءل المرء كم من الحنق الذي نراه من الرجال الداعمين لهذه الحركة

⁽أ) sweatshop هي المعامل التي تستغل العمال فيعملون في بيئة سيئة وأجور زهيدة. (المترجمة)

⁽ب) وسمٌ انتشر انتشارًا واسعًا في وسائل التواصل الاجتماعي عام ٢٠١٧، لإدانة الاعتداء والتحرش الجنسي واستنكارهما، عقب فضيحة هارڤي واينستين الجنسية، إذ وجهت له عشرات النساء من هوليوود تهمًا بالتحرش أو الاعتداء الجنسي. (المترجمة)

هو محاولة للتخفيف من ذنوبهم حول انتهاكاتهم، وتعزيز هويتهم الذاتية بأنهم صالحون.

كما يشعرنا الحنق الأخلاقي بالرضا. ففي دراسة أخرى، جعل عالم النفس جفري غرين وزملاؤه المشاركين يقرؤون قصة عن الظلم (عن قرويين لم يتلقوا مساعدة في التسونامي)، أو قصة «محايدة» (التبضع لإعداد العشاء). فوجدوا أن المشتركين الذين اختبروا حالة من الغضب الصالح بعد قراءة قصة الظلم، قد قيموا أنفسهم بتمتعهم بأخلاق أكثر من الذين كانت حالتهم الانفعالية محايدة بعد قراءة القصة المحايدة. يشعرنا الحنق الأخلاقي بأنا أشخاص أفضل. وعلاوة على ذلك، وهذا مما يخدم مرادنا حتمًا، عندما طُلِب الاختيارُ من الأشخاص الذين غضبوا وأحسوا بتعزيز ذاتي أخلاقيًا بعد قراءة القصة الأولى، فقد أبدوا اهتمامًا بقراءة مزيد من القصيص عن الظلم، أكبر مما أظهروه من اهتمام بعد قراءة قصص «سعيدة» قد تقلل من غضبهم. لماذا يبحثون عن مناسبات أخرى للغضب؟ لا يبدو السبب عائدًا إلى محاولتهم تخفيف ذنوبهم، بل إلى محاولتهم «تعزيز مفهومهم الذاتي بوصفهم نماذج للأخلاق»(١٠٠). يبدو أننا نحب النظر إلى أنفسنا نظرة محابية، فيتساءل المرء عندئذ كم من الغضب ما هو إلا هو محاولة لإدامة الإحساس بالسمو الأخلاقي.

إن كان المرء يسعى إلى الغضب لتعزيز تصوره عن نفسه بوصفه نموذجًا للأخلاق، فقد يعبر عن الحنق ليجعل الآخرين يرونه نموذجًا للأخلاق أيضًا. وهذا هو تمامًا ما نرمي إليه؛ إذ يوظف المستعرض الحنق الفاضل ليظهر بمظهر الصالحين.

لقد ركزنا على الحنق، لكن المستعرض يسهل عليه توظيف أي انفعال قوي آخر لعرض ملكاته الأخلاقية، فالتعبير عن الصدمة («لا أستطيع تصديق أن...»)، أو الإحباط («إنني محبط إحباطًا لا يوصف»)، أو الاشمئزاز («أشعر بالغثيان تمامًا حيال...») كلها احتمالات مقبولة. كما تنجح الانفعالات الإيجابية أيضًا. تذكّر الذين قالوا إنهم «شديدو الإعجاب» لشخص بفضل موقفه الذي لم يكلفه شيئًا في بعض القضايا الأخلاقية بين أصدقاء يماثلونه تفكيرًا.

وللتوضيح؛ فإننا لا نقول إن أي تعبير عن الحنق أو أي انفعال قوي آخر هو استعراض. في العالم شرور كثيرة، وكثيرًا مما تراه من الغضب والقلق صادق وموجه توجيهًا صحيحًا إلى مشكلات أخلاقية خطيرة. كما إننا لا نقول إن المرء يستعرض كلما أظهر ردة فعل انفعالية مُغالية أو في غير محلها، إذ يتحمس البعض أو يرتكبون أخطاء نزيهة. لكنهم يستعرضون في الأغلب،

ويحنق الناس لشتى الأسباب منها الرغبة في إثارة الإعجاب بملكاتهم الأخلاقية.

التنحية

المستعرض نابذ دومًا. وهذا واحد من الأسباب التي تجعله مزعجًا يصعب إشراكه في حوار. أن يرى أحدهم أنه يفضُلك أمر، وأن ينظر إلى آرائك وقيمك الأخلاقية على أنها لا تستحق التفكير أمر آخر تمامًا. غير أن هذا هو أسلوب كثير من المستعرضين. وكثيرًا ما تتجلى تنحيتهم في عبارات ذاتية، فقد يقول أحدهم مثلًا:

"إن لم تر هذه الحرب عادلة، فإن آراءك تستحق الازدراء، وأرفض مشاركتك أكثر. وإن لم تفهم السبب، فلن أضيع وقتي في الشرح لك. قدم شيئًا أفضل».

يتحدث المستعرض غالبًا كأن آراءه بدهية تمامًا، وأن أي أحد يتمتع بالكفاءة في إطلاق الأحكام الأخلاقية سيخلص إلى الآراء نفسها. يمكن توظيف هذا النمط من الكلام للإشارة إلى أن حساسية المرء الأخلاقية أكثر حدة من حساسية الآخرين، ولذا فإنه محترم من الناحية الأخلاقية. وما لا يكون بدهيًا عند الآخرين بدهي بداهة مفرطة لدى المستعرض. إلى جانب ذلك،

كثيرًا ما يدحض المستعرض أي تلميح إلى التعقيد الأخلاقي، أو أى تعبير عن الارتياب أو الاختلاف، لأنها تكشف إما انعدام الحساسية في القضايا الأخلاقية، أو الافتقار إلى الإخلاص للأخلاق في حد ذاتها. بل ينكر المستعرض غالبًا أن آراءه تحتاج تبريئ (أو يقول إنه إن برر فلن يكون جمهوره متنورًا كفاية لفهم ذلك أو تقديره). ويُظهر المستعرض عادة سلطته لتنحية الآخرين عبـر التعريف بنفسـه بمزايا: «بوصفي شـخصًا ناضـل طويلًا ضد الظلم...»، أو «بوصفى أمريكيًا وطنيًا...». ثمة حالات يكون إخبارك الآخرين فيها أنك محام أو طبيب أمرًا مفيدًا، فالمعرفة مناسبة. ولكن تقديمك نفسك بالقول «بوصفى»، كما يحدث غالبًا، ليس إلا إحماءً واستعدادًا لشيء من الاستعراض. هذا يذكرنا بطرفة الكوميدي ديمتري مارتن القائلة «حين يصف امرؤ نفسه بقوله 'بوصفي دافع ضرائب'، فإنه على وشك أن يكون أحمق»^(٢١).

لا شك أن بعض الآراء السياسية والأخلاقية أجدر بالنبذ من غيرها. ونحن لا نلمح إلى أنه كلما دافع أحدٌ عن القرابين البشرية أو الغولاغ⁽¹⁾، فإن علينا اقتطاع وقت من يومنا ونحمل مزاياه

أو التضحية البشرية: عملية قتل شخص واحد أو أكثر بوصفها جزءًا
 من الطقوس الدينية، وقد مورست في مختلف الثقافات عبر =

محمل الجد. كما نظن أن العاقلين يختلفون حول جلاء صدق بعض المزاعم الأخلاقية، وأيها يقع خارج نطاق المقبول. ولكن لا شيء من هذا يضفي شكًا على قولنا إن الناس أحيانًا يوظفون الكلام الأخلاقي النابذ لتأكيد تفوقهم أخلاقيًا. ويكمن الخطر في أننا نغدو شديدي الاقتناع بنزاهتنا أخلاقيًا، حتى ليصبح أي رأي يختلف عن رأينا منافيًا للعقل، يستحق السخرية والإقصاء السريع. ويتجلى الجانب المظلم من تعزيز الذات الأخلاقي في تأمينه غطاء ننبذ به أي رأي نخالفه.

اختبار بسيط؟

لاحظت حتى الآن أن حالات الاصطفاف والتكثيف والتلفيق والانفعالات القوية والتنحية هي أمثلة على الاستعراض أحيانًا، غير أن لكل منها أمثلة أكثر تتسم بالبراءة وصلاح المقصد. فقد تلجأ إلى التكثيف لتحاول إثارة إعجاب الاخرين، لكنك قد تفعل ذلك لأنك تختلف مع ما قيل فحسب.

ليس كل ما يبدو على أنه مثال من هذه الفئات في الدليل الميداني يعني أنه حالة للاستعراض، وهذا واحد من الأسباب

التاريخ، باعتبار أن التضحية هي استرضاء للآلهة والأرواح. الغولاغ:
 معسكرات الاعتقال السوڤييتية. (المترجمة)

التي تتيح ألا يكتشف أمره. فيبدو أو يشبه كلامًا أخلاقيًا غيريًا نسبيًا، لكن القناع يسقط أحيانًا. فقد يزعم أحدهم، مثلًا، أن دونلد ترامب أشد قادة العالم لا أخلاقية في السنوات المئة الأخيرة. يحسن القول إن شخصًا كهذا يحاول التبجع بمقدار كراهيته لترامب. ولكن ثمة تفسيرات أخرى مقبولة أيضًا في حالات كهذه. إذ يجهل بعض الناس التاريخ جهلًا كبيرًا، وينغمسون في اللحظة ويغفلون عن الأمور البدهية دون أن يرغبوا بلفت الانتباه. وسيعوز المتفرجون غالبًا المعلومات الضرورية لتقييم التفسيرات البديلة لما يظن المرء أنه فاعله.

وإذ نأمل أن هذا الفصل ساعد القراء على أن يفهموا أكثر ما الخطأ الذي يشوب الخطاب العام، فإننا نود أيضًا أن ننبه إلى عدم وجود اختبار سهل لتحديد الاستعراض. فهو يشبه الكذب كثيرًا، فنحن جميعًا، بصورة أو بأخرى، نعتنق الرأي نفسه في الكذب، واعتنقناه زمنًا طويلًا، ولكن يدرك البعض أيضًا عدم وجود طريقة سهلة -أو موثوقة جدًا- لمعرفة متى يكون المرء كاذبًا. رغم ما تشاهده على التلفاز، فإننا لا نبلي حسنًا لدى استخدام أجهزة كشف الكذب (٢٤٠). وكل موظفي فرض القانون - الذين يتلقون تدريبًا مهنيًا لكشف الكذب بالاعتماد على أسلوب الكلام، ولغة الجسد والتعبيرات المصغرة، نادرًا ما يفوزون في موقف مماثل في الدراسات المراقبة (٢٤٠).

على صعيد مماثل، سيصعب الحكم من مقطع مكتوب أو خطاب واحد بأن الشخص يستعرض، لكن الإشارات الدلالية تساعد في ذلك. فقد تعرف، مثلًا، أن المتحدث عادة يزعم أشياء أخلاقية مثيرة للجدل يقول إنها بدهية لدى أي شخص صالح، ولعلك رأيته كثيرًا ينبري للدفاع عن أكثر المواقف تطرفًا في النقاش. أو يميل إلى إقحام معلومات عرضية عن نفسه في النقاشات الأخلاقية. ومعرفتك بأن أحدهم نرجسي دليل لك أيضًا (33). لكن كل هذه الأدلة ليست كافية، وناقصة كما يجب أن تدرك.

إن تمييز الاستعراض في الآخرين أقبل أهمية بكثير من معرفتنا كيف نتفاداه، كما سنناقش في الفصل الأخير.

الفصل الرابع التبعات الاجتماعية للاستعراض

«لماذا علينا القتال؟... كفوا عن إيلام أمريكا»، ناشد جون ستِوَرت مذيع برنامج ديلي شو مذيعي كروس فاير، البرنامج الحواري على قناة سي إن إن، المعروف بالشد والجذب الحامي الوطيس والعقيم حول النزاعات الراهنة. «إنكم تؤدون مسرحية في حين يفترض أنكم تتناقشون»، واصل ستورت قوله. «إن ما تفعلونه ليس بنزيه، بل إن ما تفعلونه وصولية تحزبية!»(١). يعيب ستورت، باختصار، على كروس فاير أنها تقدم لنا كل تبعات النقاش السياسي- من التباهي بنزاهة الـذات، وتراشق التهم البذيئة، والكثير من مطمطة الحقيقة- دون تحقيق أي شيء من المكاسب. لقد أصاب ظهوره الأسطوري الهدف(٢)، فقد ألغى عرض كروس فاير بعد أشهر قليلة، وتحطمت مصداقيته.

لدى كروس فاير عدد من المشاكل، ولا نريد أن نبالغ في المقارنة بين عيوبه وعيوب الحوارات السياسية والأخلاقية المعاصرة. فالدرس المتعلق بمرادنا هو أن الناس ينتظرون من

الخطاب العام أن يكون مثمرًا، وعندما لا يكون كذلك، فإنهم يستشِفُّون وجود خطب ما. ما نود الإشارة إليه هو أن الاستعراض يؤدي دورًا مهمًا في جعل الخطاب العام مختل الوظيفة، عبر تقديمه تكاليف لا تغطي الأرباح.

لقد بت تدرك، حتى الآن، ماهية الاستعراض، والسبب الذي يدعو الناس إلى الاستعراض، وكيف يبدو ذلك. وقد حان الوقت لننظر بعين النقد إلى تطبيق توظيف الكلام في الأخلاق بغية الترويج للذات.

نظن أن الأغلبية تجد الاستعراض مزعجًا، ورؤية الناس يحولون الخطاب الأخلاقي إلى مشروع للتبجح يثير الغضب. بهذه الصورة، يكون الاستعراض مثل نشر الكثير من صور القطط على الفيسبوك، فالحياة تعج بالإزعاجات الصغيرة، لكنها لا تشكو عيبًا أخلاقيًا.

غير أن الاستعراض أسوأ من كونه مزعجًا فحسب، فهو عادةً سيء من الناحية الأخلاقية وينبغي تفاديه عمومًا، أو هذا ما سنناقشه. وأحد الأسباب التي تجعله سيئًا هو تكلفته الاجتماعية؛ من قبيل الاستقطاب، والسخرية، واستنزاف الحنق. وما دام الاستعراض أضحى أكثر شيوعًا في الخطاب الاجتماعي العام، فمن المنطق توقع زيادة هذه التكاليف.

الاستقطاب

إن كنت تولي السياسة الأمريكية اهتمامًا كبيرًا، فلا بد أنك سمعت الناس يصفون المشهد السياسي الراهن «بالمستقطب». ولعلك رأيت العناوين الرئيسة من قبيل «الانقسام السياسي الأمريكي يزداد اتساعًا» (ذا أتلانتك)، و «الاستقطاب يقسم المجتمع الأمريكي، لا السياسة فقط» (ذا نيويورك تايمز).

استقطاب شيء ما يعني قسمته أو فصله إلى طرفين، وإليك التوضيح. أعطى براندن ابنة أخيه، ليسبب التوتر لأخيه، مئة كرة بلاستيكية مختلفة الألوان مؤخرًا. وعندما رمت هي وبراندن الكرات في الغرفة، انتهى بها الأمر أن غطت الأرض في فوضى عارمة. ولكن لنقل إنها وبراندن أخذا يدفعان الكرات في جانبين متقابلين من الغرفة. في نهاية المطاف، ستكون الكرات مستقطبة في كومتين مرصوصتين متباعدتين.

وجد الباحثون، في العقود الأخيرة، أن الناخبين الأمريكيين قد ازداد استقطابهم في الاتجاهات السياسية والأخلاقية على هذا النحو. وانشغل الليبراليون والمحافظون بعملية التباعد، وأسفرت هذه العملية عن حالنا الراهنة من السياسات المستقطبة.

قد يساعدنا نقاش بعض النتائج التجريبية في فهم ما يحدث.

على امتداد السنوات السبعين الأخيرة، ارتفعت نسبة الأشخاص الذين يزعمون أنهم محافظون أو ليبراليون، أما نسبة الأشخاص الذين يزعمون أنهم معتدلون إيديولوجيًا فقد استمرت في الانخفاض (٣). ويُفرغ الاستقطاب السياسي وسط الطيف السياسي، مثلما فُرّغ وسط الغرفة من الكرات. وعلاوة على السياسي، مثلما فُرّغ وسط الغرفة من الكرات. وعلاوة على ذلك، فإن سياسات الحزبين السياسيين الرئيسيين قد خضعت للاستقطاب، وانتقلت سياسات الحزب الديمقراطي إلى يسار ناخب الوسط، وتحولت سياسات الحزب الجمهوري إلى يمينه (١٠).

كما أثر الاستقطاب بشعورنا وتعاملنا مع بعضنا البعض. ويشير ما يسمى بالاستقطاب الفعال إلى النفور المتعاظم ممن يقفون «على الجانب الآخر». فتزايدت المواقف السلبية لكل من الجمهوريين والديمقراطيين تجاه الحزب الآخر تزايدًا خطيرًا(٥). ووفقًا لدراسة حديثة، ينظر أكثر من أربعين بالمئة من الناس من كل حزب إلى الطرف الآخر «بوصفه الشر بعينه»(٢). ووجدت الدراسة نفسها أن عشرين بالمئة من الديمقراطيين وستة عشر بالمئة من الجمهوريين أشاروا إلى تصورهم «بأن البلاد ستكون أفضل» إن «مات» كثير من أعضاء الحزب المقابل. لعل أكثر ما يثير القلق أن ثمانية عشر بالمئة من الديمقراطيين وأربعة عشر من

الجمهوريين أشاروا إلى إحساسهم بأن العنف مبرر إن فاز الحزب الآخر بالانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٢٠.

لا بد من الإشارة الآن إلى أن بين علماء السياسة جدلًا أكبر حول طبيعة الاستقطاب السياسي وأسبابه (۱). أتسببت به مواقع التواصل الاجتماعي؟ أم الجيرمندرية؟ (أ) أتوجهه النخب الحزبية أم الجماهير؟ يرى بعض الباحثين أن الاستقطاب السياسي ما هو إلا أسطورة في الأغلب (۱). ليست هذه النقاشات ما نود التركيز عليه، لكنها تكفي للقول إن رأي الأغلبية بين علماء السياسة يؤكد وجود الاستقطاب. فاليسار واليمين السياسيان «يتباعدان» حقًا في شأن كيفية تعريف الناخب لنفسه، وسياسات الأحزاب المعنية، ونظرة الأشياع للجانب الآخر. والحق إننا أكثر استقطابًا اليوم مما كنا عليه قبل عقود.

إن أسباب الاستقطاب عديدة ومعقدة، ولن نقدم لها شرحًا تفصيليًا. لكننا نرى أن الاستعراض يزيد في المشكلة. فتوظيف الكلام في الأخلاق لأجل تسويق للذات يجعل الناس يقولون ويؤمنون بأمور تزيد التباعد بينهم.

⁽۱) تعبير مستخدم بكثرة في السياسة الديمقراطية الغربية يشير إلى التلاعب بالحدود الانتخابية بتقسيم مدينة أو ولاية أو قطر إلى مناطق أو دوائر انتخابية مصطنعة لمصلحة الحزب الحاكم أو المهيمن من أجل تأمين فوز الحزب الحاكم في الانتخابات. (المترجمة)

ويرى علماء الاجتماع أنه لدى تداول جماعة من الناس قضايا سياسية أو أخلاقية، ينزع أعضاء الجماعة إلى التحرك نحو وجهات النظر الأكثر تطرفًا(). يسمى هذا «استقطاب الجماعة». وتكمن فكرته الجوهرية أنه عند اجتماع أشخاص في مكان (في حانة، أوعلى الفيسبوك، أو في برامج «حوارية» على قنوات الكيبل) لنقاش مسألة كالإجهاض أو الهجرة، فسيميلون إلى الخروج بآراء أكثر تطرفًا مما كانت عليه حين بدؤوا.

ويحدث استقطاب الجماعتين في صورتين رئيستين. تتجسد الأولى في حركة أعضاء جماعة واحدة في اتجاه على طيف الرأي. تخيل، على سبيل المثال، أنه بعد شيوع إطلاق النار في المدارس، يجتمع أشخاص من الجماعة لنقاش قوانين جديدة لضبط السلاح. ولنفترض أن معظم أعضاء المجموعة يؤيدون ضوابط جديدة منذ البداية، ولكن الجماعة بعد التشاور تميل إلى التحرك نحو دعم حماسي للقوانين الجديدة نفسها(١٠٠)، نسمي هذا الاستقطاب ضمن الجماعة.

يتطلب النوع الآخر من الاستقطاب وجود مجموعتين متفصلتين متباعدتين، إذ ينجذب أعضاؤهما نحو نسخ أكثر تطرفًا من رأي الجماعة الأولى. قد يحدث هذا عندما يتحرك أعضاء من كلتا المجموعتين نحو الأطراف، أو حين تفعل ذلك جماعة

واحدة. تخيل مجموعتين من الأشخاص تشتبكان عند التعليق على منشور فيسبوك، إحداهما تنزع إلى اليمين والأخرى تنزع إلى اليسار. وبعد بضع جولات من النقاش، تلتحم مجموعة واحدة حول الرأي القائل إن الحد الأدنى للأجور المنصوص عليه فدراليًا هو ٢٥ دولارًا في الساعة، لكن الجماعة الأخرى تتجه إلى دعم الرأي القائل إن كل القوانين الضابطة لأجور العمال ظالمة. وفي حالة كهذه، فإن الاستقطاب يحدث ردًا على آراء الجماعة الأخرى، التي قد تظل نفسها، أو تنتقل نحو الحد الأقصى كما في مثالنا. ونسمي هذا الاستقطاب بين الجماعات.

في دراسة حديثة حول استقطاب الجماعة، وجد الباحثون أنه رغم أن مداولات الجماعة تسفر أحيانًا عن استقطاب أفرادها، لكن ذلك لا يحدث دومًا. بل كثيرًا ما تسفر المداولات عن الانسجام؛ إذ ينتهي الأمر بأن تتقارب الآراء أكثر (١١). فإن لم تكن مداولات الجماعة نفسها تسبب الاستقطاب، فما الذي يفعل إذن؟

عرض الباحث القانوني كاس سنستاين تفسيرًا مقبولًا؛ إذ يقول «[ذلك عائد إلى] رغبة المرء في إدامة سمعته ومفهوم الذات عنده»(١٢). لسنا نحب إعلاء شأن أنفسنا من الناحية الأخلاقية فحسب، بل نريد أن يعلي الآخرون شأننا أيضًا، كما مر

بنا في الفصل الثاني. إن الفكرة التي يشير إليها سنستاين إذن، أن أعضاء الجماعة يريدون في المجمل أن يتفوق أحدهم على الآخر، وسينجم عن هذا إسهامات متطرفة في الخطاب الأخلاقي العام. إنهم يفعلون هذا للمحافظة على سمعتهم ومفهوم الذات عندهم بوصفهم أناسًا يثيرون الإعجاب بأخلاقهم، والاستعراض أداتهم لذلك. يبين هذا لماذا يؤدي الاستعراض إلى الاستقطاب عند نقاش الجماعات. ويحتمل حدوث الاستقطاب بخاصة في حالات التكثيف والتلفيق، حيث المنافسة للتفوق على الآخرين تدفع الناس لتبني آراء أكثر تطرفًا. وستساعدنا بضعة أمثلة في شرح كيفية حدوث ذلك.

لنتأمل أولًا كيف يؤدي الاستعراض إلى الاستقطاب في الجماعة. في هذه الحالة، يغير أعضاء الجماعة آراءهم ليؤكدوا من جديد مفهوم الذات عبر التعبير عن آراء أقوى من آراء آخرين في جماعتهم. فلنفترض أنك تتجاذب أطراف الحديث مع تقدميين يماثلونك تفكيرًا، يظن كل واحد منهم أنه يهتم كثيرًا بالفقراء. إن أشار أحدهم إلى أن من الأخلاق أن يكون الحد الأدنى للأجور ١٥ دولارًا في الساعة، فلم لا نرد بأن تحديد الحد الأدنى للأجور بو ٢٠ دولارًا في الساعة سيكون أكثر رحمة؟

يمكن أن يؤدي الاستعراض إلى الاستقطاب بين الجماعات أيضًا إذ يغير الأعضاء من كلتا الجماعتين آراءهم للابتعاد أكثر عن الطرف المقابل. ولعلهم سيخوضون شكلًا من أشكال التنافس داخل جماعتهم، ليروا مَن مِن بينهم الأكثر بغضًا لآراء الجماعة المقابلة، وسيكون الفائز هو صاحب أقوى الآراء المعارضة. يحدث هذا النوع من التنافس عادة في كلتا الجماعتين جملة واحدة.

لنقل إننا محقون في كون الاستعراض من بين أسباب استقطاب الجماعة، وماذا يعني؟ لماذا يكون الاستقطاب عاقبة وخيمة؟ سنتحدث عن الاستقطاب بإسهاب أكثر في الفصل السابع، حيث سنشير إلى إفساد الاستعراض لاحتمال تسوية النزاع. أما الآن، فسنقول إن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض خطر لأنه يقود الناس إلى تبني قناعات خاطئة، ويجعلهم مفرطي الثقة بها.

قناعات خاطئة

يجعل الاستقطاب المدفوع بالاستعراض الناس يحملون قناعات خاطئة عن العالم. قد يتبادر إلى ذهنك أن هذا يحدث لأن الاستقطاب يقود الناس إلى اعتناق (أو لنقل إلى حمل) آراء

أكثر تطرفًا وراديكالية. لكن هذا خطأ. فالآراء المتطرفة أو الراديكالية ليست آراء خاطئة بالضرورة، فقد تكون الكثير من وجهات النظر التي تبدو «راديكالية» صحيحة تمامًا. كما أن أي وجهة نظر تعد «متطرفة» تتغير بمرور الوقت. بصور عديدة، فإن ما يعد «متطرفًا» أو «راديكاليًا» يعتمد على ما يعد مسبقًا «معتدلًا» أو «طبيعيًا». فقد كانت فكرة الزواج المثلي الذي أقرته الدولة ستعد راديكالية لدى معظم الغربيين قبل مئة عام، لكنها ليست كذلك اليوم. لذا فإن دعوانا لا تلمح إلى أن الاستعراض يؤدي إلى اعتناق الناس قناعات خاطئة، لأنه يدفعهم إلى اعتناق آراء راديكالية أو المجاهرة بها.

بل إن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض يؤدي إلى اعتناق الناس قناعات خاطئة بسبب الدوافع الكامنة في الاستعراض التنافسي. لنتذكر أن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض يتضمن عادة التكثيف والتلفيق. ولكن لاحظ أن هاتين ليستا طريقتين موثوقتين لكشف الحقيقة. إن ما يدفع المستعرض إلى تبديل رأيه أو موقفه المعلن هو غالبًا الرغبة في الحصول على مكانة بارزة ضمن جماعة. لذا فإن المحرض المباشر ليس الكف عن تغيير قناعاتك أو آرائك المعلنة حالما تصل إلى الحقيقة، أو أيًا كان الرأي المدعم بالأدلة. بل ما يحرضك على التوقف هو فقدان الرأي المدعم بالأدلة. بل ما يحرضك على التوقف هو فقدان

الرأي الأكثر تطرفًا القدرة على إثارة إعجاب الناس الذين تستهدفهم. وستتجه هذه المحرضات على الأرجح اتجاهات مختلفة. تذكر حديثنا عن مدى تشابه الاستعراض بسباق التسلح في الحرب الباردة، إذ لم يحاول السوڤييت والأمريكيون تكديس العدد المناسب للرؤوس النووية فعليًا (أيًا كان معنى ذلك). وعلى نحو مماثل، فإن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض لن يسفر عن معرفة الحقيقة في الأخلاق والسياسة.

قد يبدو هذا واضحًا، غير أن عددًا من الأمثلة ستساعد في توضيح السبب الذي يجعل الاستعراض طريقة غير موثوقة للوصول إلى الحقيقة. شرع عديدون في التكثيف والتلفيق، ومن ثم الكذب، بغية أن تنظر إليهم شبكاتهم السياسية والاجتماعية الأثيرة على أنهم أشد المعارضين للرئيس ترامب. لا يكفى استنكار رئاسة ترامي بالقول إنها تفتقر للكفاءة بشدة وأنها رجعية من الناحية الأخلاقية. بل لا بد من القول إنه أسوأ رئيس على الإطلاق(١٣). ليست هذه الظاهرة فريدة من نوعها في زمن ترامب طبعًا، فقد كان باراك أوباما أسوأ رئيس على الإطلاق(١١)، ومـن قبلـه جـورج. و. بـوش(١٥). وقد لا يكـون بل كلنتن «أسـوأ رئيس عرفته الدولة، ولكنه أسوأ شخص تولى الرئاسة»(١٦). أثناء نقاش قانون الحزب الجمهوري لمقترح خفض الضرائب وقانون العمل عام ٢٠١٧، وصفت عضوة الكونغرس نانسي پيلوسي طرح القانون للتداول بوصفه «أسوأ قانون في تاريخ كونغرس الولايات المتحدة ١٧١١). وحين ألح عليها مراسل صحفي لتعيد النظر في تصريحها، زايدت پيلوسي وقالت: «كلا، إنها نهاية العالم. إن النقاش الدائر حول قانون الرعاية الصحية مسألة حياة أو موت. هذه أرماغدون(أ) (١١٨). لا يكفيها أن تقول إن بعض ما في قانون الضرائب جيد وكثيره سيء، وهو في مجمله سيء. [بل قولها] «سيخفف القانون عبء الضرائب عن البعض، لكنه سيزيد الدّين العام زيادة عظيمة، إلى جانب أنه متساهل للغاية مع الشركات» هو موقف بالغ الحساسية لاختبار النقاء. لا بدأن يكون القانون مثيرًا للاشمئزاز، فظيع، بغيض! وأنى للناس أن يعرفوا مدى جديتك أخلاقيًا في معارضتك؟ إن كانت پيلوسي ترمي إلى بيان نقائها الأخلاقي لمؤيديها، فقد نجحت. أما إن كان هدفها اتخاذ ردة الفعل المناسبة على قانون سيء، فقد بالغت كثيرًا. أيعـد قانـون الضرائب الـذي اقترحه الحـزب الجمهوري

⁽أ) وفقا لسفر الرؤيا هو موقع تجمع الجيوش للمعركة متى يحين وقت النهاية. كما يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى أي سيناريو يشير إلى نهاية العالم بشكل عام. (المترجمة)

أسوأ من قوانين الغرباء والفتنة (١٧٩٨) التي جرّمت انتقاد حكومة الولايات المتحدة؟ أو قانون إبعاد الهنود الحمر (١٨٣٠)، الذي أدى إلى الإبعاد القسري لقبائل الهنود من جنوبي الولايات المتحدة؟ أو قانون العبد الهارب (١٨٥٠) الذي يعيد إلى الاسترقاق العبيد الفارين إلى أراضي الحرية؟ أو قانون الوطنية [أو قانون مكافحة الإرهاب] (٢٠٠١)، الذي يزيد صلاحيات السلطة التنفيذية على حساب الحريات المدنية؟ يبدو هذا غير معقول. إننا نكتب هذا بعد مرور عامين على إقرار قانون الضرائب، ولم ينته العالم. قد ترد پيلوسي قائلة إنها كانت تبالغ فحسب. ولكن هذا ما نرمي إليه.

إن الكثير من الغلو في الخطاب العام يدفعه رغبة المرء أن ينظر إليه بأنه صاحب أرفع الخصال الأخلاقية، في محيط شبكته الاجتماعية المقربة على الأقل. ولا يتبع هذا النوع من الاستقطاب درب الحقيقة، فالآراء المتطرفة التي انتهي إليها عبر التكثيف والتلفيق ليست دقيقة على الأرجح. وإن كانت كذلك، فسيكون ذلك ضربة حظ ضد كل المجريات. الموسوعي الفرنسي غوستاف لوبون في عمله الشهير المتأخر في القرن التاسع عشر حول سيكولوجية الجماهير، رأى السبب الذي يجعل محاولة إثارة إعجاب الآخرين لا

يؤدي إلى الحقيقة. فكتب قائلًا: «لا يمكن تحريك الجماهير والتأثير عليها إلا بواسطة العواطف المتطرفة... ينبغي [على الخطيب] أن يبالغ في كلامه ويؤكد بشكل جازم ويكرر دون أن يحاول إثبات شيء عن طريق المحاجة العقلانية، وهذه هي الطريقة التي يستخدمها الخطباء في الملتقيات الشعبية (أ) (١٩).

ندفع جميعًا أثمانًا باهظة عندما يعتنق الناس قناعات خاطئة في شؤون السياسة والأخلاق. ويصدق هذا تحديدًا في الأنظمة الديمقراطية، حيث يقرر ملايين الناس مَن يحكمنا(٢٠). يصدق نصف الأمريكيين على الأقل نظرية المؤامرة(٢١). ففي عام ٢٠١٧، استمر نصف الجمهوريين في تصديقهم بأن باراك أوباما ولد في كينيا(٢٢). ولا يحمل كثير من الأمريكيين آراء خاطئة عن الجانب الآخر فقط، بل عن أنفسهم أيضًا(٢٣)، فالديمقراطي العادي يظن أن ٤٤ بالمئة من الجمهوريين يجنون ٢٥٠٠٠٠ دولارًا في العام، وقدّر الجمهوريين النسبة بـ٣٣ بالمئة. أما في الحقيقة، فلا يجنى هذا المبلغ من الجمهوريين إلا ما نسبته ٢ بالمئة فقط. ويظن الجمهوري العادي أن ٣٨ بالمئة من

⁽۱) سيكولوجية الجماهير، لوبون ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقى الطبعة الأولى ١٩٩١، ص٧٥. (المترجمة)

الديمقراطيين مثليون (ذكورًا وإناثًا) أو ثنائيو الجنس. وقدر الديمقراطيون نسبة هؤلاء بينهم بـ ٢٩ بالمئة. لكن الرقم الحقيقي كان ٦ بالمئة (٢٠٠). يعود هذا النوع من الآراء الخاطئة الواسعة الانتشار في جزء منها إلى الاستعراض إلى امتلاء اليمين بالأثرياء البدينين، وامتلاء اليسار بأشخاص لا يمتثلون لمعايير الأخلاقيات الجنسية التقليدية. ويؤثر الاستعراض في نهاية المطاف بنظرة الناس لا إلى الطرف الآخر فحسب، بل في نظرتهم إلى أنفسهم أيضًا.

يستنتج الباحث القانوني إيليا سومن في دراسة حديثة كبيرة بأن «الجهلَ السياسي واسع النطاق مشكلةٌ خطيرة على الديمقراطية»(٢٥). كيف نحسب أن بوسعنا التشاور والتفكير بأفضل الطرق لحل المشكلات التي تواجهنا، إن كان الواقع بعيدًا عن متناول أيدينا؟ كما أن تصحيح الرأي السياسي الخاطئ ليس بالأمر السهل. فقد أظهرت الدراسات أن تصحيح الآراء الخاطئة في الخاطئة في السياسة أصعب من تصحيح الآراء الخاطئة في الأمور الصحية (٢١). ثمة الكثير من الأسباب، بطبيعة الحال، وراء اعتناق الناس آراء خاطئة، لكن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض واحد منها، وسندفع كلنا ثمنه.

فرط الثقة

ما يزيد الأمور سوءًا، أن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض يشجع الناس أيضًا على الثقة المفرطة بآرائهم، جاعلين هذه الآراء عصية على التصحيح أكثر.

لنقل إنك شاركت في حوار حول ضبط السلاح، حيث يوافق الآخرون على التشريع الذي يقصد منه جعل الحصول على السلاح قانونيًا أمرًا صعبًا. ولنقل بوجود قليل من الاستعراض إذ يحاول البعض إظهار اهتمامهم العميق بالحفاظ على أمن الأطفال. فنتوقع أن آراء الجماعة ستنزع إلى التحرك نحو الحد الأقصى، لدى دفاع مزيد من الأشخاص عن إبطال التعديل الثانى، مثلًا(أ).

تجري أحاديث مماثلة، بطبيعة الحال، على الجانب الآخر في مسألة السلاح. إذ يتحرك مؤيدو حيازة السلاح نحو الرأي

⁽۱) «حيث أن وجود ميليشيا حسنة التنظيم ضروري لأمن أية ولاية حرة، لا يجوز التعرض لحق الناس في اقتناء أسلحة وحملها»، التعديل الثاني على دستور الولايات المتحدة، حول أميركا؛ دستور الولايات المتحدة الأمريكية مع ملاحظات تفسيرية، صادر عن وزارة الخارجية الأمريكية مكتب برامج الإعلام الخارجي/ ٢٠٠٥، ص٣٣. (المترجمة)

الأكثر تطرفًا أيضًا، منتهين إلى أننا إن أردنا حماية التلاميذ من إطلاق النار، فلا بد من تسليح المدرسين.

يميل هذا النمط من الحوارات إلى دفع المشاركين النشطين في الخطاب العام إلى تبنّي أحد رأيين: إما الرأي التقدمي الذي يرى وجوب إبطال التعديل الثاني، أو الرأي المحافظ الذي يرى وجوب تسليح المدرسين.

لنقل إنك تميل إلى الجانب التقدمي في مسائل من قبيل ضبط السلاح. فالحق أن اعتناق «الجانب الآخر» رأيًا شديد التطيرف مختلفًا عن رأيك سيبدو برهانًا على أن جانبك هو الجانب العاقل. إن كان البديل الصالح الوحيد الذي يدافع عنه متطرفًا جدًا، فهذا يؤكد لك أن رأيك هو الصواب، وهو الخيار الوحيد المقبول على طاولة الحوار. وكلما كنتَ إلى طرف أقرب منك إلى الآخر، ازددتَ ثقة بأن رأيك صحيح. ولكن طبعًا، إن كان ذلك الاستقطاب الذي تراه مدفوعًا بالاستعراض، فلا يجدر بـك أن تكون شـديد الثقة. وإن كان رأيـك والرأي المعاكس هما نتاج الاستقطاب المدفوع بالاستعراض، فإن هذا ليس بسبب يجعلك أكثر ثقة بأنك على حق. بل على العكس، عليك أن تكون أقل ثقة للسبب الذي شرحناه آنفًا؛ أي أن الاستقطاب المدفوع بالاستعراض يؤدي إلى تبنى آراء خاطئة.

تظهر الدراسات أن كثيرًا منا يثق بآرائه الأخلاقية والسياسية أكثر مما يجدر به (۲۷). ولكن إن كان الكثيرون مفرطي الثقة بآرائهم، فقد يكلفنا هذا اجتماعيًا. وحين يكون هؤلاء الأشخاص مخطئين، فإن إقناعهم بخطئهم أصعب، وسيصعب عليهم رؤية مواطن الضعف في آرائهم. أن يكون المرء مفرط الثقة فالاحتمال أقل بأنه سيبحث عن المعلومات التي تفند قناعته، كما سيصبح أكثر ميلًا لنبذ الآراء المعارضة سلفًا.

السخرية

عد بذاكرتك إلى الوقت الذي بدأ فيه اهتمامك بالشأن العام. إن كنت مثلنا، فقد كنت سريع التصديق. ولعلك صدقت التصريحات المعلنة المصوغة بمهارة دون تمحيص، أو صدقت بل كلنتن حين هز إصبعه وقال إنه لم يخض علاقة جنسية مع تلك المرأة. وإن بدأت مؤخرًا في متابعة الأخبار، فلا بدأتك رأيت تصريح هارڤي واينستين الذي أوردناه في الفصل الأول، وقلت في نفسك: "هي، إن هذا الرجل يهتم بأمر النساء حقًا». ولكن تخيل أن تعرف السبب الذي دعاه إلى الإدلاء بذلك ولكن تخيل أن تعرف السبب الذي دعاه إلى الإدلاء بذلك تعرف بأمر تبرعه بالمال وتحوله إلى نصير جريء للقضايا النسوية تعرف بأمر تبرعه بالمال وتحوله إلى نصير جريء للقضايا النسوية

لسنوات. إن كان هذا في رأيك حدثًا تقويميًا، فقد ينتهي بك الأمر إلى الظن بأن حديثه السابق في الفضيلة ليس إلا ستارًا، أو لعله شيء أحس بضرورة قيامه به لينال الثناء لأنه شخص يستحق احترام أعيان هوليوود. وأيًا كان السبب، فستصعب مقاومة ميل المرء للتطرق إلى شيء من السخرية.

يولد الاستعراضُ السخرية من الكلام في الأخلاق، ويؤدي إلى الشك وزوال الأوهام حول صدق إسهام الناس في الخطاب الأخلاقي. يحدث الاستعراض لأن المرء يريد أن يرى الآخرون أنه من الملائكة. وعندما يدرك المراقبون ما يزمع المستعرض فعله يبدؤون في رؤية أن الخطاب الأخلاقي لا يهدف إلى نشر العدالة مطلقًا. بل قد يظهر الخطاب الأخلاقي قناع جعل العالم مكانًا أفضل، لكنه في نظر العديدين ليس إلا تعزيزًا لخصالك الحميدة.

وفقًا لباحثي الاتصالات ماساهيرو ياماماتو وماثيو كوشن، فإن «استهلاك المعلومة السياسية على وسائل التواصل الاجتماعي يزيد السخرية والنفور» (٢٨٠). تولد بعض أشكال وسائل الإعلام السخرية أيضًا. إذ اكتشف الباحثان جوزف كاپيلا وكاثلن هول جامِسن، في كتابهما دوامة السخرية، رابطًا إيجابيًا بين «الأخبار الاستراتيجية» والسخرية من السياسة والسياسيين القدم كثير من الأخبار السياسة على أنها مباراة، والسياسيين متبارين يحاولون الخروج بالقانون الأكثر جذبًا. واستهلاك هذا النوع من الأخبار يجعل المرء ساخرًا من فكرة السياسة برمتها، وبخاصة لأن هذه هي الأخبار التي يشوبها الكثير من الاستعراض (٢٠٠). يمنحك كل الاصطفاف والحنق والتلفيق وإظهار العواطف القوية والتنحية شعورًا لا يسعك التخلص منه؛ إذ يلجأ الكثيرون إلى الكلام في الأخلاق ليظهروا بمظهر المتفوقين أخلاقيًا، ويعززوا مكانتهم الاجتماعية داخل جماعة، ويهيمنوا على من يُفترض أنهم أدنى منهم أخلاقيًا.

لا بد من التوضيح بأن ما نود قوله إن النفاق الأخلاقي (كما في مقال هارڤي واينستين) لا يؤدي إلى السخرية فحسب، رغم صحة هذا قطعًا. لكن ما نرمي إليه أكثر تعقيدًا. فحين يرى المرء لجوء الآخرين كثيرًا إلى الكلام في الأخلاق بغية إثارة إعجاب الاخرين مثلما يحدث حين الاستعراض فهذا يمنح المرء سببًا وجيهًا للشك في صدق هذا الكلام عمومًا. فلماذا يتعين علينا أخذ كلامك الأخلاقي المتسم بالنزاهة على محمل الجد إن كان هذا النوع من الكلام عادة ليس إلا ترويجًا لشخصك؟

لاحظ أن الآخرين لا يحتاجون بأن يعرفوا يقينًا أن المرء يستعرض لتكون سخريتهم منطقية. أجل، تجعل بعض الحالات الفردية من الاستعراض البدهي ذي الأسباب الوجيهة الناس يرتابون بالكلام في الأخلاق. لكن الحقيقة أننا نعرف أن الاستعراض موجود ويصعب اكتشافه في الآن نفسه يجعلنا نسخر عامدين من هذا الكلام عمومًا.

يعود جزء على الأقل من ردة الفعل هذه إلى تحيز معرفي سمّاه عالما النفس جستِن كروجر وتوماس غيلوڤتش «بالسخرية الساذجة» (۱۳). وهذا تحيز يقودنا إلى التوقع بأن الآخرين مدفوعين بالتمركز على الذات أكثر مما هم كذلك حقًا.

قد يتجلى أقوى آثار السخرية الساذجة لدى تقييمنا لمن نخالفهم الرأي. فقد كتبت عالمة النفس إلينور وليمز «نميل إلى السخرية الساذجة تحديدًا حين يكون للشخص الآخر فائدة مكتسبة في التقييم المنتظر، ولكن إن كان ذلك الشخص مراقب موضوعي، نتوقع أنه/ عها يرى أمورًا لا نراها (أي يرى الأمور على حقيقتها)»(۲۲). وقد يفسر لنا هذا السبب في كشف الاستعراض سريعًا في أشخاص بعينهم، أما ذوو الآراء المماثلة لآراء المستعرض الواضح يصرون على عدم رؤيتهم له. فنحن

نميل إلى الظن بأننا قادرون على كشف الدوافع الأنانية في خصومنا السياسيين أكثر من الذي يوافقوننا الرأي (٣٣).

لماذا نرى أن السخرية من الكلام في الأخلاق أمر سيء؟ صحيح أنه ليس لكل حالات السخرية عواقب وخيمة، فالسخرية من المعالجين بالإيمان وخطط التسويق متعددة المستويات ستجنبك شيئًا من الإزعاج. نحن لا نذهب إلى أن الاستعراض أمر سيء لأنه يؤدي إلى السخرية، وللسخرية دومًا عواقب وخيمة. بل إن ما نرمي إليه أن السخرية المدفوعة بالاستعراض لها أثر سيء للغاية؛ إذ تحط من قيمة انتشار الكلام الأخلاقي في المجتمع. وتبعًا لذلك، ينظر إلى هذا الكلام على أنه أمر كريه؛ فهو ميدان قتال لأناس يحاولون إثبات أنهم على الجانب الصحيح من التاريخ. ولكننا بالحط من شأن الكلام الأخلاقي نعده أداة أقبل نفعًا لتحقيق أهداف أهم من التسويق للسمعة. ولانتشار السخرية من الكلام في الأخلاق تبعة نتحملها كلنا لأن بعض الناس يحاولون الظهور بمظهر الأخيار.

نحن بحاجة لوسيلة نتحاور بها عن المسائل الأخلاقية والسياسية المهمة. عندما يكون للناس مخاوف أو شكاوى أخلاقية، فإننا نريد أن ينجح الخطاب العام في جعل الناس يأخذون هذه المخاوف على محمل الجد. ويؤكد انتشار السخرية

أن الكلام الأخلاقي يحرض على التأفف أكثر من عقد الحاجبين، ولأن الاستعراض يؤدي إلى السخرية، فإنه يفسد فاعلية هذا الكلام على هذا النحو تحديدًا.

أشرنا إلى أن الاستعراض أمر سيء لأنه يثير سخرية الناس من الكلام في الأخلاق. ولكن قد يعترض أحدهم قائلًا إن هذا الكتاب أيضًا سيجعل الناس أكثر سخرية من هذا الكلام. لكننا نلفت النظر إلى الاستعراض ونبين مدى انتشاره، أفلن يكون الناس أكثر سخرية من بعد قراءة هذا الكتاب؟ ألا يعني هذا أن الكتاب سيء أيضًا، وتأليفه خطأ أخلاقي؟ أنحن جزء من الكتاب سيء أيضًا، وتأليفه خطأ أخلاقي؟ أنحن جزء من المشكلة التي وددنا تشخيصها؟ لنسم هذا اعتراضًا منافقًا؛ قال توزي وورمكي إن تحريض السخرية من الكلام في الأخلاق أمر سيء، فلماذا يحق لهما فعل ذلك؟

ثمة أسباب قليلة تظهر أن هذا الاعتراض عقيم. لنقل إنك ترى الكذب خطأ لأنه كلما كذب الناس أكثر ازدادت سخريتهم من التواصل. أنخطئ إن نقلنا إلى الآخرين قلقنا من الكذب؟ كلا بالطبع. بل إن أحد النقاشات حول الكذب التي يعرضها الفيلسوف البريطاني جون ستورت مِل في القرن التاسع عشر في كتابه النفعية يصف الميل إلى الكذب بأنه يضعف «نزاهة قول الإنسان» (٣٤). أكان مِل منافقًا؟ أو انظر المقالة الشهيرة للفيلسوف

هاري فرنكفورت «عن الكلام الفارغ»، إذ قال فرنكفورت إن الهراء -بمعنى عدم الاهتمام بصحة ما تقوله أو كذبه - يتداخل عادة مع الكلام حول أشياء يؤمن الناس بصدقها (٥٣٠). أكان فرنكفورت منافقًا إذ شرح الكلام الفارغ، وكشف سبب انتهائه إلى السخرية؟ إن كنا منافقين، فلسنا وحدنا كذلك.

وقد يقال ردًا على ذلك إن نقاش مِل وفرنكفورت ليس سيئًا مثل نقاشنا، لأن الجميع يعرف الكذب سلفًا، ومعظمنا يعرف الكلام الفارغ. ولكن ما دام الاستعراض ليس معروفًا جيدًا بصورة ما، فقد يتسبب كتابنا بضرر أكبر. لسنا واثقين من صحة هذا. بعد إقلاقنا معظم الأشخاص الذين التقيناهم على مدى السنوات الماضية بأمر الاستعراض، فإننا نظن أن معظم الناس يعرفونه. كما يدركون انتشاره، ويواصلون وصف سلوك أحد أصدقائهم على الشبكة دون خطأ. أما الذي لا يبدو أن الناس يدركونه، فهو الحقيقة أن كثيرًا من الآخرين قد فكروا بالاستعراض أيضًا.

نحن نسلط الضوء على فكرة الاستعراض، ونناقشها نقاشًا صارمًا، ونتيح للناس أن يعرفوا أنهم ليسوا الوحيد في ضيقهم منه. ولكننا ندرك أن مفهوم الاستعراض سيكون جديدًا تمامًا على البعض، وقد يصبحون أكثر سخرية عقب ذلك. لكن هذه

الحفنة الحديثة على السخرية ليست كبيرة لدى مقارنتها بالعدد الهائل من الأشخاص الذين اتخذوا السخرية بعد شيوع ظاهر الاستعراض. إن كان لكتابنا من أثر، نحسب أن نصيب الأسد منه سيكون في توضيح نظرة الناس إلى الاستعراض ونشرها. وعاقبة هذا المُخرَج ستكون أكثر إيجابية بكثير من انتشار السخرية فحسب.

قد يكون كل هذا صحيحًا، ولكننا نظل منافقين. ورغم ذلك، فقد رسخ نقاشنا افتراضًا أخلاقيًا قويًا ضد الاستعراض، وهذا مبتغانا. أما كون الاستعراض يؤدي إلى السخرية أو لا يفعل، فقد ذكرنا أنه يفعل. وإن أردت تفنيد رأينا فعليك إثبات أن الاستعراض لا يؤدي إلى السخرية. إن أخلاق المؤلفين أو الكتاب أمر آخر، رغم أن هذين الموضوعين عرضة للنقد بطبيعة الحال. لكننا نقصد أنها مسألة أخرى لا تمت إلى نقاشنا بصلة.

سمعنا ذات مرة قصة، منحولة على الأرجح، عن فيلسوف يلقي خطابًا عامًا قاطعه رجل مسلح، بتسديده طلقات طائشة نحو الفيلسوف. وبعد أن اعتدل الفيلسوف من انحناءته الوقائية قال: «حتى بقتلك إياي ما كنت لتدحض شيئًا من حججي». ونحن إن كنا منافقين، فليس لهذا علاقة بصحة نقاشنا.

تبعة الغضب الموجّه بالاستعراض

يملك كل من عنده اتصال بشبكة الإنترنت فعليًا منصة يعبر بها عن غضبه في الحال لمئات أو آلاف الناس. بوسعك، عبر تعبيرك عن الغضب بهذه الصورة، أن تبلغ شيئًا عن نفسك كأن تبين رهافتك الأخلاقية، أو اهتمامك بالعدالة – بقدر استعدادك لتقبّل تبعة إظهارك الغضب. يعرف المستعرض كيف يوظف عواطفه توظيفًا مدروسًا لإظهار صورة ذاته المثيرة للإعجاب أخلاقيًا، كما رأينا في الفصل الثالث. وثمة ثلاث طرق مختلفة لكنها متلازمة يمكن أن يؤثر توظيف الحنق للاستعراض فينا تأثيرًا سلبيًا.

مشكلة صيحة الذئب (التحذير من خطر وهمي)

إن التعبير عن الحنق والانفعالات القوية الأخرى أمر حسن بصورة ما. فقد يكون التعبير عن الغضب فعالًا في تعيين الأمور السيئة في العالم، وتحفيز الناس على تعيينها. ولكن إن أردنا الحفاظ على فعاليته، تعين علينا حمايته. وإلا بدا إظهار الحنق جعجعة، لدى توظيف الحنق لمساعدة الناس على إدراك خطورة خطأ أمر ما.

لا يعمد المستعرض إلى حماية الغضب، بل إنه يسيء إليه. فكل شيء في نظر المستعرض سبب للحنق، من قاعات الطعام في الكلية التي تقدم طعامًا صينيًا، إلى أداء باراك أوباما التحية العسكرية وهو يحمل كوب القهوة. كل شيء يمكن أن يكون مناسبة لإظهار نقاء المرء الأخلاقي.

يحط الحنق الموجه بالاستعراض من قيمة التعبير عن الغضب عمومًا. فالغضب يشبه علمًا أحمر ينبّه المراقبون إلى وجود خطبٍ ما إن استخدم استخدامًا ملائمًا. ولكن الاستخدام العشوائي له يوهن قوته في تعيين الأمور السيئة في العالم تحديدًا. لدى إغراق الخطاب العام بالغضب من شكاوى ثانوية، وخيارات أخلاقية فرادية، وقضايا مفضلة لأن أحدهم يود إظهار مدى حساسيته الأخلاقية، فإن مغزى العلم الأحمر يُجرّد من قيمته (٢٦).

لا يتحدث المعجمي والمحرر المستقل السابق لقاموس أكسفورد، جِسي شايدلور، عن الغضب بقوله: «لكن ليس فيها الحدة التي احتوتها من قبل. يرى الشباب أنها تفتقر إلى القوة المناسبة لهم»(۲۷). بل يتحدث عن كلمة «تبّا». لقد أضعفت قوة الكلمة، لماذا؟ لفرط استعمالها. يوضح الصحفي جويل آتشنباخ:

ينبغي لنا ألا نفرط في استغلال الكلمات النابية التي تشكل جزءًا من مشاع لغتنا. لكنها مشاع للبالغين فقط بطبيعة الحال. لا بد من إخبار الأطفال بأنه لا يسمح لهم استخدامها، فكيف لفتى في الثالثة عشرة من عمره أن يكون سوقيًا بإفراطه في استخدام الكلمة، إن كانت أخته التي تبلغ من العمر خمسة أعوام تستخدمها؟ يفترض أن تكون هذه الكلمة مكافأة بلوغ سن الرشد، علينا أن نحميها ليتسنى لأولادنا وحفدتنا استخدامها حين نكون في عداد الغابرين» (٢٨).

قد لا ترى أن حماية كلمة «تبًا» تنطوي على قيمة كبيرة. لكن ما نرمي إليه أعم؛ أي إن الاستخدام العشوائي للعلامة يؤدي إلى الحط من قيمتها.

هذه مشكلة صيحة الذئب، وقد استوحي اسمها من إحدى خرافات إيسوپ الذائعة الصيت. إذ يخدع صبي أهل قريته فيوحي لهم أن ذئبًا هجم على خرافه. فيهبون لمساعدته، ولكنهم لا يجدون ذئبًا. يفعل الفتى ذلك المرة تلو الأخرى، ولما هدد الذئب قطيع الصبي حقًا، تجاهله أهل القرية، فأكل الذئب

خرافه (۲۹). حين تنتشر صيحات الحنق، كيف لنا أن ننتظر من الناس معرفة الوقت الذي يكون الخطر فيه محدقًا فعلًا؟ وحين نرى أحدًا ينظر إلى الاستحواذ الثقافي لقاعة الطعام في الكلية، بالمستوى نفسه من الحنق الذي يرد به على وحشية الشرطة، يصعب علينا تصديق أن إحساسه بالحنق يعقب شيئًا ذا أهمية. لقد صاح هذا الشخص صيحة الذئب عمليًا. من جهة أخرى، إن كنا انتقائيين في التعبير عن الغضب فإننا نحميه لأنه وسيلة لتعيين ظلم كبير. وإن كنا نتجنب توظيف الحنق لتسويق للذات، فإننا نحفظ قوته من أجل أهداف أهم.

سيختلف العاقلون، بطبيعة الحال، حول ما يستحق الحنق. وإن اتفقوا في ذلك، فسيختلفون في المقدار المناسب من الحنق. بعبارة أخرى، ندرك أن ردود الفعل الحانقة الملائمة متراوحة، وتتبدى أحيانًا بعدم الإتيان بردة فعل على الإطلاق. لكننا نظنك توافقنا في أن تعرّض الإشارة التي يرسلها الحنق للضعف أمرسيء، ومرادنا القول إن الاستعراض يُضعف تلك الإشارة.

لك الخيار إذن. إما أن تجذب ما شئت من الانتباه عبر الاستعراض بمقدار حنقك، لكنك إن فعلت ذلك تغامر بتجريد حنقك من قدرته على تمييز الظلم. وإما أن تحفظ غضبك لوقت يحقق فيه خيرًا أخلاقيًا.

استنزاف الحنق

حين يكتسح الخطاب العام مظاهرُ متواصلة للحنق، يعاني الناس- المشاركون والمراقبون على حد سواء- من استنزاف الحنق. ويحدث هذا عندما يفرط الناس في الإحساس بالحنق، أو عندما يكونون عرضة له دومًا. وتبعًا لذلك يفقدون الإحساس بما يثير الحنق حقًا، ويعجزون عن حشد الغضب عندما يكون ذلك مناسبًا.

نختبر انفعالات بدرجات مختلفة من الشدة. إما أن نغضب وإما ألا نغضب، وبعد أن يثير حدثٌ ردة فعل انفعالية — سلبية كانت أم إيجابية — فإن قوة الانفعال لا تبقى ثابتة، بل تخفت بمرور الوقت، ما لم تشر أمور أخرى ردة فعل مماثلة (١٠٠٠). إن تعرّض الناس لحافز مثير تعرضًا مستمرًا، فذلك يؤدي إلى تقليل أثر الحافز المماثل في المستقبل. ويسمي علماء النفس هذا بالاعتياد (١٠٠٠). عندما يمر كثيرون منا بالانفصال [العاطفي] الأول، نبكي مع بطل غوته الشاب ڤرتر إذ «فقدنا سحر الحياة الأوحد» (٢٤٠).

ولاعتيادنا المحفز الانفعالي، فإن الأمر ينتهي بالذين ينخرطون في دوائر الغضب باستمرار بأن يغدو تأثرهم أقل بما كان يثير غضبهم للغاية. لذا فإن المحاولات المستمرة لتعزيز الغضب تخفق على المدى الطويل، إذ نكف عن رؤية آخر ما أثار سخطنا مستحقًا للغضب. أي يستنزف الغاضب باستمرار في نهاية المطاف قدرته على الاستجابة بالغضب. إن استعادة المرء قدرته على الاستجابة بالغضب محفزًا هامًا في قدرته على الغضب ضرورية إن كان الغضب محفزًا هامًا في أوقات الظلم الصريح. والغضب الموجه بالاستعراض يفضي إلى اعتياد غير مفيد، ومن ثم يُفقد المرء قدرته على الإحساس بما يستحق الغضب حقًا.

إليك طريقة أخرى للنظر إلى العملية المؤدية إلى استنزاف الغضب. تذكر أننا ناقشنا في الفصل السابق استنتاجًا يذهب إلى سعي المرء إلى الغضب الأخلاقي لأنه يشعره بأنه أكثر فضيلة (٣٤). لكن فعل هذا خطر، فكلما استهلكنا مزيدًا من الغضب، كف عن إرضائنا في نهاية الأمر. بعبارة أخرى، قد يتبع الغضب قانون تقليل المنفعة الحدية (أو المنفعة النهائية]؛ فكلما ازداد حصولك على سلعة ما، قلت القيمة التي تستمدها من وحدة

⁽i) هي منفعة الوحدة الأخيرة أو الوحدة التي تشبع أقل الحاجات، بحيث يمتنع الشخص-عند الوصول إليها- عن طلب وحدات إضافية جديدة من ذلك الشيء (سلعة أو خدمة)، إما لأن المنفعة منها تنعدم أو لأنه يفضل إشباع حاجات جديدة. (المترجمة)

إضافية من تلك السلعة (٤٤). فإن كنت تعيش، مثلًا، في فقر مدقع، فإن دولارًا إضافيًا سيكون في نظرك مبلغًا عظيمًا. ولكن الدولار الإضافي لن يعني لوارن بافت شيئًا. كذلك، فإن الشريحة الثانية من البيتزا أقل لذاذة من الأولى، والثالثة أقل فأقل، وهكذا. فتصل إلى نقطة الإشباع وتفتر، بل لعلك تنفر من تناول قطعة بيتزا أخرى. على نحو مماثل، يكف الغضب عن إرضاء الذين يبحثون عن الغضب ليشعرهم أنهم أخيار. ويكمن الخطر، حينئذ، بأن المرء يفقد رغبته بالشعور بمزيد من الغضب، حالما يشبع توقه إلى التعزيز الذاتي الأخلاقي عبر اللجوء إلى الغضب(١٤٠). ومع ذلك، وكما أكدنا، إن الشعور بالغضب والتعبير عنه مفيد في معظمه على صعيد المجتمع. أما الذين حصلوا على كفايتهم من الغضب ليشعروا أنهم أخيار، فسيواجهون صعوبة في تحفيزه إن دعت الحاجة.

قد يمنعنا استنزاف الغضب أيضًا من التصرف بناء على غضبنا. فقد أظهر إرنست فهر وزملاؤه في سلسلة من الدراسات أن المشاركين إن شهدوا سلوكًا متعسفًا، فسيدفعون حقًا ليعاقب الفاعل، وإن لم يكونوا هم ضحية ذاك السلوك^(٢٤). وكلما زاد دفعهم في ذلك، نال ضحيتهم عقابًا أكبر. وأجرى الاقتصاديان ديـ قد دكنسن وديـ قد ماسكلت تنويعًا مثيرًا على هذه التجارب،

إذ شهد المشاركون في دراستهما سلوكًا متعسفًا كما حدث في دراسات فهر. ولكن قبل أن يتاح لهم خيار الدفع لعقاب المسيء، مُنحوا الفرصة للتنفيس عن غضبهم (٧٤). والمثير في الأمر أن الذين نفسوا عن غضبهم عاقبوا المسيء عقابًا أقل ممن لم يفعلوا. لعلهم أشبعوا انفعالهم سلفًا عبر تنفيسهم عنه، ولم يحتاجوا للعقاب للتعبير عن كل غضبهم. ومثلما ينوه دكنسن وماسكلت، فإن لهذا الاكتشاف جانبًا مشرقًا. إن كان العقاب هو المنفذ الوحيد للتعبير عن الاستياء من سلوك الآخريين، فقد نكرس كل طاقتنا للعقاب، ومن ثم يكون العقاب أكبر مما يستحق الأمر (١١٨). ولكن للتنفيس جانبًا سلبيًا محتملًا أيضًا. فإن نفّس المرء غضبه بصور لا تكلفه شيئًا، فقد لا يفعل ما يكفي بقصد العقاب. بل ينفس كثيرًا فيشعر بالارتياح لئلا يفعل شيئًا آخر ردًا على الظلم. تخيل مثلًا أن يغرد أحدهم بنشاط حول كل شيء شائن يرتكبه سياسي، لكنه لا يتجشم العناء ليتطوع في مساعدة الأشخاص الذين تضرروا من سياسته، كالتماس الأصوات في حملة معارضة، أو فعل شيء آخر يتطلب جهدًا حقيقيًا.

إن الغضب والانفعالات الأخلاقية الأخرى هامة، وما يمنحها قيمة هو ما تحفزه فينا، لا ما تمنحنا إياه من شعور الصلاح الأخلاقي. ولكن خطر إساءة استخدام الغضب قائم لأن بوسعنا

استخدامه لنظهر بمظهر الأخيار. أي أننا سنعبر عن غضبنا لدى رغبتنا بفعل ذلك، لا لأنه مناسب. إن الغضب مورد ثمين وعلينا أن نقنن في استخدامه، وإلا عجز عن أداء وظيفته حين نحتاجه.

وأخطر سمات الاستعراض قدرته على الإيحاء لنا بأننا فعلنا شيئًا مثمرًا، لكننا في الحقيقة ارتكبنا فعلًا مدمرًا بزيادة اصطفاف الغاضبين، أو المبالغة في قناعاتنا. غير أن له أثرًا خبيثًا للغاية يتعين علينا الاحتراس منه. إن ساد الغضب في الخطاب العام، سيهجر الهادئون الميدان العام، ويمنع كثيرون من دخوله أصلًا.

عزوف المعتدلين

لا يطيق كثيرون الإظهار المستمر للغضب، فالأمر برمته بغيض، ولا يرغب أحد في أن يكون هدفًا لإهانة غوغاء على الشبكة. كتب الفيلسوف كيرت باير «كثيرًا ما يكون الكلام في الأخلاق بغيضًا. [إذ ليس إلا] تراشق الاتهامات الأخلاقية، والتعبير عن الازدراء، وإطلاق الأحكام، وتوزيع اللوم، وتوجيه التقريع، والتبرير للذات، والوعظ إلى جانب هذا كله؛ فمن ذا الذي سبعجبه كلام كهذا؟»(٤٩) كتب باير هذه الكلمات في ستينيات القرن الماضي، ولنا أن نتخيل وصفه للكلام في الأخلاق في المنتديات الواسعة الانتشار اليوم، لكنه لن يكون

وصفًا أحسن. وقد يشجعه معرفة أن الجماهير بعمومها توافقه آراءه حول الامتعاض من كثير من هذا الكلام. إذ خلص مسح أجراه مركز أبحاث پو عام ٢٠١٦ إلى ما يأتي:

- ٣٧ بالمئة من مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي «مستنزَفون» من المحتوى السياسي الذي يرونه، و ٢٠ بالمئة فقط يحبون رؤيته.
- ٥٩ بالمئة يجدون نقاش السياسة على وسائل التواصل الاجتماعي مع من يخالفونهم الرأي أمرًا محبطًا ومزعجًا.
- يرى نصف مستخدمي هذه الوسائل تقريبًا (٤٩ بالمئة) أن الحوارات السياسية التي يرونها على الشبكة أكثر حدة من الحوارات السياسية في ميادين الحياة المختلفة، ووجدها ٥٣ بالمئة أقل احترامًا، و٤٩ بالمئة وصفوها بأنها أقل تحضرًا.
- ٣٩ بالمئة لجؤوا إلى إخفاء أو حظر أو إلغاء الصداقة مع أحد لأمر يتعلق بالسياسة.
- ٦٤ بالمئة أشاروا إلى أن مناوشاتهم على الشبكة مع أشخاص ذوي آراء سياسية معارضة، أوحت لهم أنهم يتشاركون أمورًا أقل مما ظنوا(٥٠).

استُقطِب كثيرون لأطراف حزبية، كما أشرنا سابقًا، والكثير من المعتدلين الذين ظلوا في الوسط سئموا من مشاركات أصدقائهم في الخطاب العام. بل إن الذين يعزفون عن النقاشات السياسية معتدلون اعتدالًا متفاوتًا(٥١). وبينت دراسة حديثة، بالإجمال، أن المتطرفين السياسيين هم الوحيدون الذين يكرسون كثيرًا من نشاطهم في وسائل التواصل الاجتماعي للنقاشات السياسية(٢٥). ويراود المعتدلين، بطبيعة الحال، إحساس بالإنهاك من أمور أخرى غير الغضب، فقد تكون الكِبر واليأس والذنب مرهقة أيضًا، وتسهم بصورة ما في البيئة الاجتماعية المسمومة. ويُخرج الخطاب المستنزف انفعاليًا الكثير من المعتدلين السياسيين الذين يشعرون أنهم غير مرحب بهم في عالم جماعات مستقطبة تصرخ ببعضها البعض.

تقدم نظرية عالمة السياسة إلزابث نويل-نيومان حول دوامة الصمت في الرأي العام تفسيرًا آخر لما يدفع الكثيرين إلى تحاشي الحوارات السياسية والأخلاقية. إذ يخشى معظمنا العزل الاجتماعي، كما أننا نعلم أيضًا أن كثيرين ممن يخالفوننا الرأي أو يكرهوننا يمكنهم إدارة عزلنا الاجتماعي إن شاؤوا. لقد رأينا كلنا أشخاصًا يحرضون متابعيهم على معاملة أشخاص تعسي الحظ بوصفهم منبوذين اجتماعيًا، لا لشيء إلا لارتكابهم تصرفًا

خاطئًا على وسائل التواصل الاجتماعي. وتشجيع النفي التعسفي لمن يعبر عن رأي يستهجنه المجتمع يعني ممارسة ما تسميه «الضغط بالعزل»(٥٣). ترى نيومان أن المرء يلوذ بالصمت، لخشيته من أن يصبح هدفًا لحملة كهذه، بدلًا من أن يجازف بتعرضه للنفي. وتبعًا لذلك، فإن الذي ما زال ينتهز فرصته في الخطاب الأخلاقي العام هو الذي يتمتع بثقة أكبر بقبول آرائه عند الذين يريدون الإبقاء على روابطهم الاجتماعية. وينال شخص كهذا القبول بين أعضاء زمرته، لكنه يكسب زمرة أصغر. فقد يجعلك الحديث في السياسة والأخلاق تخسر أصدقاءك، إذ أظهرت دراسة أن ذوي الأصدقاء الكثر أقل ميلًا لنقاش السياسة والقضايا المسائل الأخلاقية المتنازع عليها على وسائل التواصل الاجتماعي(٥١)، فالكل يتوقع مثوله أمام محكمة التفتيش على الفيسبوك.

إن عزوف المعتدلين عن الخطاب السياسي والأخلاقي العام سيء على الجميع. وأشد الآثار السلبية وضوحًا يتجلى في عدم سماع الذين يتجنبون هذه الحوارات لنقاش الآراء الأخرى ودلائلها، فتظل قناعاتهم دون اختبار. فاحتفاظك بقناعاتك الهشة أسهل إن لم تناقشها مع الآخرين الذين يبينون لك خطأك. ولكن الأسوأ من هذا احتفاظ المرء بقناعاته لنفسه، إذ سيحرم

العالم من الأفكار التي قد لا يواجهها بطريقة أخرى. إن كان لدى المعتدلين الصامتين آراء حقيقية، فلن يعرف الآخرون الحقيقة أبدًا، وإن كانوا [المعتدلون الصامتون] مخطئين، فسيستثير ما يقدمونه من أسباب دفاعًا عن آرائهم نقاشًا مثمرًا يقرب الآخرين من الحقيقة. ولا بد للخطاب العام الطبيعي أن يتقبل كل الأنماط. لذا سنكون في حال أصعب حين تتقلص مساحة الأفكار المطروحة للنقاش الحيوي (٥٥).

يكتسح الناشطون الخطاب السياسي لعزوف المعتدلين عنه. إذ وجدت عالمة السياسة ديانا موتز أن الأشخاص الأكثر انشغالاً بالسياسة هم ناشطون من أقصى أطراف الطيف السياسي. كما وجدت أيضًا أن لديهم أدنى مستويات «مواجهة المخالف»، بمعنى أنهم الأقبل التقاء بمن يحمل رأيًا سياسيًا يختلف عن آرائهم (٥٠). لذا لا يعرف كثير من الناشطين كيف يفكر الطرف الآخر حقًا، ولا يودون معرفة ذلك. في إحدى الدراسات، كان أغلبية الأشخاص المؤيدين لزواج المثليين ومعارضيه مستعدين للتخلي عن فرصة الفوز بعشرة دولارات، ليتحاشوا التعرض للآراء السياسية لخصومهم (٥٠).

لكن التجنب الحذر للكلام في الأخلاق لن يضمن لك أن تبقى خارج الفوضى التي أحدثها الآخرون. إذ يرى البعض العالم من زاوية مصطبغة بالأخلاق، فيحسبون أن كل امرئ ومنظمة ومنتج مصنفون في فئات سياسية وأخلاقية.

انظر إلى الهوس العجيب الذي أدى بالبعض أن يضغطوا على نجمة البوب تايلر سوفت لتتخذ موقفًا صريحًا من رئاسة دونلد ترامب. في الوقت الذي عبر فيه كثير من النجوم عن استيائهم من ترامب، التزمت سوفت الصمت (حتى كتابة هذه السطور)، مما جعل كثيرين يظنونها مؤيدة لترامب. بل وجد البعض في أغانيها روح ترامب: «ليست سوفت نتاجًا لعصر ترامي فحسب، بل كأنها ممثلة موسيقية لقيم الرئيس (٥٨). وأصبح الشـك قويًا جدًا مما دفع بمحاميها أن يصرح علانية أنها ليست عنصرية بيضاء. لكنها حتى إن كسرت صمتها فلن يرضى الجميع. وذكر ممثل برودي ترودرك هول ملاحظة ذكية إذ قال: «ربما تصبح سوفت سياسية مستقلة، فتوظف صوتها لفعل ما يراه الناس لزامًا أن تفعله. ولكنهم سيسخرون منها إن فعلت ذلك، لأنها ليست صاخبة كفاية، أو لأنها ليست على الجانب الصحيح»(٥٩). إن كان يتعين عليك إظهار ولائك السياسي في مناخ أخلاقي وسياسي، فلن تكون حتى نجمة البوب حرة في تجنب السياسة والاكتفاء بالغناء عن الانفصال العاطفي.

ذكرنا حتى الآن أن للاستعراض الأخلاقي تبعات اجتماعية هائلة؛ كالاستقطاب والسخرية والعواقب الوخيمة المختلفة المتصلة بالغضب المفرط، منها مشكلة صيحة الذئب واستنزاف الغضب وعزوف المعتدلين. لكن إن كان للاستعراض تبعات سيئة، فإن هذا بالمقابل لا يعني أنه يجعل العالم مكانًا أسوأ. فلتأنيب الطفل على سلوكه السيء بعض العواقب السيئة فلتأنيب الطفل على سلوكه السيء بعض العواقب السيئة ركشعوره بالحزن، والبكاء عند البعض)، لكن الإيجابيات إجمالًا تطغى على السلبيات. لا بأس أن نسأل طبعًا إن كنا مصيبين عن أي كفتي الميزان سترجح في التحليل النهائي. أللاستعراض أية وجه حسن؟

المنفعة الاجتماعية للاستعراض

ما دمنا ركزنا على تبعات الاستعراض، فإننا ندرك احتمال أن تنجم عنه منفعة اجتماعية. غير أننا نظن أن كفة التبعات سترجح على كفة المنفعة في نهاية المطاف. ولم نناقش هذه النتيجة هنا، بل كل ما حاولنا ترسيخه في هذا الفصل هو نظرية معارضة للاستعراض، نظرًا لتبعاته الاجتماعية الوخيمة. أما من يريد الدفاع عن أخلاقية الاستعراض بناء على عواقبه، فلا بد له من نقاش أحد أمرين: (١) ليس للاستعراض ما ذكرنا من تبعات

اجتماعية، أو (٢) إن كان له ففوائده تفوقها. فما تلك المنافع الاجتماعية؟

من المنافع المحتملة للاستعراض منحه المرء فرصة للتلويح الى الآخرين بأنهم شركاء (١٠٠)، وهذه وظيفة مهمة، إذ تتيح بناء شبكة من الثقة تجعل مكاسب التعاضد الاجتماعي ممكنة. فإن أظهر شخص لأصدقائه أنه امرؤ صالح بشيء من الاستعراض المناسب، فسيعلمون أن بوسعهم الاعتماد عليه ليصدق في قوله، فيحترم الآخرين وما إلى ذلك. على نحو مماثل، يضغط الاستعراض الآخرين ليدركوا أن بينهم أشخصًا يفعلون الصواب، لذا فإن عليهم الاقتداء بهم.

ثمة ما يعيب هذا الاقتراح. إن من المفيد لنا جميعًا أن يشير الناس إلى بعضهم بعضًا بأنهم جديرون بالثقة والاحترام. ولكننا لا نرى لهذا علاقة بالاستعراض. إن الإشارات موجودة في السلوك اليومي، سواء أتعمدنا إرسالها أم لا. فأنت تشير للآخرين بأنك أهل للثقة عبر اتباعث القوانين في حضورهم، كانتظارك الإشارة في ممر المشاة، وعدم سرقتك من المتاجر، أو عبر إحجامك عن السلوك الانتهازي المعادي للمجتمع عمومًا. إحبارة أخرى، نظهر أننا متعاونون عبر تعاوننا حقًا، لا عبر بعبارة أخرى، نظهر أننا متعاونون عبر تعاوننا حقًا، لا عبر

الاستعراض. وإن توقف الناس عن الاستعراض، فستظل عندنا فرص وفيرة لتنمية الثقة الاجتماعية من خلال أشكال أخرى من الإشارات. بل يمكننا فعل ذلك عبر الخوض في حديث الأخلاق دون استعراض.

على أية حال، يساورنا الشك في أن للاستعراض قيمة كبيرة بوصفه إشارة لاستحقاق الثقة. إن أشكالًا أخرى من الإشارات أكثر موثوقية، لأن تصنعها أصعب وأكثر كلفة من الاكتفاء بقراءة العبارات المناسبة. لكن الاستعراض أكثر قيمة باعتباره أداة للتلاعب، أكثر من كونه إشارة لاستحقاق المستعرض للثقة. نحيلك ثانية إلى مثال هارڤي واينستين، إلى جانب حالات أخرى من أنصار النسوية المستعرضين الذين تبين لاحقًا أنهم متحرشون ومعتدون جنسيون. قبد يستخدم ذاك الاستعراض ليكون غطاء للسلوك السيء، وبهذا يسخر الناس أكثر من الإشارات التي يرسلها الكلام في الأخلاق. وعلى الرغم من شكنا، لكننا نرى أن هذه المسألة تحتاج مزيدًا من التقصي.

تِتجسد استراتيجية أخرى لتعيين المنفعة الاجتماعية للاستعراض في الإشارة إلى الإيجابيات التي يدفع الاستعراض الناس إلى فعلها. فكر، مثلًا، بظاهرة «العطاء الموجه بالغضب»:

أي التبرع لقضية سياسية أو إنسانية بدافع الغضب. تشرح إلزابث ول الخبيرة في الإحسان:

إن التبرع أكثر من الاكتفاء بالغضب على وسائل التواصل الاجتماعي، أو بين الأصدقاء والعائلة. إنه أمر ملموس، أمر يمكن للمرء فعله، دون أن يكلفه شيئًا غالبًا. للعطاء الخيري أثر نفسي إذ يعني أن المرء قادر على فعل شيء، وإن كان يقدم ٥٠ دولارًا أو ١٠٠ - قد يخفف هذا الإحساس بالذنب، أو يبين أخلاق المرء وقيمه. بالتبرع على الفيسبوك أو مشاركتك على وسائل التواصل الاجتماعي بأنك تبرعت، تظهر قيمك للآخرين (١٠٠).

عندما يغضب عدد كافٍ من الناس من أمر ما، بوسعهم توجيه غضبهم إلى فعل مثمر. انظر، على سبيل المثال، احتجاجات الجماهير على سياسة إدارة ترامب «لعدم التسامح المطلق(أ)» مع المهاجرين غير الشرعيين، التي أدت إلى حالات

⁽i) سياسة تفرض عقوبة على كل مخالفة لقاعدة معلنة. تقوم سياسات عدم التسامح مطلقًا بمنع الأشخاص في مواقع السلطة من ممارسة السلطة التقديرية أو تغيير العقوبات لتناسب الظروف بشكل شخصي. (المترجمة)

كثيرة من افتراق أفراد العائلة. جمع ثنائي من سلكون قالي، عبر مشاركتهم في الغضب الجماعي، ٢٠ مليون دولار للمساعدة في لم شمل أطفال مع أسرهم على الحدود الأمريكية-المكسيكية(١٢).

سواء أكنت تتفق مع منظمي هذه الحملة حول سياسة الهجرة أم لا، فإن ما نرمي إليه أن كثيرًا من الغضب الذي نراه في وسائل التواصل الاجتماعي- كان بعضه بدافع الاستعراض فعلًا- قد يجعل الناس يتبرعون للخير الـذي يؤمنون به، وقـد يكون لهذا نتيجة رائعة. ليس عليك بطبيعة الحال أن تكون مستعرضًا لتعبر عن غضبك أو دعمك للقضايا السياسية على الملاً. لذا فإن هذا ليس دفاعًا عن الاستعراض بالضرورة، بل عن الكلام الغاضب الذي يحرض على العطاء، ونحن لم نعترض على هذا. بل لم نعترض على استخدام الغضب. في الحقيقة ذهبنا إلى أن للغضب مقامًا وهو يخدم صالحًا كبيرًا. وهذا هو بالضبط السبب الذي يلزمنا بحمايته، حيث يمكن استخدامه في قضايا مهمة، لا مخاوِف ثانوية تنتقى لإظهار الحساسية الأخلاقية. ومرة أخرى، على الرغم من شكنا، فإننا نرى هذه مساحة جديرة بالتقصى. وسيكون التحدي الكبير في تقديم الدليل على أن للاستعراض

منافع اجتماعية فريدة لا يمكن اكتسابها بسهولة عبر الكلام في الأخلاق الذي لم توجهه الرغبة في نيل التقدير.

على أية حال، إن تمكن النقاد من إثبات أن المنافع الاجتماعية للاستعراض تفوق تبعاته، فما زال لدينا ما نقوله ضد الاستعراض، بعيدًا عن تبعاته الاجتماعية، سنكشف عنها في الفصل القادم. سنرى تاليًا، على سبيل المثال، أن الاستعراض مشكِلٌ أخلاقيًا لأنه ينطوي على تقليل احترام الغير.

الفصل الخامس الاستعراض والاحترام

يستحق الجميع أن يعاملوا باحترام. سيقول البعض إن جوهر الأخلاق يكمن في ضمان احترام الآخرين. لماذا يعد التهجم خطأ أخلاقيًا؟ لأنه قصور في معاملة الآخر بالاحترام الذي يستحقه. ولماذا يعد التمييز العنصري خطأ أخلاقيًا؟ لأنه صورة من قصور معاملة الآخر باحترام مماثل.

إن الكلام الأخلاقي أحد أكثر أدواتنا فائدة للتأكد من تلقي الغير معاملة محترمة، وعبر هذا الكلام نظهر أنه لا يلقى معاملة حسنة. فلنفترض مثلًا أنك تقول للآخرين: «إن سياسة الهجرة هذه ليست عادلة بحق الأطفال»، فهدفك من هذا الكلام أن تلفت الانتباه إلى أن الناس لا يلقون احترامًا كافيًا.

ومغزى قولنا أن هذا الكلام هو أداة، إذ يتيح لنا أن نعمل معًا لنتأكد من أن الناس يُعامَلون باحترام. ولكنه قد يستخدام استخدامات أخرى كغيره من الأدوات الكثيرة، وبعض هذه الاستخدامات لا يستحق الثناء.

انظر إلى المطرقة، مثلًا، إذ تستخدم في بناء البيوت، وتستخدم في ضرب الآخرين أيضًا. ويمكن الحكم على الضرب بالمطرقة من خلال الغرض الذي يستخدم له، ولأي شيء. والكلام في الأخلاق، مثله كمثل المطرقة، قد يحسن استخدامه لكنه ليس سحريًا، إذ يمكن استخدامه بصور تقلل من احترام الآخرين.

سنتحدث في هذا الفصل عن استخدام الاستعراض للكلام الأخلاقي استخدامًا يسيء معاملة الآخر. ولسنا نقول إن الاستعراض خطأ لما له من عواقب وخيمة، كما ذهبنا في الفصل السابق، بل سنبين أن المستعرض يفشل في معاملة الآخر باحترام.

يقلل الاستعراض من احترام الآخر، في بعض الحالات. ويفعل ذلك إما باستغلال الآخر لإظهار مدى صلاح المستعرض، أو عبر تضليل الآخرين بمدى صلاحه. ثم سنعرض، بصورة أعمّ، إلى استغلال المستعرض للآخرين عبر انتفاعه المجاني من استخدامهم الواعي للكلام في الأخلاق.

إن كنت ممن يتابع التلفاز عادة، فلا بد أنك رأيت مشهد الشخصية التي تواجه الحكم الوشيك بالسجن، وقد أشير عليها بالعثور على أضخم النزلاء وأقواهم في أول أيام السجن لنزاله. والمراد من ذلك إيصال رسالة إلى بقية النزلاء بأن الرجل الجديد لن يتساهل مع أي إساءة حتى إن كانت صادرة من أعتى السجناء، ولذا عليهم تجنب العبث معه. رغم شكنا بفعالية هذه الخطة في سياق السجن، فإن الدافع العدائي في إيذاء شخص من أجل إعلام المتفرجين بشيء عنك أمر شائع تمامًا. وللأسف، فإن كثيرين مستعدون لاستغلال الآخرين ليظهروا بمظهر الأخيار.

يتبع بعض المستقوين هذا النهج في الخطاب العام، إذ يمضون في حياتهم يتحينون فرصًا لانتهاز أخطاء الآخرين، حقيقية كانت أم متخيلة، ليظهروا أنهم أخيار. نسمي هذا بالاستقواء، الذي ينطوي على استغلال الآخرين عبر حشدهم في عرض علني موجه للتباهي بخصال المستعرض الحميدة.

⁽أ) يستخدم المؤلفان مصطلح showcasing للإشارة إلى استعراض القوة، فآثرت استخدام مصطلح الاستقواء بمعنى التسلط والتجبر. (المترجمة)

وقد يلجأ هؤلاء إلى فعل ذلك عبر الاصطفاف في حالات الإهانة الصريحة أو التكثيف أو تلفيق تهم بارتكاب الأخطاء، أو الانخراط في التعبير عن الغضب تعبيرًا منطويًا على اتهامات، وغيره من الإنفعالات السلبية. ويعمد المستقوون إلى إشباع رغبتهم في نيل التقدير باستغلال القصور الأخلاقي المزعوم للآخرين للتباهي بتفوقهم الأخلاقي.

ما عيب الاستقواء؟ لنبدأ بالحالة السهلة: حين ينقض المستقوي على برئ لإثارة إعجاب الآخرين بعظمة أخلاقه، فقد ارتكب خطأ أخلاقيًا. إذ من قلة الاحترام لوم الناس جهارًا على أمور لم يفعلوها، وهم لا يستحقون هذه المعاملة. ومثلما تخطئ الدولة إن زجت بأبرياء في السجن لإظهار حرصها على العدالة، فإن المستعرض يخطئ بإهانة الأبرياء أو نبذهم أو إحراجهم ليثبت أن له قلبًا سليمًا.

ولكن ما عيب الاستقواء إن كان المستهدف مذنبًا؟ لعلك ترى أن لا ضير في اللجوء إلى اللوم والإهانة لإظهار خصالك الحميدة إن ارتكب من تستهدفه خطأ. لنسم هذا دفاع ديرتي هاري عن الاستقواء. فقد جسد كلنت إستود شخصية المفتش القذر هاري كالاهان، في فيلم قوى ماغنوم عام ١٩٧٣، الذي توكل إليه مهمة ملاحقة قاتل خطير. يطلب هاري شرطيين

جديدين بارعين في إطلاق النار ليكونا له سندًا. عارض الملازم إرسال مجندين جديدين في مهمة خطيرة. «هب أنهما أصيبا بالهلع وأخذا يطلقان النار؟»، سأل الملازم. فكان رد هاري: «لا ضير في إطلاق النار، ما دام أنه موجه إلى مستحقيه».

قد يفكر المدافع عن الاستعراض تفكيرًا مماثلًا. فلا بأس في إهانة الناس على الملأ إن كانوا يستحقون ذلك. إن الاستقواء قلة احترام عند توجيهه إلى الأبرياء قطعًا، لكن هذا لا يصدق لدى استهداف المخطئين به.

ثمة شذرة من الحقيقة في هذا الدفاع. إنْ رد المخطئ على لوم المستعرض له بأن يتهم الأولُ المستعرض باستغلاله ليظهر بمظهر الصالح، فمن العدل قولنا إن المخطئ تورط في التضليل. ورغم ذلك، فإن دوافع المستعرض القائمة على المصلحة الذاتية لا تغير حقيقة أن المخطئ مذنب. ولكن ثمة اعتراضات أخلاقية وجيهة على الاستقواء وإن كان المستهدف مذنبًا.

لاحظ أن دفاع ديرتي هاري سديد إن كان المستقوي قد أصاب في تعيين المخطئين ليجعل منهم أدوات للتسويق لذاته. ولكن إلى أي حد ينجح المستقوي في أن يقتصر استهدافه على المذنبين فقط؟ نعمد غالبًا إلى لوم الأبرياء، وإن كنا نبغي تعيين المخطئين فحسب، ولكن إلى أي حد سنكون دقيقين في توجيه

اللوم للمخطئ فقط إن اختلط هدفنا هذا بدافع المصلحة الذاتية؟

قد تظن أن المستقوي سيعمد إلى الدقة في انتقاء المخطئ فقط، لأن استقواءه سيكون مؤثرًا في أمثال هؤلاء فحسب. فمن ذا الذي يراك مثالًا للأخلاق إن أنت هاجمت من يفعل أشياء بريئة على الصعيد الأخلاقي، من قبيل الرسم في وقت الفراغ، أو اصطحاب لأطفال إلى المتنزه؟ ربما يقتصر المستقوون في الاختيار على المذنبين، لأنهم سينالون الإعجاب عندئذ.

ولكن هذا الظن متفائل للغاية. تذكر أن كثيرًا من المستعرضين يحاولون إثارة إعجاب عصبتهم. فهم يريدون أن يراهم من يماثلهم فكرًا شديدي الحساسية للظلم مثلًا. ولكن، رغم أنه صعب قبوله عند البعض، عصبة المرء لا تستجيب دومًا استجابة تلائم المشاكل الأخلاقية. وإن افترضنا أن جماعتنا تتمتع بكل القيم المستحسنة، فإن هذا لا يضمن أن تمنح الجماعة سلوك شخص ما في قضية ما تقييمًا صحيحًا. فالحياة معقدة، والجماعات المتلاحمة التي تتشاطر منظورًا أخلاقيًا مشتركًا مقدر لها أن تواجمه مجموعة جديدة من الظروف تحرض قيم الجماعة ضد بعضها بعضًا. لا بد أن يكون المرء متعصبًا حقيقيًا ليصدق أن زمرته (أو أي فرد منها) سيصل دومًا إلى الجواب المناسب أخلاقيًا، بغض النظر عما يضعه العالم في طريقه. فما

احتمال أن تكون أنت وجماعتك أصبحتم فجأة من المعصومين عن الخطأ في اكتشاف الحقيقة الأخلاقية، رغم أن الجميع عبر التاريخ كان لهم قناعات أخلاقية خاطئة؟

كما علينا أن نتذكر ما نعرف عن سيكولوجية حيل الجماعة. إذ يشعر المرء كثيرًا بحاجة إلى ملاءمة أحكامه المعلنة مع ما ينتظره الآخرون منه حسب ظنه. وما دامت الجماعة مقدر لها أن تطلق تقييمًا أخلاقيًا ذا عيوب، فسينتهي الأمر بالأفراد الذي يحاولون إثارة إعجاب جماعتهم إلى استغلال الأبرياء في الاستقواء.

ما نود قوله إننا عندما نحاول التأثير في مؤيدينا عبر الاستعراض، فسنعمد إلى لوم الأبرياء وإهانتهم، سواء أصدقنا أننا نمارس هذا أم لا. يجب أن تؤدي بنا معرفتنا ميلنا إلى هذا الخطأ إلى التقليل من ثقتنا بكون كل قضية مطروحة للاستقواء تستهدف مخطئًا، بل في كثير من الحالات لا بجدر بنا أن نكون واثقين البتة.

أتراه من الاحترام أن تعمد إلى إهانة الآخر ولومه لتظهر بمظهر الصالح إن كنت ستنتقي أشخاصًا بريئين بطريق الخطأ؟ فكر في قضية مشابهة. لنقل إنك شرطي في دورية على الطريق السريع، ولم تضبط معيار رادار السرعة منذ أسابيع، وتعرف أنه سيقدم قراءات صحيحة بما يقارب ٢٠ بالمئة. لكنك على وشك تسليم تقرير شهري بالمخالفات التي حررت، الأمر الذي سيثير إعجاب ملازمك، وسيعلي من تقدير أدائك السنوي. ولا تريد تضييع وقتك في ضبط معيار الجهاز ما دمت قادرًا على تحرير مخالفات أخرى. أيجعل منك تحرير المخالفات للسائقين باستخدام جهاز يفتقر إلى الدقة شخصًا قليل الاحترام؟ إن أجبت بنعم، فسترى أن كثيرًا من الاستقواء قلة احترام للسبب نفسه.

ولكن ماذا عن الاستقواء إن كنت واثقًا ثقة مبررة بأن من تستهدفه مذنب؟ لدينا كثير من حالات ارتكاب الخطأ الواضح بين المشاهير أو السياسيين، فلماذا يعد الاستقواء في هذه الحالات قلة احترام؟ لأنه في هذه الحالات أيضًا قد يضل السبيل.

لفهم ذلك، لاحظ إن كان من يستهدفه المستقوي مذبًا، فهذا لا يعني أن رغبته في إثارة الإعجاب ستقوده إلى لوم المخطئ وإحراجه كما ينبغي. بل قد يعامل المخطئ بقسوة أكبر مما يستحق. تبعًا للدوافع الكامنة في المقارنة الاجتماعية التي عرضناها في الفصل الثاني، فإن كثيرًا من الاستقواء، مثله كمثل الاستعراض عمومًا، سينطوي على التكثيف والتلفيق. وتؤدي

هذه المحفزات بالمستقوي إلى أن يكون قاسيًا قسوة متفاوتة في تعامله مع المخطئين.

ولا يتضح هذا أكثر من اتضاحه في حالات الإحراج على الشبكة (۱). يقول أحد مستخدمي تويتر: «غريب أن أكتب شيئًا في هذا الصندوق قد يؤدي إلى تدمير حياتي (۱). فالدارج لدى أعضاء عصبة في التواصل الاجتماعي أن يرسلوا تهديدًا بالقتل، ويزعجوا عائلة المخطئ وأصدقائه، ويحرضوا رئيسه في العمل على طرده. وللذين يرون أن الكلام في الأخلاق سحر، فإن هذا ليس إلا يومًا ككل يوم. صحيح أنهم يشاركون في شلال التشهير على الإنترنت، لكن إحقاق العدالة يتطلب أحيانًا التضحية بالآخر.

يفصل الصحفي جون رونسن قضية لندسي ستون، التي غدت ضحية التشهير على الشبكة بعد نشرها على الفيسبوك صورة لنفسها وهي منفعلة وتشير إشارة بذيئة إلى لافتة تطلب الصمت والاحترام في مقبرة أرلنغتن الوطنية. أصاب الإحباط ستون، بعد أن خاضت المأزق المعتاد من فقدان الوظيفة وتلقي تهديد بالقتل، ولم يقبل أحد توظيفها، إذ إن أي بحث على الشبكة سيستدعي في الحال تفاصيل الخطأ الذي ارتكبته، كاملة إلى جانب الصور دليلًا. تمكنت من عيش حياة مماثلة للطبيعية

وذلك بعد أن أمّن لها رونسن خدمة مجانية من شركة لإدارة السمعة، تمكنت من التلاعب بنتائج محركات البحث لتدفع روابط خبر الحادثة إلى آخر نتائج البحث.

تتطلب همذه العملية محافظة دائمة على الحضور المنتقى بعناية على الشبكة، تكمله يوميات ملفقة عادية عامة عن رحلات إلى مدن الملاهي لملء الصفحة الأولى من نتائج البحث في غوغل. وفقًا لتقدير شركة إدارة السمعة، فإن تحسين سمعة ستون على الشبكة تطلبت خدمات بقيمة مئات الآلاف من الدولارات(٣). وقفنا مطولًا عند هذه التفاصيل للإشارة إلى الثمن الباهظ لقدر صغير من تحسين السمعة (إن وجد) يجعل المستقوى ضحيته يدفعه. ثمة صناعة كاملة مكرسة لتحديد هذه المسألة، تظهر أن شيئًا ما لم يجر على ما يرام في الصورة التي مارسنا فيها اللوم الأخلاقي. ويصعب احتمال التفاصيل في قضايا أخرى مماثلة لقضايا ستون، كما أنها تشرح بكثير من الوضوح أن معاقبيها قد تصرفوا بخسة.

إن كانت ستون قد أخطأت، فإن ردود الفعل التي تلقتها لم تكر مكافئة لخطئها. فهي لا تستحق التهديد بالقتل قطعًا. ولكن ماذا عن الحالات التي تعرف يقينًا أن المستهدف فيها مذنب، ويستحق لومنا وإهانتنا له؟ حتى في هذه الحالة قد يضل الاستقواء

السبيل، إذ يصعب تنسيق نشاط الجماعة. إن كان المستهدف مستحقًا للومك وتشهيرك، فهذا لا يعني أنه يستحق لومًا وتشهيرًا مماثلين من ١٠٠٠ شخص آخر. يتخذ كثير من الاستقواء شكل الاصطفاف، فيحشد أعضاء الجماعة لومهم وتشهيرهم على أحد المخطئين، وكل منهم يضيف قليلًا حتى يصبح الأثر الإجمالي لمضايقتهم قيمة أسية أكبر مما يستحقه المخطئ (١٠٠٠على أقل تقدير، إن سعيك الفردي إلى المكانة يسهم في سلوك الجماعة الذي يقلل احترام حتى المخطئ.

في انعطافة مثيرة، تتراجع حملات اللوم والتشهير الجماهيرية على الشبكة أحيانًا. فقد أجرى عالما النفس تاكويا ساووكاو وبنويت مونِن أربع دراسات تُظهر أن التعبير عن الغضب ضد العنصري، أو غير المتحلي بالروح الوطنية، أو المتحيز جنسيًا في منشورات الشبكة تعتبر أقل استحقاقًا للثناء عندما تكون جزءًا من اصطفاف جماعة أكبر (٥). كما يظهر ساووكا ومونن أن الغضب المعدي يحفز إشفاق المراقبين على المخطئ، وهذا ما يوقع المستقوي في حيرة. فإن بدت إهانته ملائمة وحدها، فاصطفاف المستقوين قد يحفز الشفقة على المستهدف ويجعل المستقوي يظهر بمظهر الشرير.

غير أن خطأ الاستقواء لا يكمن ربما في اللوم المفرط أو العقاب الاجتماعي. إذ يحتمل أن يكون لوم ذلك الشخص خطأ، وإن كان جديرًا باللوم. ولفهم ذلك، تخيل أن آن ترى بن يرتكب خطأ أخلاقيًا ثانويًا، فستخطئ آن في طلبها من بن أن يتحدث عن خطئه أمام آخرين. وقد يكون هو الصواب لذا تقدِم عليه. ولكن لنفترض أن آن مزاجها سيء، وتتحرق شوقًا لنفثه على أحد ما. إن ما دفع أن لتطلب من بن ما طلبت خاطئ، وإن لم يكن فيه تجاوز للحدود. فليس مهمًا عندها الشخص الذي تقع عليه ضربتها أو سببها، ولو لم يكن بن حاضرًا، لصبت غضبها على أحد آخر. وفي هذه الحال فإن بن في نظر آن ليس إلا كيسًا للملاكمة قابلًا للتبديل. وهذا ليس المطلوب من الأخلاق. يجب لوم بن على سلوكه لأنه ارتكب خطأ، لا لأن لومه سيشعر آن بالتحسن.

بوسعنا استخدام هذه الحالة لشرح خطأ الاستعراض للسبب نفسه. لنفترض أن آن، بدلًا من المزاج السيء، تشعر أن فضائلها لم تقدّر حق قدرها. فتجد فرصتها لدى زلة بن فتنشر خصالها الحميدة أمام كل من يتناهى إليه السمع عبر انقضاضها على بن. وهنا أيضًا أخطأت آن في لوم بن لرغبتها في إظهار تفوقها الأخلاقي فحسب.

قد يعترض أحد بالقول إن آن لم ترتكب خطأ في كلتا النسختين. لماذا؟ لأنها في الواقع عاقبت مذنبًا، ولأن بن مذنب في الحالتين، ولها الحق في معاقبته، لذا فإنها لم ترتكب خطأً في فعل ذلك⁽¹⁾. لقد كانت، من غير ريب، على أتم الاستعداد للانقضاض على أي أحد لتحصل على ما أرادت ولكن الحظ ابتسم لها، ومنحها فرصة للتنفيس عن حقدها دون شعور بالذنب.

صحيح أن سلوك آن أقل سوءًا إن كان هدفها مذنبًا بدلًا من عابر سبيل بريء. لكننا نخطئ إذ نتجاهل موقفها تجاه الآخرين لدى تقييم سلوكها(››. لقد واتاها الحظ إذ استغلت شخصًا مذنبًا. نكرر قولنا إن الأخلاق ليست عذرًا مقنعًا لاستغلال أحد ما، فهي تلزمنا أن نعامل الآخرين وفقًا لقيمتهم بوصفهم بشرًا لا أدوات. ويفشل الاستقواء في تحقيق ذلك.

انلحداع

على امتداد صفحات الكتاب رأينا المقارنة بين الاستعراض والكذب مفيدة. إذ يعد كل منهما، على سبيل المثال، وسيلة لارتكاب خطأ أخلاقي في تبادل الآراء. كما يصعب عادة التيقن من استعراض امرئ ما عبر معاينة كلماته فحسب، وهذا يصدق على الكذب. ونأمل أننا قربنا فكرة الاستعراض من الأفهام، عبر

تحديد مواضع تشابهه مع الكذب المألوف أكثر. سننتقل إلى نقاش بعض الأمثلة على الاستعراض الذي يتقاطع كثيرًا مع الكذب.

نظن المستعرض صادقًا عادة؛ فهو يصدق ما يقول أو ينقل قناعاته الأخلاقية إلى الآخرين. وذكرنا أن الاستعراض خطأ لأسباب كثيرة أخرى لا تقتضي النفاق (سنناقش هذا في مواضع أخرى). لكن الاستعراض خطأ لأنه يخدع الآخرين، كالكذب.

دعنا نركز على الكذب للحظة. فهو محاولة خداع شخص ليصدق أمرًا يؤمن الكاذب نفسه بزيفه (^). وأحد التفسيرات المثيرة المقبولة للسبب الذي يجعل من الكذب خطأ، هو أنك تقصر في معاملة آخر باحترام يناسب ندًا لك في الأخلاق إن تعمدت خداعه. لنفترض أن أحد أصدقائك يريد أن يكون حلاقًا. أنت لن تسمح له أبدًا بقص شعرك، لكنك تود تقديم الدعم له، لذا تخبر زميلك في العمل أنه حلاق ماهـر متمكن. أنت تعرف الحقيقة وتنتفع بها بعدم سماحك له أن يقص شعرك. من جانب آخر، لقد حصل زميلك على معلومات خاطئة لأنك كذبت عليه، ومن ثمَ أقدم على فعل شيء ما كان ليفعله لولا معلوماتك. لقد وجدت مصلحته العملية أقل أهمية من مصلحتك حين كذبت

عليه، فاستغللت ثقته وتلاعبت به لتحقيق هدفك في دعم صديقك. باختصار، لقد استغللته عبر الكذب عليه.

كما أن خداع الآخرين والتلاعب بهم واستغلالهم ممكن عبر الاستعراض. إذ يعمد المستعرض إلى هذا عبر تنمية انطباع عن نفسه بكونه جديرًا بالثقة، ثم يستغل الثقة التي حفزها، سواء أكان متعمدًا لذلك أم لا. وكثيرًا ما يسعى المستعرض إلى بناء سمعة بكونه فوق النقد، أو شخصًا محترمًا فحسب. لكن حقيقة الأمر بعيدة عن الصورة الرائعة التي يعرضها.

قد يكون بعض الاستعراض خداعًا دون قصد. وثمة احتمال معقول بأن يكون المرء صالح الأخلاق بقدر ما يظن، مثلما عرضنا في الفصل الثاني. إذ يعمد الناس إلى تقييم أنفسهم تقييمًا مبهرًا بكون أخلاقهم أعلى من المتوسط. وليس كلهم على صواب، إذ يخطئ كثيرون في مقارنة أنفسهم بالآخرين عندما يتعلق الأمر بالخصال الحميدة. فإذا حاولت الإيحاء للناس بأنك استثنائي في أخلاقك، فإنك تحاول خداعهم على الأرجح، وقصدك من استعراضك أن يصدق عنك الآخرون أمورًا غير صحيحة. وقد تفعل الأمر نفسه وإن لم يكن قصدك الخداع.

فقد تصر على أنك لن تقع في هذا الخطأ. ربما لن تفعل، لكن البحث النفسي يمنحنا أسبابًا وجيهة للاعتقاد بأن المرء

حكم سيء على خصاله الخلقية. يقدم «تأثير وهم التفوق/ أفضل مني»(أ) على وجه الخصوص سببًا صادمًا للشك في أنفسنا. إذ سئل المشتركون في دراسة ما أن يقدروا النسبة المئوية للوقت الـذي يظهرون فيـه صفـات محـددة من قبيـل التعـاون والصدق والتهذيب واستحقاق الثقة (٩). فقيّم المشاركون أنفسهم فيما مجموعه ستة وعشرون صفة. وأعيد تقييم المشتركين بعد أسابيع، إذ أخبرهم القائمون على التجربة أنهم سيمنحون متوسط التقييم الذاتي من أقرانهم في كل صفة، ثم سئلوا أن يقيموا أنفسهم بمقارنتها بالمتوسط. قيم المشتركون أنفسهم، في ثلاث وعشرين من أصل ست وعشرين خصلة، بأنهم أعلى من المتوسط بكثير. وظهرت الفوارق الأكبر في الخصال الأربع؛ التعاون والصدق والتهذيب واستحقاق الثقة. والجدير بالملاحظة أنه لدى سؤال المشتركين عن مقدار مماثلتهم «للمتوسط»، فقد مُنحوا تقييمهم الذاتي السابق لأنفسهم. وفي الحقيقة، إنهم في قولهم إنهم أفضل من المتوسط، كانوا يزعمون أنهم أفضل من

⁽i) اعتقاد عند بعض الناس حول تفوقهم على الأفراد الآخرين (الفرد المتوسط) حيث يقوم الفرد بتضخيم إيجابياته وتصغير سلبياته وينتج عنه سوء تقدير للقدارت الذاتية والبيئة المحيطة، وهو أمر شائع، يمكن ملاحظته في الصف، وفي العمل، وفي كافة مناحي الحياة. (المترجمة)

أنفسهم. وهذا يثبت أن حكمنا على صلاحنا غير موثوق، سواء أكان ذلك بقيم مطلقة، أو مقارنة بالآخرين. لا شك أن البعض أفضل من المتوسط، ولكن لا يجدر بالمرء أن يكون واثقًا أنه كذلك. بل يحتمل أنك تعمد إلى الخداع إن كنت تعرض صورتك على أنك قديس في الأخلاق.

لقد افترضنا في هذه الحالات، بطبيعة الحال، أنك لا تحاول خداع الآخرين. بل تؤمن أن أخلاقك رائعة وتود أن يرى الآخرون ذلك. لكن هذا لا يعني أن استعراضك ليس خداعًا، بل يعني أنه ليس متعمدًا. وهو في هذه الحالة لا مسؤول. إن استعرضت، فإنك تقدم على فعل شيء عرضة للتسبب بخداع الآخرين. ورغم ذلك، فما احتمالات تحليك بروعة الأخلاق كما تحسب نفسك؟ ليست جيدة جدًا على الأغلب. ويعد الاستعراض سلوكًا خطرًا حين يتعلق الأمر بتضليل الآخرين، وما دام فعل ذلك من أجل مكسب شخصي أمر خاطئ، ستتسم معاملتنا الآخرين باحترام أكبر إن لم نستعرض.

من جانب آخر، يتعمد بعض الاستعراض الخداع، ولا يرى المستعرض في هذه الحالات أنه رائع الأخلاق بقدر ما يوحي استعراضه، لكنه يريد أن يظنه الآخرون كذلك على أية حال. يشبه هذا النوع من الاستعراض الكذبَ في نواح كثيرة، إذ يهدف

إلى خداع الآخرين، وهذا خطأ عمومًا. ولذا فإن الاستعراض خطأ أخلاقي أيضًا بقدر ما يكون الهدف منه خداع الآخرين.

ولعلك تقول إن الاستعراض ليس خطأ أخلاقيًا عظيمًا، وإن كان مضللًا. فكلنا نتبجح قليلًا أمام الآخرين، لنبدو أظرف أو أكثر جاذبية أو أذكى مما نحن عليه. ومما يؤسف له مغالاة البعض لإيهام الآخرين أنهم أقوى وأذكى وأكثر براعة مما هم عليه حقًا. وبغض النظر عن الحالات المتطرفة، ليس من المحتمل أن يُحدِث مَن ينجح في هذه المحاولات ضررًا كبيرًا.

لكن الاستعراض أسوأ من هذه الحالات الأخرى. فالافتراض غير الدقيق الذي يزرعه المستعرض في الآخرين يمكّنه من استغلال الناس بصور أكبر من مجرد الخداع. إذ يكسب المستعرض ثقة الغير بصورة لا يستحقها، عبر التظاهر بأنه شخص أفضل مما هو عليه حقًا. وقد يعمد إلى استغلال هذه الثقة بعدد من الطرق.

يلجاً البعض إلى الاستعراض ليكون غطاءً على سلوكه السيء. أجرت عالمة النفس آنا مريت وزملاؤها سلسلة من التجارب تظهر سعي الناس إلى الترخيص الأخلاقي(أ) لدى

الترخيص الأخلاقي أو الترخيص الذاتي مصطلح يستخدم في علم =

خشيتهم من أن يبدو سلوكهم في المستقبل فاسدًا(١٠٠). وقيل للمشتركين في إحدى الدراسات إنهم سيتخذون قرارات لتعيين موظفين، وعليهم الاختيار بين مرشحيْن أحدهما أبيض والآخر أسود. عُرض على بعض المشاركين وصفٌ لمؤهلاتهما تفوّق فيه المرشح الأسود على الأبيض، وعرض على البعض الآخر مؤهلات تفوّق فيها المرشح الأبيض. وقبل اتخاذ قرار التعيين، قُدّم للمشتركين استبيانٌ يسأل إن كانت أنماط عديدة من السلوك تتسم بالعنصرية. وأخبر المشتركين أن إجاباتهم ستعرض على أقرانهم إلى جانب قراراتهم في تعيين أحد المرشحين. وجد الباحثون أن المشتركين الذين عرضت عليهم الملفات التي تفوقت فيها مؤهلات المرشح الأبيض كانوا أميل إلى وصم بعض السلوكيات الواردة في الاستبيان بالعنصرية. وعبر الاستباق في إظهار الحساسية العالية تجاه العنصرية، أمل المشتركون أن يتيح لهم هذا الإقرار النجاة من النقد لتفضيلهم المرشح الأبيض على الأسود.

النفس الاجتماعي والتسويق لوصف مايحدث في العقل الباطن عندما تزيد الثقة والأمان لصورة الإنسان لذاته بكونه يتمتع بأخلاق حميدة، تجعله يميل إلى التصرف بثقة ودون تردد غير آبه بالعواقب ما إذا تصرف بأسلوب غير أخلاقي. (المترجمة)

لا يعد هذا النوع من الإشارات الوقائية خطأ أخلاقيًا دائمًا. إذ نحتاج أحيانًا إلى بذل الجهد لإثبات أن سلوكنا مباح أخلاقيًا حين توحي المظاهر الأولى بعكس ذلك. وما نريد قوله إن لهذه الدوافع نفسها تأثيرًا وبخاصة حين يوظف السيئين استعراضهم لتسهيل استغلال ثقة الآخرين. إذ يبني المرء، عبر الاستعراض، سمعته الحسنة فتجنبه الشك بل وتنجيه من النقد عند اكتشاف أخطائه.

يستغل المرء الثقة التي اكتسبها عبر استعراضه لإيقاع الضحايا في شباكه، وقد يستغلها أيضًا لتثبيط همة ضحيته عن اتخاذ إجراء عبر استباقه بزرع بذور الشك بوجاهة الاتهام المنسوب إليه. إن تسهيل الاستعراض للإساءة إلى الآخر هو ما يميزه عن أنواع أخرى من تسويق الذات المبالغ فيه البريء من الناحية الأخلاقية. وستساعدنا بعض الأمثلة على توضيح ما نعني.

تذكر الرسالة التي أرسلها هارڤي واينستين ردًا على اتهامه بسوء السلوك الجنسي. فقد حاول واينستين، عبر دعمه للقضايا السياسية التقدمية واحترامه الواضح للنساء، اللجوء إلى سمعته التي رسخها خلال سنوات من إدارة الانطباع المضلل، وأن يشتري الغفران عبر تلويحه باحتمال أن يحسن صنعًا في المستقبل

وهذا ما سيكون محالًا إن اعتبر مسؤولًا عن أفعاله. وإلى جانب وضوح دوافعه المذكورة في الرسالة نفسها، ومحاولته التلاعب بجمهوره ليحصل لنفسه على حريات أكبر زادتها تأكيدًا حقيقة قوله أمورًا مماثلة عند مواجهته سرًا، قبل عقد من ظهور الادعاءات الأخيرة (١١).

قلل واينستين من احتمال تصديق الادعاءات ضده، ومن ثم من احتمال اتخاذ ضحاياه أي إجراء، عبر تسويقه لذاته متبجحًا باعتباره تقدميًا سياسيًا خلال مسيرته. لم يعد استعراضه فاعلًا (في الوقت الراهن على الأقل)، لكنه استطاع استخدامه إلى جانب سلطته المهنية لينخرط في إساءة فظيعة لسنوات. بعبارة موجزة، حفز استعراض واينستين الناس على الوثوق به أكثر مما يستحق.

يتلاعب بعض المستعرضين بالآخرين دون إدراك منهم أنهم يفعلون ذلك، بل قد ينتهي بهم الأمر إلى تضليل أنفسهم أثناء ذلك. انظر في قضية تد هاغرد، القس السابق لكنيسة نيو لايف [الحياة الجديدة]، وهي كنيسة كبيرة تقع في كولورادو سيرنغز، كولورادو. كان هاغرد ذات يوم رئيسًا للجمعية الوطنية للإنجيليين، التي تضم عشرات الآلاف من الكنائس المحافظة التي تمثل ملايين الأعضاء. اشتهر هاغرد في أرجاء البلاد بين

عامي ٢٠٠٤ و ٢٠٠٥، وتعود تلك الشهرة في جزء منها إلى ظهوره في فيلم تلفزيوني وثائقي بعنوان أصل الشرور؟ وفيه كان غاضبًا من أسئلة المحاور رتشارد داوكنز حول العلم ونظرية التطور، واستنكر غروره وأمره بالمغادرة. كانت معاملة هاغرد لداوكنز عرضًا واضحًا لغضب الذات الصالحة، الموجه نحو شخص من خارج الجماعة ما كان راغبًا في التسامح مع عيوبه (١٢).

كما جذب هاغرد انتباه وسائل الإعلام إليه لدعمه الصريح لتعديل في دستور كولورادو يحظر سماح الولاية بزواج المثليين، بل لم يجد الأمر حقيقًا بالنقاش الجاد إذ قال: «لسنا بحاجة لنقاش ما نراه نشاطًا جنسيًا مثليًا. ذلك مذكور في الكتاب المقدس»(۱۳). وهكذا بين هاغرد لكل المستمعين أن الإجابة عما كان حينئذ سؤالًا مطروحًا للنقاش الحامي كانت بسيطة واضحة في نظره. وبعد هذه الأحداث بفترة قصيرة، اتُهم هاغرد صراحة بعلاقته التي امتدت سنوات مع بائع هوى اشترى منه بلورات الميتامفيتامين (أ)، واعترف هاغرد بذلك، رغم إنكاره في بادئ الأمر.

أ) نوع من المنشطات تسبب الجرعات العالية منه هوسًا مصحوبًا بالنشوة والثقة بالنفس وفرط الرغبة الجنسية. (المترجمة)

وثق رعايا كنيسة هاغرد به أكثر، بسبب ما أظهره من نقاء أخلاقي، ولكن لربما خدع نفسه أيضًا في أمر نزاهته. يتلاعب المرء أحيانًا بانفعالاته الأخلاقية، كالغضب، لتعزيز وإدامة الانطباع عن نفسه بأنه فاضل (١٠٠)، كما عرضنا في الفصل الثالث. ربما نجح كثير من غضب هاغرد واستعراضه الصريح إلى حد كبير في إقناع نفسه بأنه امرؤ صالح حقًا، رغم إخفاقه في تطبيق معاييره في الأخلاقيات الجنسية. لقد خدع هاغرد رعايا كنيسته باستعراضه، ولعله خدع نفسه أيضًا.

ثمة درس عملي يستفاد من حالات كحالة هاغرد. إذ نعلم أن معظم البشر ينظرون إلى صفاتهم الأخلاقية نظرة أفضل مما تستحق. لذا حريٌ بنا أن نحذر من إغراء الاستعراض لنظهر بمظهر الأخيار. ولكننا، عبر استعراضنا، نجازف بتغذية أوهامنا، والانجراف أبعد فأبعد عن الانطباع الدقيق عن هوياتنا واهتماماتنا.

قد يعترض أحد واصفًا مخاوفنا من الخداع بأنها مغالاة. فليس الناس بأغبياء، إذ يدركون أن الجميع يريدون أن يراهم الآخرون أخيارًا، لذا فإننا نتوقع أن يتلاعب الناس قليلًا فيما يظهرونه من أنفسهم إلى العالم. وما دام حذرنا كبيرًا، فلن نهتم وفقًا لهذا عندما نرى تضخيمًا للذات يتخذ شكل الاستعراض الأخلاقي، فنتجنب بذلك أن نتعرض للخداع. تكمن مشكلة هذا الاعتراض في كون الاستعراض لا يكون واضحًا دومًا فيسهل تعيينه، وإلا ما كان مؤثرًا. فالقدرة على إبهار الآخرين مهارة يتفاوت تمتع الناس بها، وكذا هي الرؤية عبر التسويق الذاتي المضلل. إن قال أحد ما نود سماعه في الشؤون السياسية والأخلاقية، كنا عرضة لمباغتة مستعرض حقيقي. وسيكون من السذاجة البالغة القول إن بوسعنا أن نرى خداعًا كهذا أو أي نوع آخر بوضوح ومن ثم نهمله.

بوسعنا رؤية حالات كحالة واينستين وهاغرد في العالم، بعد حدوث الواقعة على الأقل. إذ نعلم أن المتورطين فيها يستعرضون، فنتحكم عندئذ بمستوى ثقتنا تبعًا لذلك. لكننا لا نتمتع بهذه القدرة دومًا. مخيف أن نفكر بعدد الأشخاص الذين منحوا الثقة أو الحب على نطاق واسع لأنهم مستعرضون موهوبون. وإذا كنا نحترم الآخرين فلن نلجأ إلى الاستعراض لكسب ثقتهم أكبر مما سيمنحونا لولا ذلك.

عرضنا حتى الآن نقاشين للاستنتاج القائل إن الاستعراض خطأ لأنه يقلل الاحترام. أولًا: عندما يستقوي المستعرض- أي أنه يلوم الآخرين ويهينهم ليتباهى بنزاهته فهو يعامل الناس معاملة كيس الملاكمة القابل للتبديل. ثانيًا: عندما يخدع المستعرض الآخرين بنزاهته، فهو لا يقلل بهذا من احترامهم

فحسب، بل يكتسب ثقة لا يستحقها عبر الخداع، ويغدو المستعرض قادرًا على الإساءة إلى الآخرين والنجاة بفعلته بسهولة أكبر.

لاحظ أن نقاشنا هذا يستهدف حالات من الاستعراض تتضمن الاستقواء والخداع تحديدًا. ولكن يسع المرء أن يستعرض دون اللجوء إليهما، ولذا فإننا نرى أن هذين النقاشين يثبتان أن كل حالات الاستعراض مهينة، ولا بد لنا من مزيد.

الانتفاع المجاني

تتجلى إحدى ميزات العيش في مجتمع مستقر باستمتاعنا بثمرة التعاون مع الآخرين في المشاريع الكبيرة. إذ يؤدي كل عمله، مهما صغر، ويتبع القوانين وتعم الفائدة الهائلة. فمثلًا، لدى كثير من الثقافات عادة عامة تتجسد بالوقوف في طابور لتلقي خدمة ما. وتقضي القاعدة المعتادة بأن يسمح المرء لمن وصل قبله بتلقي الخدمة قبل أن يسعى إليها، ولذا تغدو العملية الفوضوية القائمة على الصراع، بسيطة وهادئة (عادة).

وتظهر المشاكل بنمو المشاريع التعاونية، ومن هذه المشاكل استغلال البعض لمشاركات الآخرين حسنة النية. فينشق هؤلاء عن قوانين التعاون التي تحكم التفاعل، بغية الحصول لأنفسهم

على منافع أكبر. ويقلل هذا «الانتفاع المجاني» من احترام الذين يتبعون القوانين. سنشير في هذا القسم إلى أن مشاركتنا في الخطاب الأخلاقي العام مشروع تعاوني واسع النطاق. وسنناقش الانتفاع المجاني للمستعرضين من السلوك الصالح للآخرين في الخطاب العام، وهذه صورة أخرى لقلة احترام المستعرض للغير.

لنفترض أن لدينا مرعى معشبًا كبيرًا، ترعى فيه أبقارك وأبقار تسعة آخرين من جيرانك. تبلغ طاقة المرعى الاستيعابية ١٠٠ بقرة، وهذا يعني أن العشب سيكون وفيرًا لتاكله أبقار المستقبل، إن لم ترع في المرعى أكثر من ١٠٠ بقرة. أما إن حدث هذا فسيبور المرعى بفعل الرعى الجائر.

في البداية، سيسمح كل جار بأن ترعى بقرتان فقط. ولكن سيكتشف جار آخر أنه سيجني مالًا أكثر إن أتى ببضع بقرات أخر، فعشرون بقرة ترعى أقل بكثير من الطاقة الاستيعابية للمرعى. وسيظل الكلأ وفيرًا وإن أتى ببضع بقرات أخرى. ويكتشف جيران آخرون الأمر ويأتون بأبقارهم أيضًا لترعى، وعندئذ تجد أنك ستخسر إن لم تأت بأبقارك أنت أيضًا.

ما الذي سيحدث إن واصل هؤلاء جلب مزيد من الأبقار وأوشك المرعى على الوصول إلى الطاقة الاستيعابية؟ يمكنك التوقف عن جلب المزيد، ولكن لم تفعل ذلك؟ إذ لست تضمن احترام جيرانك للحد، وسيكون عملًا شاقًا مراقبة المرعى على مدار الساعة للتأكد عدم الإفراط في استهلاكه. لماذا تكون الأحمق الوحيد الذي لا يأخذ ما يمكنه الحصول عليه ما دام المرعى موجودًا؟

إن الحفاظ على المرعى يقع في المصلحة العامة فيواصلون الانتفاع به. ولكن حين يتصرف الناس بدافع المصلحة الذاتية المحدودة في مساحة مشتركة غير منظمة ذات موارد قليلة، فسيكون ذلك من مقومات دمار المرعى. يسمى هذا النمط من السيناريو بمأساة المشاعات (۱) (۱۰). بوسعنا جميعًا أن ندرك قدوم مآسي كهذه، وإن استطعنا اختيار ما نفعله لأنفسنا، فليس بوسعنا منعها. وأفضل ما يسعنا فعله بوصفنا أفرادًا أن نحاول انتزاع ما نستطيع من المورد العام قبل نفاده.

إن تعاطينا للكلام في الأخلاق، بصورة ما، مورد عام مثل المرعى. وهذا الكلام مورد قيم كما شرحنا في الفصل الأول،

⁽i) حالة استنزاف مورد مشترك من قبل الأفراد الذين يتشاركون به بصورة مستقلة وعقلانية إنما وفقا للمصلحة الذاتية لكل منهم على الرغم من إدراكهم أن استنزاف الموارد المشتركة يتعارض مع المصلحة المشتركة للمجموعة على المدى الطويل. (المترجمة)

فهو وسيلتنا الأولى لتطبيق الأخلاق على المشاكل العملية. كما أننا نحل، أو نحاول حل، كثيرًا من المشاكل المهمة عبر استخدام هذا المورد. ولكن إساءة استخدام الكلام في الأخلاق تؤدي إلى تدميره، مثلما حدث للمرعى في القصة من فرط الاستهلاك. وتتجلى إساءة استخدامنا عبر الإفراط في الوعظ، وإطلاق مزاعم أخلاقية غريبة أو كاذبة، أو استغلاله بصور تتضح فيها المصلحة الذاتية. هذا كل ما يحدث لدى انخراط الناس في الاستعراض الأخلاقي، وينتهي بهم الأمر، كما ناقشنا في الفصل السابق، إلى الحط من شأن رواج الكلام الأخلاقي في المجتمع.

وماذا يسعنا أن نفعل لمواجهة هذه المشكلة؟ يمكننا أن نفعل مثلما فعل رعاة الماشية بأن نرفع أكتافنا ونأخذ ما استطعنا أخذه لأنفسنا ما دام بعض السذج يواصلون أخذ الكلام في الأخلاق على محمل الجد. ولكنّ أمام رعاة الماشية خيارًا آخر، ونحن كذلك، ونعني به الخضوع المشترك لمجموعة من القوانين أو المعايير التي تحمي الموارد العامة.

في مثال المرعى، سيحميه نظام قوانين الملكية من تدمير الرعاة. وبدلًا من انشغال الرعاة في مراقبة مجهدة لرعي كل منهم، فالأحرى بهم أن يكون كل منهم مسؤولًا عن حصته من

المرعى، فيجنون فائدة الحفاظ عليها والقدرة على إبعاد الآخرين عن تدميرها.

لا يعقل تخصيص الكلام في الأخلاق قطعًا، فالتواصل يقوم بطبيعته على الموارد المشتركة. ولكن ثمة طرق أخرى، لحسن الحظ، لتجنب مأساة المشاعات (١٦٠). ينطوي أحد الحلول على تبني معايير تحمي ممارسة الكلام في الأخلاق من الإساءة. وعندما يتبناها عدد كافٍ من الأشخاص (وينالون العقاب لخرقهم إياهم)، فسنتفادى انحطاط هذا الكلام.

ولإدراك ما نرمي إليه، تأمل فكرة الفيلسوف ه.. پ. غريس بأن فائدة الحوار تعم الجميع إذ اتبع المشاركون مبادئ عامة (۱٬۰ وسمى هذه بالثوابت الخطابية (أ. ومن الأمثلة على هذه الثوابت «تجنب قول ما ينقصك الدليل الدامغ عليه»، و «لتتحدث بما له صلة»، و «تجنب غموض التعبير»، و «كن منظمًا». هذه معايير عامة علينا اتباعها في الحوارات العامة. وستصبح الحوارات مشروعًا مشتركًا بلا هدف، ما لم يلتزم الناس باتباع هذه المعايير.

⁽أ) ١- ثابت الكمية المعني بتقديم قدرٍ ملائمٍ من المعلومات. ٢- ثابت النوعية الذي يقتضي تقديم معلومات صحيحة. ٣- ثابت العلاقة أو الصلة إذ ينبغي للمعلومات المقدمة أن تكون ذات صلة. ٤- ثابت الكيفية المعني بتقديم المعلومة بوضوح. (المترجمة)

إن سألناك أتود شرب الشاي، فأجبت: «أحب الإبحار»، (فسيكون في ردك خرق لثابت الصلة). ينجح الحوار لأننا جميعًا نتبع بعض القوانين العامة.

نرى أن ثمة معايير أيضًا تحكم الكلام الأخلاقي المجدي، وهذا أحد الأسباب التي تجعل الناس يستاؤون من الاستعراض. ونعلم جميعًا أن بمقدور المرء الظهور بمظهر الصالح لدى إعلان دعمه للصواب. كما نعلم أن الهدف من هذا الدعم ليس الظهور بمظهر الصالح. تأمل الكلام المكرر للسياسي المتعطش للشعبية، الذي يستغل الكلام الأخلاقي في القضايا السياسية ليسوق لذاته صراحة. ومن يفعل هذا يخرق معايير السلوك الاجتماعي المقبول، فلعلنا نقترح ثابتًا للكلام في الأخلاق يقول: «لا تتكلم في الأخلاق لتسوق لذاتك، وبذا نحمي مورد الكلام في الأخلاق إن اتبعنا هذه القاعدة.

لنقل إننا محقون في كون هذا مبدأ جيد للحوار الأخلاقي. هذا يعني أن الاستعراض خطأ لأنه مجحف بحق من يحفظون مكاسب الكلام في الأخلاق عبر إحجامهم عن الاستعراض (۱۸۰). وقد يستخدم غير المستعرضين الكلام في الأخلاق ليظهروا بمظهر الأخيار، وقد يفرون منه جل الوقت. ولكنهم يكبحون أنفسهم ويلتزمون بالمعايير التي توجههم إلى استخدام الكلام

في الأخلاق بغية ترويج العدالة في العالم. وإن التزم عدد كافٍ من الأشخاص بضبط النفس، فسنتمتع كلنا بفوائد العيش في مجتمع يعتبر الكلام الأخلاقي فعالًا. من جهة أخرى، فإن المستعرض ينتفع من الناحيتين. فهو يتمتع بفوائد ضبط الآخرين لذواتهم ويستغل الكلام في الأخلاق لتحسين مكانته الاجتماعية. بعبارة أخرى، إنه ينتفع مجانًا من تضحيات الآخرين بينما يرفض التضحية بالمثل. فهو يستغل الآخرين، ويتصرف كأنما وُهب حرية أكبر من حرية غيره.

سيلاحظ بعض القراء صلة بين هذا النقاش والنقاشات في الفصول السابقة فيما يتعلق بالعواقب الوخيمة للاستعراض. في الحقيقة، تتجلى أحد المخاوف من أن يؤدي الانتفاع المجاني إلى تقليل منافع التعاون. ولكن مهم لنا أن نرى أن الانتفاع المجاني خطأ وإن لم يقاس أحد ضررًا ملموسًا بسببه. إنه خطأ لأنه مجحف بغض النظر عن الأمور الأخرى التي يحدثها. حين يتعاون الناس في ظل مجموعة من القوانين، فهم مدينون لبعضهم بعضًا باتباع هذه القوانين. ولدى خرق أحد قانونًا، يقصر في احترام رفاقه بوصفهم أندادًا له. هذا، ولا شيء سواه، هو منبع الخطأ في الانتفاع المجاني.

قد يتفق أحد ما بأن الكلام في الأخلاق يُعرف بكونه ممارسة مشتركة، لكنه يصر على أننا مخطئان في معاييره بصورة كبيرة. لعل الهدف الأولي من الأخلاقيات، وفقًا لبعض منظري التطور، هو تمكين التعاون بين الناس الذي يعتبرون أنفسهم متعهدين بالتزامهم. ويمكّن الكلام في الأخلاق التعاونَ بين هؤلاء الأشخاص بأن يتيح لهم التلويح لبعضهم بعضًا بأنهم جديرون بالثقة، وبخاصة عبر لوم المخطئين أو معاقبتهم (١٩٠). ولذا فإن التلويح للآخرين بخصالك قد يكون أهم مما يقبل رأينا، ويجب ألا ينتقص بوصفه دافعًا.

ولكن يجب أن نلاحظ أن ثمة فرقًا بين أفعال المرء التي تؤدي وظيفة التلويح من جهة، وبين شخص يفعل شيئًا بغية التلويح من جهة أخرى. فالتلويح سمة في السلوك الملحوظ يتعذر تجنبها، سواء أكانت مقصودة أم لا. غير أنه ليس مما لا يمكن تجنبه أن نتصرف بغية الاستعراض أمام الآخرين. ما يهمنا أن الناس سيتصرفون على نحو أسوأ عندما يبتغون التباهي. وإن صدق هذا، فإن المعايير ضد سلوك كهذا قد تكون صمام أمان مهمًا من أجل فاعلية الكلام في الأخلاق.

الخلاصة

الكلام في الأخلاق أداة، استخدمت في مشاريع قيمة هامة رائعة، لكنه يظل أداة. لقد كان هذا الكلام، وسيظل، نفعيًا في جعل العالم أكثر عدلًا، ولا يعني هذا أن كل مثال على الكلام في الأخلاق يرافقه شيء قيم أو جائز أخلاقيًا. فالمطرقة تستخدم لدق المسامير وإخراجها، وقد تستخدم أيضًا للاعتداء على الآخرين. لن يفرح أحد أبدًا تجاوز عمره الثالثة لكل تلويح بالمطرقة، ولا يجدر بنا أن نفرح لكل ما يقال في الكلام الأخلاقي.

الفصل السادس أيستعرض الصالحون؟

ركزت حجتنا الأخلاقية ضد الاستعراض، حتى الآن، على أثره على الآخر، وليس هذا بالغريب. فمعظمنا ينظر إلى الأخلاق من زاوية تأثير سلوكنا على الآخرين. وذكرنا في الفصل الرابع إن الاستعراض سيء لأن له ثمنًا اجتماعيًا باهظًا، ندفعه كلنا عندما يسيء المستعرض استخدام الكلام في الأخلاق. وذكرنا في الفصل الخامس أننا وإن غضضنا الطرف عن تبعات الاستعراض الوخيمة، فإنه خطأ لسبب آخر، ونعني به معاملته الآخر بقلة احترام.

ولكن الأخلاق أكبر من تقييم سلوكنا وأثره على الآخرين. نحن نصدر الأحكام بمدى صلاح الناس أخلاقيًا، فنقول أشياء من قبيل: «يستحق جيم الثقة»، و «كيري أنانية». وفي فعلنا ذلك فنحن نقيم شخصية الآخر.

إن الحديث عن الشخصية قد يظهر فروقًا أخلاقية مهمة بين الناس. لنفترض أن جيمي تتطوع للعمل في مأوى للمشردين، فتلعب الورق معهم وتساعدهم في الحصول على رعاية طبية،

وتحاول العثور لهم على وظائف دائمة. وهي تستمتع بهذا العمل وتتطوع لأنها تود تقديم العون لمن يعيشون حياة قاسية. وهي بهذا تتحلى بالسمة الشخصية (أ)، أو فضيلة التعاطف.

تطوع ويل أيضًا في المأوى، ويقوم بما تفعله جيمي. لكنه يكره التطوع، واضطر للقيام به لأنه يجري بحثًا لدور في فيلم. ويتظاهر تظاهرًا مقنعًا أنه يهتم، لكنه في الحقيقة يكره المشردين، ويود إلى العودة إلى تجاهلهم. إن سلوك جيمي وويل، في ظاهره، هو السلوك نفسه جوهريًا، لكنّ بينهما اختلافًا أخلاقيًا هائلًا، فجيمي هي الأكثر تعاطفًا. لذا فإن ثمة صفات أخلاقية لا يكشفها سلوكنا بالضرورة.

لا يساعدنا الحديث عن الشخصية الأخلاقية في تحديد الفروقات بين الناس فحسب، بل يسلط الضوء أيضًا على أسئلة أخلاقية تتعلق بمعيشتنا. فقد نسأل، مثلًا، إن كان امرؤ ذو شخصية منزهة عن الخطأ سيتحايل في تسديد ضرائبه، أو كيف يعامل الكريم أصدقاءه المحتاجين؟ لكننا في هذا الفصل سنسأل إن كان الصالحون يستعرضون.

تذكر أن وصفنا الأساسي للاستعراض يتضمن الرغبة في نيل التقدير. ما يحفّز المرء إلى حد كبير للاستعراض هو الرغبة بأن يراه الآخرون محترمًا من الناحية الأخلاقية. ولعل بعض القراء لاحظوا أن لا شيء من النقاشات التي قدمناها في الفصول السابقة أشار إلى عيب يعتور الإحساس بهذه الرغبة. لكن المشكلة التي تحدثنا عنها حتى الآن تكمن في الأمور التي يميل الناس إلى فعلها لأن الرغبة في نيل التقدير تدفعهم إليها. وسنزيد بالقول إن الإحساس بالرغبة في نيل التقدير بصورتها لدى المستعرض، عيب في شخصية المرء.

وضع الناس على مر العصور نصب أعينهم تصورات عديدة للفضيلة، ولا نزعم أننا سنمر عليها كلها(١). بل سنمحص بعض المقاربات الرائجة ونظهر، من خلالها، أن الاستعراض ليس أمرًا يفعله الصالحون عادة. لنبدأ بدراسة تصور تقليدي للفضيلة، يفعل الصالح وفقًا له الصواب في محله.

فعل الصواب لسبب وجيه

إن النظر بصرامة إلى السلوك الملحوظ الظاهري لامرئ يخبرنا إن كان يفعل الصواب. ولكن إن أردنا معرفة إن كان شخصًا صالحًا، فعلينا النظر أعمق من ذلك. إذ علينا أن نعرف، إلى جانب أمور أخرى، السببَ الذي يدفعه إلى هذا الفعل(٢). ما دوافعه؟

تأمل ويل وجيمي من مثالنا السابق. يقوم ويل بكل الأفعال الصائبة في المأوى، لكن الواضح أنه لا يتصرف كذلك بدافع الفضيلة. فهو يكره المشردين، ولم يتطوع إلا لأنه يحتاج خبرة الوجود معهم لأنه سيؤدي دور مخبول. يحتاج المرء إلى أكثر من فعل الصواب ليكون صالحًا، ووفقًا للنظرة التقليدية للفضيلة، فإن فعلك الصواب لسبب وجيه يجعل منك امراً صالحًا".

ولكن ما الأسباب الوجيهة؟ ما الذي يحفز الإنسان الصالح؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، سنبسط الأمور ونركز على ثلاثة أنواع من الدوافع الرئيسة لأفعالنا(٤).

- ١- الدافع الأناني: أنت مهتم بنفسك كليًا،
 وتتصرف وفقًا لمصلحتك.
- ۲- الدافع الغيري: أنت مهتم تمامًا بصالح الآخرين.
- ٣- دافع الواجب: أنت مهتم تمامًا بأداء واجبك،
 وفعل الصائب أخلاقيًا.

لنعد إلى مثال مأوى المشردين لتوضيح هذه الدوافع المختلفة. تتطوع جيمي في المأوى لأنها تريد أن يشعر المشردون بقيمتهم، ووجود من يستمع إليهم ويعتني بهم. وتسعى لمساعدتهم على تحسين صحتهم البدنية وأنظمتهم الغذائية، كما تعمل للعثور لهم على وظائف لأنها تودأن يفيدوا من نصيبهم في الحياة، ويفخروا بإسهاماتهم في المجتمع. باختصار، ما يدفع جيمي إلى هـذا كله هو الرغبة في مساعدة الآخرين، ودوافعها غيرية. وقد تحصل جيمي طبعًا على بعض المنافع الشخصية الإضافية من تطوعها، إذ يمكنها مشلًا إدراج هذه التجربة في سيرتها الذاتية. ولكن هـذه المنافع نتيجة لأفعالهـا، لا هدف لها لأن دوافعها غيرية.

بالمقابل، قـد يكـون دافع جيمي هـو الواجب، فقـد يدفعها

القلق للتصرف وفقًا للمبادئ الأخلاقية. أي أن تفعل الصواب لأنه صواب. يمكننا تخيل اقتناع جيمي- بدافع من نقاش أخلاقي، أو من ضميرها أو من تعاليمها الدينية- بوجود إلزام أخلاقي بمساعدة الفقراء. فتطوعت إذ أدركت أن عليها فعل ذلك.

لكن دوافع ويل أنانية بالمطلق. فهو لا يهتم لأمر المشردين، ويتطوع في المأوى لأنه يدرك أن ذلك سيساعده في أن يغدو نجمًا سينمائيًا. إنه يكره المشردين ويستغلهم ليطور مهنته. إن ساعده عمله الميداني، فسيصبح ثريًا ويتمكن في النهاية من الانتقال إلى ميامي وشراء قارب سريع مصنوع من الألياف الزجاجية. أو لنتأمل ميري التي تتطوع في المأوى، لأنها ترجو أن تحظى بمقابلة على التلفاز المحلي فتبدو بطلة في الأخلاق. هذه الدوافع ليست غيرية ولا من الواجب.

يندر أن تكون الحياة الواقعية بمثل هذه البساطة، طبعًا. فنحن نتصرف وفقًا لدوافع مختلطة، كما شرحنا في الفصل الثاني. نأمل أن توافقنا الرأي في قولنا إن تصور تطوع شخص في مأوى المشردين لدافع الواجب أو الغيرية أمر سهل، ولكن يصعب تخيل شخص صالح يتصرف وفقًا لدافع كدوافع ويل وميري. قد تعجب أيما إعجاب بعمل ويل أو ميري التطوعي، لكنك من غير ريب ستخفّض تقييمك لشخصيتيهما الأخلاقيتين، إن عرفت أنهما تطوعا بغية شراء قارب سريع أو الظهور على التلفاز. إن معرفة شخص حسن السلوك نافعة، لكن معرفة شخص يتحلى بشخصية رائعة نافعة ومثيرة للإعجاب.

أما وقد أدركنا الدوافع النمطية لدى الصالحين في التفسير التقليدي، لا بد أن نسأل: أيستعرض الصالحون؟ يشارك المستعرض في الخطاب العام بدافع الرغبة في نيل التقدير، إذ يريد أن يعتبره الآخرون محترمًا. لكن الرغبة في التقدير ليست بدافع الواجب ولا بدافع الإيثار، بل تبدو أنانية، أي أن المستعرض يريد الانتباه، ويريد أن يعتبر رائعًا من الناحية الأخلاقية.

أيثبت هذا أن الصالح لا يستعرض؟ نرى أن حقيقة مشاركة المستعرض في الخطاب العام بدوافع أنانية للغاية هي الدليل على تجنب الصالح للاستعراض. لكننا نرى أيضًا أن الحجة ستكون أقوى لدى النظر في الفضيلة المدنية. ولا يُعنى كل الخطاب الأخلاقي العام بالسياسة أو المجتمع المدني، لكن فكرة المواطن الصالح نقطة مقارنة جيدة لفهم معنى المشاركة المستحسنة في الخطاب العام.

الاستعراض والفضيلة المدنية

تعنى الفضيلة المدنية «تقديم المصلحة العامة على المصلحة الخاصة بالفعل والتفكير »(٥). والمواطن الصالح هو من ينحي مصلحته الخاصة جانبًا، عند ندائه لأداء واجبه المدنى في تعزيز الصالح العام. قد يقصر أحد في مراعاة هذا النداء فيستغل المؤسسات السياسية ويجعلها أداة لتعزيز مصلحته الخاصة. فقد يبدأ شخص، استثمر استثمارًا كبيرًا في التعهدات العسكرية، حملة لمرشح يدعم خوض الحرب، لا لشيء إلا لأنه يريد أن تزدهر استثماراته. أو الأسوأ من ذلك، قد يستغل سياسي المؤسسات السياسية لمهاجمة منتقديه، فيقترح برامج يكرهونها لأنهم يكرهونها، أو يحاول عرقلة مصالحهم بدافع الحقد. على نحو مغاير، قد يسعى أحدهم إلى منصب عام مهم بهدف تعظيم ذاته، عوضًا عن أن يكون لأي فائدة تعود على الصالح العام. تشمل هذه الأمثلة كل من يقدّم مصلحته الخاصة على الصالح العام، فدوافعهم عندئذ أنانية، لا يهمها شيء إلا المكسب الشخصي. ويسعى المرء بأي من هذه الصور، وفي الكثيرة غيرها، من أجل مصلحته الشخصية حصرًا، وبذا يفشل في أن يرقى إلى مستوى المثال في الفضيلة المدنية. يمكننا إجراء مقارنة مفيدة بين الفضيلة المدنية والمشاركة الفاضلة في الخطاب الأخلاقي العام. تذكّر قولنا إن دافع الشخص الصالح سيكون غيريًا في المجمل. في السياسة، قد يرغب في استخدام مؤسسات الدولة لتعزيز رفاه الآخرين. وفي الخطاب الأخلاقي العام، قد يرغب في مساعدة الآخرين على التفكير بوضوح ووعي أكبر في المسائل الأخلاقية، أو تطوير النقاش واتخاذ مواقف تشجع الآخرين على معاملة بعضهم بعضًا النصني.

بالمقابل، قد يكون الواجب هو الدافع. في السياسة، يود الشخص الفاضل لدولته أن تخوض حربًا عادلة لأن هذا الصواب، مثلًا. وفي الخطاب الأخلاقي العام، يعرض شخص دافعه الواجب نقاشًا لأنه يود أن تكون قناعات الناس صحيحة. أي يريد أن يتصرف الآخرون بناء على أسباب وجيهة، مثلما يجهد هو لفعل ذلك.

ومثلما تعمد إلى تخفيض تقييمك لشخصية أحدهم لدى معرفتك أن دوافع مشاركته السياسية كانت أنانية، فإننا نرى أنه يجدر بك تخفيض تقييمك لشخصية أحدهم إن عرفت أن مشاركته في الخطاب الأخلاقي العام كانت للدافع نفسه. ومن

يستخدام الخطاب الأخلاقي العام للسعي إلى مكانة اجتماعية أعلى وإبهار الآخرين، فقد ابتعد كثيرًا عن الدوافع التي تترافق مع الفضيلة من وجهة النظر التقليدية.

فكر بخطاب ملهم أو مؤثر أخلاقيًا، يجعلك تُكبر الشخص الذي ألقاه. قد يتبادر إلى ذهنك خطاب غاندي «اتركوا الهند»، أو خطاب مارتن لوثر كنغ «لدى حلم»، أو سوجورنر تروث «ألست بامرأة». أيًا كان الخطاب الذي تراه الأكثر إلهامًا، فتخيل أن تشير شبكة البي بي سبي في تقريرها اليوم أن أمناء الأرشيف قد عثروا على مفكرة ضائعة منذ زمن طويل تعود إلى الشخص الذي ألقى الخطاب، وتحوي الكثير من التدوينات أثناء إعداد الشخص له. ولكن وردت في هذه المدونات اليومية إشارات قليلة إلى أمل الشخص بأن يحول خطابه مجرى الرأي العام نحو الرأي الأخلاقي الصحيح، أو أن يؤدي الخطاب إلى حصول فئة مهملة على المساعدة التي تحتاجها أو الاحترام الذي تستحقه. غير أن الذي شغل بال الشخص هو حرصه على المحافظة على مكانته في سجلات التاريخ بوصفه مثالًا للأخلاق يبهر شركاء رومنسيين محتملين بحبه للعدالة، وقوله لمجموعة الكلمات المناسبة التي سيقتبسها الناشطون على لافتاتهم إلى الأبد. ربما كانت آراؤنا مثالية ببعض أعظم أبطال التاريخ، لكن الناس معقدون. فمن جهة، ليس مهمًا حقًا إن كان بطل استخدم الكلام الأخلاقي بدافع أناني. إذ سيظل امرأ صالحًا وشخصًا رائعًا ما دام لم يكن مدفوعًا بالأنانية في كل مسارات حياته. غير أن الدليل على دوافعه الحقيقية يسلط على شخصيته ضوءًا مخيبًا للأمل. لن نقول إن شخصًا كهذا كامل الصلاح إن شارك في الخطاب الأخلاقي العام وهو يفكر بهذه الأهداف، حتى إذا كان لكلماته أثر إيجابي هائل على العالم. فإذا كان الذي يهمك إظهار أن قلبك في مكانه الصحيح، فهو ليس كذلك(1).

ولكن قد تكون ردة الفعل هذه على البطل المعتد بنفسه الباحث عن الشهرة مفرطة القسوة. لذا سنتأمل رأيًا مغايرًا للفضيلة، قد ينال المغرور من خلاله تقييمًا أفضل.

الفضيلة وعواقبها

قد يكون بعض القراء أكثر تعاطفًا مع الشخصية في سيناريو المفكرة. وبعيدًا عن إظهار أن للبطل المفترض نقاط ضعف، سيقولون إن هذه الحالة تظهره إنسانًا. يستحث الناس خوفهم على تراثهم، وآمالهم الرومنسية وسمعتهم بين الذين يحترمونهم. هذه رغبات بشرية طبيعية، ويجب ألا يفاجئنا أن يكون أبطالنا

متوترين مثلنا. لكن هؤلاء القراء يشيرون إلى درس مهم في هذه الحالة: قد نتحفز لإنجاز أشياء رائعة دون أن نتحلى بمجموعة نادرة من سمات الشخصية، بل يمكن للاهتمام الأناني أن يدفعنا إلى فعل الصواب في العالم.

أخذ بعض الفلاسفة هذا الرأي واستخدموه لتعزيز مفهوم للفضائل يختلف كليًا عن المفهوم الذي ناقشناه حتى الآن. فبدلًا من اعتبار الفاضل امراً يتحلى بصفات شخصية رائعة في حد ذاتها، يقولون إننا نطلق الفضيلة على ما تؤدي سمات الشخصية فيه إلى نتائج حميدة. ويسمى هذا الرأي بعواقبية الفضيلة، وهو مختلف عن الرأي التقليدي بالفضيلة(). وسمّي بهذا الاسم لأنه يقول إن الصفة تكون فضيلة إن أدّى التحلي بها إلى فعل أشياء ينجم عنها عواقب حميدة أكثر من الوخيمة().

فالصدق مثلًا فضيلة، وفقًا لعواقبية الفضيلة، لأنه يدفع الناس إلى فعل الصواب أكثر من الخطأ في العالم (٩). بعبارة أخرى، لا يجدر بنا، إن أردنا الحكم على شيء بأنه فضيلة، الاكتفاء بالنظر إلى نمط ما من القناعات والرغبات والعادات والدوافع، ثم نسأل إن كان هذا النمط «فاضلًا» أم لا. بل علينا النظر إلى نتائج التحلي بهذا النمط من القناعات والرغبات والعادات والواقع. عندما تحفز الشخص سمةٌ ما، فهل يتصرف

على نحو يسفر عن عواقب حميدة في المجمل؟ إن كان الجواب نعم، فهذه السمة فضيلة. والمعنى أننا لا نكتفي بالنظر إلى السمة لمعرفة إن كانت فضيلة أم لا، بل لا بد من النظر إلى ما تدفع هذا السمة الناس إلى فعله. لنفترض أن الصدق جعل الناس يتصرفون بطرق سببت البؤس والألم والموت وجرح المشاعر والمعاناة، فهل ستظل تراه فضيلة، أي شيئًا جعل أحدهم شخصًا صالحًا؟ عواقبية الفضيلة تقول لا، فأن تكون فاضلًا يعني التحلي بسمات تجعلك تفعل أشياء يكون لها عواقب حميدة.

الغرور بوصفه فضيلة؟

لنطبق هذه النظرة إلى سمات الشخصية على الاستعراض. يريد المستعرض أن يكسب تقدير الآخرين. وكما رأينا في الفصل الثاني، فإن ما يدفعه عادة إحساس بالعظمة والتمركز على الذات. وسنستخدم مصطلح «الغرور» للإشارة التي الصفة يتصف بها المستعرض. قد لا يكون الغرور هو ما نطلبه من مشارك مثالي في الخطاب الأخلاقي العام، كما ذكرنا آنفًا في هذا الفصل. ولكننا الآن ننظر إلى سمات الشخصية نظرة مختلفة، إذ نسأل إن كان لها عواقب حميدة تفوق الوخيمة. وعليه، أيكون الغرور فضيلة وفقًا لهذا الرأي؟ وإن كان الجواب نعم، ألا يعني هذا أن الاستعراض فضيلة أيضًا؟

رأى فيلسوف التنوير السكوتلندي في القرن الثامن عشر، ديــقد هيوم، أن الغرور- حب الشـهرة- مفيد في دفعنا إلى فعل الخير في العالم (١٠٠). إذ كتب: «يجب أن ينال الغرورُ التقديرَ باعتباره عاطفة اجتماعية وآصرة توحد بني البشر »(١١). فما الذي دعاه إلى قول ذلك؟ لقد أدرك إننا جميعًا نهتم عظيم الاهتمام بأنفسنا وأسرنا وأصدقائنا، لكن قليلين من يكون عندهم دافع مساعدة البعيدين. إن إيثارنا محدود للغاية، فنحب للآخرين أن يعيشوا في رخاء، ولكن فكرة تقديمنا تضحيات شخصية عظيمة لمساعدة الأباعد في العيش برخاء لا تستهوينا إلا قليلًا. لذا فإننا بحاجة إلى شيء آخر يحفزنا إلى بذل مزيد من الجهد لمساعدة الآخرين، ولا بـد أن نجنى منه شيئًا لأنفسنا. ودافع الواجب والإيثار لن يفيا بالغرض.

أما الغرور فوسيلة تجعلنا نتحرك بفعالية أكبر لمساعدة الآخرين. يهتم المغرور بنظرة الآخر له، ويتخذ تدابير مدروسة لرسم صورة اجتماعية إيجابية (١١٠). وما دمنا، إلى حدما، نقيم بعضنا بعضًا بناء على سماتنا الأخلاقية، فإن جزءًا من هذه الصورة يشمل الكلام في الأخلاق الذي يراد منه إظهار صلاحنا للآخرين. قد يكون الغرور» آصرة توحدنا» إذ يدفعنا لخلق شبكات احترام يكون لها نتائج إيجابية مهمة. وما دام للغرور

عواقب حميدة هكذا، فإن هذا سبب وجيه لاعتباره فضيلة، وما دام كذلك، فقد تغدو إحدى نتائجه النمطية - الاستعراض - هو ما يفعله شخص فاضل.

أيكون الاستعراض فضيلة إذن؟

يدفع الغرور المرء إلى الاستعراض، وقد يكون هذا حسنًا بصورة ما. إذ إن الاستعراض يشمل التلاوة المتكررة للدفاع عن القيم الأخلاقية المشتركة، وقـد يعيـد التأكيـد علـي المعاييـر الاجتماعية النبيلة وينشرها. فسماعك الآخرين يرددون القول بقيمة حياة البشر - وتكرارك ذلك لنفسك- يذكرك بوجود اتفاق عام على قيمة الحياة البشرية. كما يذكرك أن الآخرين سيحتقرون السلوك الذي يقصر عن إظهار الاحترام للحياة البشرية، وهو بهذا يقدم دافعًا إضافيًا لتحسن التصرف. فالاستعراض إذن يقوّي المعايير الاجتماعية ويشجع الناس على التصرف بأخلاق. وبخلاف زعمنا السابق، بأن الاستعراض يكشف عن نقص في الفضيلة، هل وجدنا أن الاستعراض هو حرفيًا ما يفعله الفاضلون؟ إن كان الغرور مفيدًا، أفلن يكون الاستعراض خيرًا إذن؟ فهذا هو ما يفعله المغرور (١٣). تصور للحظة أن الغرور فضيلة لأنه يسفر عن نتائج حميدة عمومًا. لكن هذا لا يعني أن الغرور فضيلة في كل موقف يواجهك، إذ لا بد من الحياء والتواضع في بعض المواقف وإن كان هواك يميل إلى الاتجاه المعاكس. فلا يليق بك وأنت تلقي تأبينًا في جنازة حماتك أن تسرد القصة المضحكة عن ردك ردًا مهينًا عليها. ما نعنيه أنه ليس كل مقام يناسبه الغرور، وإن اعتبرناه فضيلة عمومًا.

بالمقابل، لنفترض أن الصدق فضيلة للسبب الذي يراه أنصار عواقبية الفضيلة؛ أي أنه يدفعنا إلى أفعال لها عواقب حميدة عمومًا. لكن ذلك لا يعني أنه يدفع المرء إلى أفعال نزيهة دومًا. فقد تتطلب الفضيلة أحيانًا أفعالًا لا تتسم بالصدق. لنقل إن واحدًا من الغستابو سألك إن كنت تؤوي يهوديًا في قبو بيتك، فلن يجيب الفاضل قطعًا إجابة صادقة عن سؤال كهذا.

ولن يقول نصير لعواقبية الفضيلة يتحلى بالمنطق إن التصرف بغرور فاضل دومًا، بل سيزعم أن الفاضل يتصرف بتكبّر أحيانًا (١٤٠). وما دام ما يشغلنا هو الاستعراض – الفعل المغرور في الخطاب العام – فسنركز اهتمامنا على السؤال عما إذا كان لهذا الفعل عواقب حميدة عمومًا في الخطاب العام.

كرسنا الفصل الرابع للإجابة عن هذا السؤال. إذ عرضنا في تلك الصفحات سلفًا بعض التبعات الوخيمة للاستعراض، لذا فإننا قد عدنا لنقطة البداية. رغم أن للغرور نتائج جيدة في سياقات كثيرة، فإن التصرف بناء على الرغبة في نيل التقدير في الخطاب العام تحدث ضررًا كبيرًا. إذ لن يعامل الناس بعضهم بعضًا بالحسنى، بل سيلجؤون إلى الاحتيال بغية الحصول على مكانة أعلى بين أقرانهم، وسيحاربون من أجل مكاسب المكانة التي ستصبح لهم. كما أنها تجعلهم يسعون نحو فرص جديدة لإظهار صفاتهم الأخلاقية، مضحين بمصالح الآخرين المستحقة.

ولكن يمكن لنصير عواقبية الفضيلة الذي ما زال يأمل أن يسوّغ الاستعراض اللجوء إلى حجة أخيرة. هب أنك ظننت أحدًا يعرف حقيقة العدالة، سنستفيد كلنا إن شاركنا معرفته في الخطاب العام. ولكن إن لم يكن في هذا مصلحة له، فلن يتجشم العناء. من جهة أخرى، إن كان مغرورًا فقد يشاركنا ما يعرف، ويدعم التغيير الأخلاقي الإيجابي، فيحصل على شيء مقابل جهده، ونعني به التقدير لأنه رائع الأخلاق. في هذه الحالة؛ يكون الغرور سمة يفيد الخطاب العام من تحلي المرء بها، إذ تحفز الآخرين إلى مشاركة آرائهم في الأخلاق، فيسهمون في الحركات الاجتماعية المهمة.

لكن هذا التقييم المشرق للغرور مبني على تقدير ناقص لعواقبه. إن الغرور، في شكل الرغبة بنيل التقدير، لا يسقل قول الصواب أو فعله (إن كان هذا ما يفعله أساسًا). بل يحرض الناس للدفاع عن آراء أو اتخاذ مواقف بغية كسب انتباه إيجابي، لا لأن هذه الآراء صادقة أو الأفعال خيّرة. وتحفز الرغبة في السعي إلى المكانة المرءَ للاستعراض بدلًا من فعل الأمور التي سيكون لها أثر أخلاقي عظيم(١٥). بل قد تغير أنماط المشاريع الأخلاقية التي نكرس أنفسنا لها. عد إلى التفكير بظاهرة الحنق التي ناقشناها في الفصل الرابع. فشعور المرء بالحماس بفضل غضب زمرته يجعله يقدم على فعل، لكن طاقته ستتجه نحو ما تراه عصبته، عبر استعراضها، مشكلة جديرة بالانتباه. وسيكون الاهتمام مكرسًا لقضايا أخلاقية لتوفيرها فرص الاستعراض، لا لأهميتها. وإن كان صحيحًا دفعُ الغرور الناسَ إلى الخير في الخطاب العام، فإن ذلك سيكون له عواقب وخيمة كما ناقشنا. لعلك ترى أن غرورك في الخطاب العام يفضي إلى عواقب حميدة، ولكن ما الذي يميزك عن غيرك؟

إن كانت عواقبية الفضيلة هي المنهج السليم في تحديد الفضائل، فما من سبب وجيه للقول إن الغرور يثمر نتائج في

الخطاب العام أفضل من سمات أخرى، كالحياء والتواضع أو الفضيلة المدنية. ووفقًا لعواقبية الفضيلة، فالفاضل لا يستعرض.

الاستعراض ونيتشه

قد يتفق بعض القراء مع ما ناقشناه في هذا الفصل حتى الآن، لكنهم سيشعرون بشيء من الاستياء أيضًا. لقد قدمنا الأسباب التي دفعتنا إلى القول إن الاستعراض لا يلبي المعايير الأخلاقية التقليدية للفضيلة في فعل الخير لأسباب صحيحة. ولا يبدو أن السمات المترافقة مع الاستعراض قد حظيت باستحسان أنصار عواقبية الفضيلة. وإن كانت هذه تفسيرات كافية لافتقار الاستعراض إلى الفضيلة، فسيرى البعض أنها تلامس السطح فحسب. لا شك أن ثمة أمورًا أشد تقال عن شخصية المستعرض. فهو يُلبس محاولاته لتعزيز مصلحته الخاصة بلغة القلق على الآخرين، ويستخدم نمط الكلام نفسه الذي يعد مقبولًا اجتماعيًا بإساءته إلى من يكره. هذا ليس سلوكًا اعتياديًا تنقصه الفضيلة، بل هو شكل مختلف من الرذيلة جدير بالتحري والاستهجان.

أما القراء الذي ينتظرون استنكارًا أقسى للاستعراض، فلدينا ما تطلبون. ناقش بتوسع الفيلسوف الألماني فردرش نيتشه في القرن التاسع عشر أحد أهم الانتقادات للأخلاق التقليدية في تاريخ الفلسفة، إذ رأى أن الأخلاقيات الحديثة تمنع البشر من الوصول إلى طاقتهم الكاملة (١٦٠). وتصدق أسباب نظرته هذه على الاستعراض على نحو مثير. سنشرح بعضًا من أفكار نيتشه لإيجاد رأي آخر في الرذيلة المرتبطة بالاستعراض. وإن استوحينا التحليل الذي نعرضه من عمل نيتشه، لكننا لا نحاول معرفة رأيه بالاستعراض. ورغم أننا نخالفه الرأي في الأخلاق التقليدية، فنحن نرى تشخيصه لبذاءة بعض الممارسات الأخلاقية دقيقًا بصور مهمة، وسنمر على هذه الآراء لدى تقييم الاستعراض.

لنبدأ بفكرة نيتشه حول إرادة القوة. إذ يزعم أن كل الحيوانات، ومنها الإنسان، تتحفز بالفطرة لتضخيم شعور القوة؛ بمعنى الشعور الذي ينتاب المرء لدى تغلبه على ما يعيقه عن إدراك هدفه (۱۷). وقد يكون ما يعيقه خصم، أو ظروف مادية أو أي صعوبة عملية أخرى. نكره هذه المقاومة لأنها مثبطة، لكننا نحتاجها أيضًا لنشعر بإحساس النجاح الذي يعترينا بعد التغلب عليها.

كما يتبنى نيتشه الرأي المنادي بالحياة الجيدة للبشر، وهو ما يُعَرف عن فلاسفة الأخلاق اليوم بالكمالية (١٨٠). ووفقًا لهذه الفلسفة، فإن الحياة الجيدة هي حياة تمتاز بالسعي إلى مجموعة موضوعية من الصفات الجيدة، من قبيل المعرفة والعلاقات

العميقة بالآخرين وإبداع أعمال ذات قيمة جمالية وغيرها. لا إجماع على الموضوعات ذات المزايا في قائمة نيتشه، باعتبار أن ملاحظاته حول هذه النقطة غامضة. لكنه يؤكد تأكيدًا واضحًا على الإبداع، ويشدد دومًا على أهمية أن «يبدع» المرء نفسه. لا داعي لتسوية هذه المسألة، لأن رأي نيتشه ليس محل نقاشنا أصلًا. بل ما نرمي إليه أن المرء إن كان يعيش حياة جيدة فسيسعى للتغلب على العراقيل أثناء سعيه إلى أهداف بعينها، لا أي هدف. فبعض المساعي لا تستحق جهد المرء وطاقته. وكلما كانت الأهداف الموضوعية قليلة في حياة المرء، انخفضت جودة حياته، حتى إن رضى عما حقق.

يرى نيتشه أننا لا نتساوى في جودة سعينا نحو التفوق في الحياة. إذ يشعر البعض برضى عظيم في تضخيم شعورهم بالقوة عندما يحققون أهدافهم. أما الآخرون فمحبطون، ومحبطون للغاية. ومن هنا تبدأ المشكلة. فبدلًا من الإقرار بالهزيمة لدى من يفشل في ممارسة إرادة القوة عبر تحقيقه أهدافًا جديرة بهز شباك المرمى، يعمد إلى إعادة تعريف الحياة الجيدة، ومن ثم يشوه نجاح غيره. وينجم عن ذلك ما يسميه نيتشه «تمرد العبيد» في الأخلاق. وهذا يعني أن الفاشل يقول مواسيًا نفسه لإخفاقه إن فيه شيئًا مميزًا. وتبعًا لذلك، يُنتقَص من شأن التفوق الإنساني فيه شيئًا مميزًا. وتبعًا لذلك، يُنتقَص من شأن التفوق الإنساني

الحقيقي ويشوهه، كما يرى نيتشه. عندما يتغير تصور ثقافة ما لما هو قيّم استجابة لهذه المحاولات، فسيفضي هذا إلى ما يسميه نيتشه «إعادة تقييم القيم». فما اعتبر قبلًا علامة على فشل الإنسان يغدو صلاحًا أخلاقيًا، وما اعتبر تفوقًا إنسانيًا يغدو شرًا أخلاقيًا. وما يهمنا هنا أن تمرد العبد يشمل أشخاصًا يستخدمون الأخلاق إرضاء لإرادة قوتهم. يرى نيتشه أن ثقافتنا قد مرت بهذا التمرد مسبقًا، ولذا فإن قناعاتنا الأخلاقية خاطئة، لأنها وضعت لإحراج القوي وتشجيع الضعيف (١٠).

نحن نخالف نيتشه بشدة، في هذا التقييم العام الجوهري لحالة الأخلاق العامة. إذ نرى أن بعض التغييرات التي ينتقدها وبخاصة شيوع الاحترام لكل البشر باعتبارهم متساوين أخلاقيًا - هي تطورات إيجابية، بل منجزات ثقافية عظيمة. في الحقيقة، سيرفض نيتشه كثيرًا مما قلناه في هذا الكتاب، ورغم مخالفتنا له في بعض الأمور، فإننا نراه يقدم رأيًا مهمًا في الأخلاق عمومًا؛ إذ يستخدم الناس الأخلاق ليشعروا بالقوة ويفرضوا إرادتهم على الآخرين. وقد يساعدنا هذا الرأي على النظر إلى الاستعراض من زاوية جديدة.

يلجأ الناس إلى الأخلاق- والكلام في الأخلاق بخاصة-لغايات أنانية فيها منفعة ذاتية، كما جهدنا في الشرح خلال هذا الكتاب. وقلنا في بدايته إن الكلام في الأخلاق ليس سحرًا، لكنه قد يكون خدعة. ويلجأ الناس إليه بصورة مخادعة لتعزيز مصالحهم، كما توقع نيتشه تمامًا. ونراه محقًا في السبب الذي يدفع الناس إلى استغلال الأخلاق على هذا النحو لرفع مكانتهم، والإحساس بشيء من الرضا لأنهم ينجزون شيئًا في العالم. ولسنا نقول إن منطق الأخلاق خاطئ، بل إن الكلام في الأخلاق كثيرًا ما يكون جلد غنم تلبسه ذئاب بائسة أو ضعيفة، لا يمكنها الحصول على ما تريد عبر فعل قوة مباشر – أي بتحقيق التفوق إلى الحد الذي يشتهون- لذا يجدون وسيلة أخرى. فيقولون في أنفسهم إن اعتبارهم أشخاصًا صالحين منجز جدير بالاهتمام، ثم يعرضون خصالهم الأخلاقية التي تعزز ذواتهم. هذه مناورة ذكية، لكنها خدعة في الآن نفسه، وكثيرًا ما تكون رذيلة. إذ تشعرهم بالقوة لكن منجزهم فارغ(٢٠). فإبهار الآخرين بالاستعراض لا يشبه تحقيق التفوق.

ولكن لماذا لا يعد الحصول على تقدير الآخرين لما نملك من صفات أخلاقية هدفًا يستحق السعي؟ ذكرنا سابقًا أن دراساتنا التجريبية تشير إلى سعي المستعرض إلى نوعين من المكانة؛ إما الوجاهة: أي المكانة التي تنبع من ظن الناس الحسن بمعرفتك ومهاراتك ونجاحك. أو الهيمنة: أي المكانة التي تحصل عليها

عبر بث الخوف في نفوس الآخرين، من خلال الترهيب والإجبار ومظاهر القوة المفرطة.

لنتامل أولًا الاستعراض بغية الهيمنة على الآخرين. يعني هذا الاستعراض إعلاء نفسك عبر إطاحتك بالآخرين. فيحاول المستعرض امتلاك القوة الاجتماعية من خلال اعتباره الأخلاق سلاحًا، وهذا يقترب مما سماه نيتشه بتمرد العبد في الأخلاق ويوضح سبب عدم اعتباره جزءًا من هدف مستحق. ومثلما سعى «العبد المتمرد» الأصلي إلى استخدام الأخلاق أداة للهيمنة على الآخرين، فإن المستعرض يستخدم الأخلاق – والكلام في الأخلاق خاصة – ليكون له اليد الطولى. إن استعراض الهيمنة وسيلة للتضحية بالآخرين في سبيل ممارسة إرادة القوة.

والآن انظر إلى الاستعراض بغية الحصول على الوجاهة. ينطوي هذا النوع كثيرًا على بث الطمأنينة في نفوس عصبتك بأنك مثلهم، ولذا فإنك ذو قيمة. سيعجب النيتشوي من هذا المستعرض؛ أما من وسيلة أخرى تظهر بها قيمتك؟ إن التكرار الآلي للمصطلحات الأخلاقية التي يوافقه الناس عليها بديل زهيد الثمن ليظهر حقًا ما يجعله شخصًا مثيرًا للاهتمام يستحق الإصغاء إليه والتعامل معه. ويصدق الأمر نفسه على أشكال أكثر طموحًا من استعراض الوجاهة. إن أردت أن تثبت انتماءك إلى

جماعة، بالإضافة إلى ملاءمتك لدور بارز فيها، فإن اتكاءك على عكاز الكلام في الأخلاق باعتباره وسيلة تظهر بها قيمتك هي خطة الضعيف. إن التفوق الحقيقي صعب، ولكنه أصدق وثماره أكثر أيضًا.

وفقًا للمنظور النيتشوي، فإن الاستعراض ليس بأمر يفعله امرؤ فاضل. يكرس الصالح وقته وطاقته لأهداف حقيقية، تعم فائدتها على البشر لدى تحققها. لسنا بحاجة لموافقة نيتشه حول ماهية الأهداف. فقد نرى، مثلًا، أن السعادة والمعرفة والنجاح والفضيلة الأخلاقية والعلاقات أهداف إنسانية مركزية حقيقية (۱۱). وأيًا كانت، فنحن نوافق نيتشه في هذا على الأقل. لن يلجأ الفاضل إلى استغلال الأخلاق - والكلام في الأخلاق - أداة لإرضاء إرادة قوته، وهذا يعني أن الفاضل لن يستعرض. إذ لا يهمه المحاولات التافهة لاكتساب الوجاهة عبر الاستخدام المراوغ للكلام في الأخلاق.

الخلاصة

وصلنا إلى نهاية نقاشاتنا ضد الاستعراض. إذ ركزنا في الفصول السابقة على العواقب الوخيمة للاستعراض، والصور التي يقصر بها عن معاملة الآخرين باحترام. وتحدثنا في هذا

الفصل عن أخلاقيات الاستعراض من زاوية مختلفة، بطرح السؤال عن سلوك الفاضل في الخطاب العام. وأظهرنا من النظرة التقليدية للفضيلة أنك قد تقلل تقديرك لشخص ما إن عرفت أنه يستخدم الكلام في الأخلاق لتعزيز مصلحته الخاصة بدلًا من الصالح العام. وهذا دليل على أن الاستعراض ليس أمرًا يفعله فاضل. كما ناقشنا منهجًا مغايرًا يقول إن الفضيلة تعد فضيلة متى كان لها عواقب حميدة. ونوهنا أنه إن كان الغرور فضيلة عمومًا، فسيكون له في الخطاب العام كل التبعات السيئة التي ذكرناها في الفصل الرابع. ولا تعد المشاركة في الخطاب العام فضيلة إذا اعتبر أداة للتسويق للذات. وأخيرًا، أطلقنا أقسى أحكامنا لدى نقاش آراء نيتشه في الاستخدام المضلل للأخلاق، لنقول إن الاستعراض وسيلة مثيرة للشفقة وشائنة لمحاولة الإحساس بالقوة.

الفصل السابع السياسة باعتبارها مهرجانًا للاخلاق

قد يشتهر السياسيون، أكثر من أي مجموعة أخرى، بالاستعراض، إذ نرى العناوين الرئيسة تتهم السياسيين به طوال الوقت:

«على السياسيين أن يكفوا عن الاستعراض ويبدؤوا بمواجهة الحقائق»(١).

«إن قانون 'حماية أعضاء الخدمة' استعراض سياسي في مشكلة لا وجود لها، وقد يسبب ضررًا حقيقيًا»(٢).

«أوباما يتهم الجمهوريين 'بالاستعراض'" ("). «الرئيس أوباما يستعرض بتوقيعه البيانات (١٤).

لن نفاجاً بهذا، فالسياسيون تحت الأضواء لأنهم يسيطرون - أو يأملون أن يسيطروا - على السلطة السياسية. وفي هذه المنطقة نجد التعبير المستمر عن وجود خطب ما في العالم، وكيف يجب أن تكون الأمور. بعبارة أخرى، إن جزءًا من توصيف

عمل السياسي هو تقديم مقتطفات من الكلام الأخلاقي ليستهلكه العامة. يهتم السياسيون في الأنظمة الديمقراطية بترسيخ صورة شعبية محبوبة، لأنهم يريدون أن ينتخبوا، كما يريدون كسب دعم الشعب لبرامجهم وتشريعاتهم الأثيرة. لذا فإن كلامهم في الأخلاق يهدف عادة لتحفيز دعم العامة. وليس السياسيون، بطبيعة الحال، باللاعبين الوحيدين. إذ يود الناشطون السياسيون، مثلًا، أن يسيطروا على الرأي العام ويحشدوا الدعم السياسي، ويؤثروا في السياسيين والناشطين الآخرين.

سنستخدم مصطلح الاستعراض السياسي للإشارة إلى الاستعراض الأخلاقي الذي يشارك فيه السياسيون وغيرهم من الممثلين السياسيين (كالناشطين) باعتباره جزءًا من النشاط السياسي. وسنتطرق في هذا الفصل إلى السؤال عما يحل بالسياسة في النظام الديمقراطي عندما يكافأ الاستعراض.

إن الجواب المضني عن هذا السؤال سيحتاج كتابًا منفردًا. لذا سنكتفي بالتركيز على ثلاث نتائج سلبية للاستعراض السياسي في الأنظمة الديمقراطية. ولكن قبل أن نشرع في تفصيل تلك المسائل، لا بد من شرح السبب الذي يجعل من السياسيين مستعرضين بارزين.

لماذا يتباهى السياسيون؟

يسهل استهجان استعراض السياسي، لأنه كثيرًا ما يكون جبانًا مسوقًا للذات بوضوح. ولكن إن تراجعنا خطوة وفكرنا بالمثيرات التي يواجهها السياسي، لبدا استعراضه مفهومًا أكثر، بل لا مناص منه. يستعرض السياسي أكثر من غيره، كما نرى، لأن لديه محفزات أكثر تدفعه لذلك. إذ يمتلك، مثل كثيرين، دوافع نرجسية، لكن السياسة الانتخابية تمنحه جمهورًا مستعدًا متحمسًا لن يتسنى أمثاله لمعظمنا. كتب عالما السياسة پيتر هاتمي وزولتان فيزكاس:

تقدم السياسة مسرحًا مثاليًا للتعبير عن النرجسية؛ فالتراشق اللانهائي للإهانات بين السياسيين، ورسائل التعبئة المقلقة المشخصنة المشحونة بالتوتر التي تبثها الحملات، والزعم بأن حاجات جماعة أهم أو أكثر شرعية من حاجات الأخرى، والمكاسب الحقيقية التي يحرزها الناس عبر مشاهدة أبطال قضاياهم يحطون من شأن خصومهم تكشف النرجسية [وتنشطها] في العامة مثلما تفعل أدوات أخرى (٥).

إن للاستعراض السياسي مخاطر أكبر من مخاطر استعراض أصدقائك. إذ لا يحاول السياسي المستعرض الفوز في نقاش وإخراس خصمه أو التباهي في وسائل التواصل الاجتماعي فحسب، بل بوسعه أن يسيطر على مانحين كافين لإدارة حملة قوية، إن نجح في استعراضه. كما يسعه أن يكسب ثقة ناخبين كافين لترشحه. تمنحه هذه العوامل وغيرها نفوذًا يكفي لإقناع الزملاء أو الضغط عليهم للتصويت على تشريع بصورة ما. كما أن الناشط السياسي يمكنه، إن كان استعراضه ناجحًا، أن يحشد آلافًا - بل ملايين- للاحتجاج. من جانب آخر، إن أخفق السياسي في إبهار الأشخاص المناسبين، خسر الدعم المالي من حزبه، ورأس المال السياسي أ والأصوات في صندوق الاقتراع، ومن ثم سيجري التخلص منه. ويواجه الناشطون، وبخاصة المحترفين منهم، مخاوف مماثلة(٦). ربما لم يضطر أكثرنا إلى مواجهة هذه المشاكل، لا لأننا نفتقر إلى الرؤية الاجتماعية للتأثير في كثير من الناس فحسب، بل لأننا أيضًا لا فرصة لنا للسيطرة على السلطة السياسية يومًا.

⁽i) يكتسب السياسي رأس المال هذا من خلال فوزه في الانتخابات، واتباع السياسات ذات الدعم الشعبي، وتحقيق النجاح باستخدام المبادرات، وتقديم الدعم للسياسيين الآخرين. (المترجمة)

يدرك السياسي أن كثيرين يلجؤون إلى إبهار الناخبين. كما يـدرك تعطـش الناخبين إلى مهرجـان أخلاقي (٧). في واحد من استطلاعات الرأى التي أجرتها [وكالة الأنباء] أسوشيتد برس، قال معظم المشاركين إن أمور «الشخصية» كانت أهم من أمور «السياسة»(^). وفي استبيان مشترك بين وكالة سي إن إن وصحيفة يو إس أي توداي ومؤسسة غالوب وُجد أن الحد الذي يشترك فيه المرشح والناخب القيمَ نفسها كانت الصفة الأهم التي يبني عليها الناخبون تصويتهم للرئيس(٩). ووفقًا لأحد الخبراء الاستراتيجيين في الحزب الديمقراطي، «فإن الحملات الرئاسية في العصر الحديث في جوهرها اختبارات للشخصية، إذ تميز الشخصية بوجه عام باشتمالها على مجموعة فسيفسائية من السجايا، من قبيل الهيئة والجدارة بالإعجاب، والبصيرة والفلسفة، والإيديولوجيا والسيرة الذاتية، ومهارات التواصل والـذكاء، والقـوة والتفـاؤل، والتعاطـف والأخلاقيـات، والقيـم وغيرها»(١٠). كما لاحظ علماء السياسة أن الحملات في مجملها تقوم على إقناع الناخب بتحلي المرشح بسمات شخصية معينة(١١).

لم يهتم كثير من الناخبين بدعم السياسي الذي يرونه صالحًا؟ قد يكون شخص مشكوك في أخلاقه، لكنه ذكي متمكن

وعلى قدر من التعليم كفؤًا في تطبيق القوانين «الصحيحة». يفضل الناخبون أن يمثلهم أشخاص صالحون لسبب واحد، ذلك أن السياسيين «ينطقون بلسان» الناخبين، ويريد الناخبون أن يتحلى ممثلوهم بشخصيات رفيعة. أو ربما يريدون تجنب دعم مساعي شخص فاسد، بصرف النظر عن كفاءته في إعادة صياغة قانون الضرائب.

ويعتبر آخرون شخصية السياسي ممثلًا لشيء آخر. ويستغرق معرفة أفضل القوانين، بل أنسب السياسيين لتطبيقها كثيرًا من الوقت والجهد. إذ يرى بعض الناخبين أن الشخص الأمثل سيطبق أفضل القوانين، لذا فإن الأسهل تقييم شخصية المرشح والتصويت للأفضل (١٢)، فيصوتون لمن يبدو ذا أخلاق حميدة (١٣).

وأيًا كانت الأسباب، يبني الناس تصويتهم على الشخصية الأخلاقية أو القيم المشتركة للسياسيين. ولن نحسم الأمر فيما إن كان ينبغي التصويت للمرشح بناء على شخصيته أو أخلاقه (١٤)، لكن واقع الحال يظهر أن معظم الناس ليسوا على اطلاع كاف يتيح لهم اختيار مرشحين بناء على مستوى معرفتهم أو خبرتهم السياسية (١٥). ما نود قوله إن الناس يمنحون أصواتهم بناء على حكمهم على شخصية المرشح. فهم يرون مثلما رأى الرئيس الأسبق رتشارد نكسن أنه «لا يجدر بك منح رجل سلطة ما لم

يكن ذا شخصية قوية. فالشخصية هي أهم مؤهلات رئيس الولايات المتحدة (١٦).

يدرك السياسي الحاجة إلى عرض خصاله الأخلاقية، لأن العامة تهتم بالشخصية. فإن أردت معرفة اهتمام سيناتورك بالفقراء، فسيعمد إلى إظهار مقدار اهتمامه. وهذه الحاجة إلى المظاهر الأخلاقية تحول السياسة إلى مهرجان للأخلاق.

يطالب الناخبون أن يعرض السياسي خصاله الأخلاقية، ولذا فإننا لا ننكر أن الاستعراض الأخلاقي سيكون بالغ التأثير في تحقيق الغايات السياسية، حتى الغايات النبيلة منها. قد يعني هذا أن الاستعراض مباح للسياسيين أكثر من إباحته لنا. سنعود إلى هذه المسألة في نهاية الفصل، ولكن أيًا كان تأثير استعراض السياسي، فإنه سيظل له ثمنه. مع ذلك، قد يكون الكذب أيضًا وسيلة فعالة لتحقيق الغايات السياسية، وقد يصدق الأمر نفسه على اعتقال المعارضين. غير أنه ليس بمنطقي الدفاع عن أخلاقية هذه الممارسات بالقول: «هي، هذا يؤدي إلى انتخاب من أميل إليه!»

إن الاستعراض في السياسة أداة فعالة في بعض الغايات، وقد يكون تجنبه محالًا. ولا بد من إدراك أن سبب نجاح الاستعراض هو رغبة الناس في أن يبدأ سياسيوهم مهرجانًا

أخلاقيًا، لكن البعض يرى أن المهرجان ليس ادعاء مفحمًا في حجته. إنه يجبرنا جميعًا على دفع أثمان باهظة، وقد يكف الناس عن تحفيز الاستعراض السياسي إن أدركوا هذا الثمن بوضوح. سنحدد، فيما بقي من الفصل، ثلاثة أثمان للاستعراض السياسي في النظام الديمقراطي.

مشكلة اللاتسوية

يتمثل أحد الانتقادات الكلاسيكية التي تنال من الأنظمة الديمقراطية في تحولها إلى حرب بين الأحزاب؛ أي مجموعات مستقطبة تهدف إلى تعزيز مصلحتها على حساب غيرها(١٧). غير أن إحدى الأدوات الحاسمة في منع وقوع هذا القدر -أو تأخيره على الأقل- هي الخطاب العام السليم. إذ يتيح للأفراد والجماعات مواجهة مشاكلهم وشكاواهم المشتركة سويًا، والتشاور لحلها. يعتمد خطاب كهذا على ظروف ثقافية سياقية؟ نذكر منها التعبير عن الذات قليل التكلفة، ومعايير الصدق، والمساحة للاختلاف المقبول، ودرجة من انفتاح الأذهان، والثقة الاجَتماعية (١٨). لقد عرضنا قبلًا تدخّل الاستعراض ببعض هذه القيم، فقد يقوض، مثلًا، الثقة بين المواطنين عبر تشجيعه السخرية وازدراء الخطاب الأخلاقي العام. إلى جانب الأشكال

الشائعة للاستعراض كالتكثيف والتلفيق اللذين يروجان لاستقطاب الجماعة.

يسهم الاستعراض السياسي فيما نسميه مشكلة اللاتسوية. إذ يهدم ظروفًا قد تؤدي إلى التسوية بين جماعات سياسية متعارضة. وبهـذا يجعـل الاسـتعراض النظـام الديمقراطـي أكثر عرضة لخطر الشقاق الحزبي. ولا يسهم الاستعراض في استقطاب المجموعات فحسب، بل يصعّب على أعضاء المجموعات المتعارضة تنحية اختلافاتهم جانبًا والاتفاق على حل المشكلات في شروط يقبلها الناس. فالاستعراض إذن يؤدي إلى ما هو أكبر من خلق الانقسامات في المجتمع، إذ يجعل تجاوزها صعبًا عبر حشد نقاط واسعة للخلاف. بوسعنا معرفة كيف يقوض الاستعراض احتمال التسوية بالنظر إلى طريقتين شائعتين للاستعراض تستخدمان في السياسة: (١) الخلاف داخل الجماعة، و(٢) الخلاف خارج الجماعة.

عندما يتباهى الممثل السياسي بإذكاء الخلاف داخل الجماعة، فإنه يحاول أن يثبت لأشباهه سياسيًا أنه يشاطرهم قيمهم. وكثيرًا ما يتجلى ذلك في إظهار المرء أنه نقي الإيديولوجيا، أو أنقى من خصومه السياسيين داخل حزبه، مثلًا. وغالبًا ما تكون صور النقاء الإيديولوجي ذات طابع أخلاقي. بوسع المرء أن

يتخيل، مثلًا، سياسيًا يقول إن كل من تهمه العدالة سيدعم قانون الحد الأدنى للأجور، الـذي يقضى بخمسة عشـر دولارًا أجرًا للساعة. فهذا النمط من المزاعم الأخلاقية يخدم هدفًا سياسيًا، إذ تضع من يطرحها في طليعة جماعته؛ أي بين النخبة القليلة التي تدفع بالجماعة إلى تبنى آراء جديدة راديكالية. ولا شك أن الذين يضعون حدود أرضية أخلاقية جديدة سينالون الثقة بأنهم لن ينكصوا، وهذا مما يثلج صدور كثير من الأشياع. إذ يرون في النقاء الإيديولوجي قيمة أكبر من الرغبة في التسوية لإنهاء الأمور. ولا يحبذ الموالي للحزب أن يسمع من قائد مرتقب أنه راغب في التنازل عن القيم التي جعلته مرشحًا جذابًا في أعينهم في المقام الأول.

وقد تصادف سياسيًا يتبجح برفضه التسوية باعتباره مظهرًا للنقاء الإيديولوجي، ولا يفاجئنا أن تقدم هذه البيانات على هيئة مناشدات للعصبة. عندما ترشح يد كروز لمجلس الشيوخ أول مرة، قال لحشد من أهالي تكساس أثناء جولة الانتخابات الأولية للحزب الجمهوري: "إن كنتم تبحثون عن معتدل عتيد يذهب إلى واشنطن ويتفق مع الحزب الآخر... فأنا لست بذلك الرجل" (١٩٠). كان كروز يشير إلى الانفتاح الواضح لخصمه، الجمهوري ديـ قد ديوهيرست، في دعم قانون الرعاية المخفض الجمهوري ديـ قد ديوهيرست، في دعم قانون الرعاية المخفض

التكاليف(أ)، الذي يرعاه الحزب الديمقراطي: «لن يساور الشكُ مَن ينظر في سجل ديوهيرست في المجلس التشريعي لتكساس في أنه لن يمشي فحسب، بل سيجري لينضم إلى مؤيدي التسوية في مجلس الشيوخ». وفاز كروز بالمقعد.

يرى كروز أن عمله يكمن في الدفاع عما هو جلي في صوابه، بدلًا من العمل مع الطرف الآخر. «لا أظن واشنطن تحتاج مزيدًا من التسويات، بل ما تحتاجه هو المزيد من المنطق والمزيد من المبادئ (٢٠٠٠). لا شك أن هذا النوع من الكلام يشنف آذان مؤيدي كروز في معنى المنطق. بل قد يسمع المرء أحيانًا خصومًا سياسيين يقولون إنهم يحبذون الإفصاح عن العاطفة؛ أي إيثار المبدأ على الذرائعية. فهي، كما يقولون، تغيير مستحب بعيدًا عن الذين يقفون على الجانب الخاطئ من التاريخ، ممن يتخذون مواقف بدافع الجشع والفساد وغيرها من الدوافع الوضيعة.

المشكلة التي نود التشديد عليها أنه كلما اصطبغت مسألة سياسية بطابع أخلاقي أكثر، قلّ ميل الناس نحو التسوية فيها. وجد عالم السياسة تموثي ريان أن الناس لا يميلون كثيرًا إلى

⁽أ) يعرف أيضًا بأوباما كير، هدفه توفير تأمين صحي شامل لكل أمريكي بتكاليف منخفضة. (المترجمة)

تسوية مسألة ما حالما يحولونها إلى مسألة قناعة أخلاقية، وهذا من المواقف الأخلاقية القوية التي ناقشناها في الفصل الثالث (٢١). فكلما كان رأيك في إصلاح الضمان الاجتماعي، وحق المفاوضة المشتركة (أ)، وأبحاث الخلايا الجذعية، أو زواج مثليي الجنس جزءًا من قناعاتك الأخلاقية الجوهرية المحورية، كنت أقل انفتاحًا على التسوية فيها.

ولهذا يقوض الاستعراض احتمالات التسوية السياسية. وكما رأينا، كثيرًا ما ينطوي الاستعراض على الوعظ، أي التطبيق غير الجائز للأخلاق في غير موضعه، أو الغلو في الآراء الأخلاقية. فيحول الوعظ المسائل العادية إلى مسائل أخلاقية. ويبحث الواعظون دومًا عن مجالات جديدة لتطبيق آرائهم الأخلاقية الفائقة، وثمة ضغط تنافسي لتأصيل هذه المخاوف في قناعات المرء. وهكذا تتسع مساحة المسائل التي يحمل الناس إزاءها قناعات أخلاقية. وكلما اتسعت وقويت جراء الاستعراض، غدت التسوية أصعب.

هذا خطير. يحتاج الممثل السياسي إلى تشجيع تنمية قناعات أخلاقية حول مسائل ليست بذات صلة لحياة أفراد

⁽i) عملية التفاوض بين أرباب العمل ومجموعة من الموظفين التي تهدف إلى التوصل إلى اتفاقات لتنظيم ظروف العمل. (المترجمة)

عصبته، وسيستجيب هؤلاء بتبني موقف لا يلين. يقول روبرت دال محذرًا: «إن الاختلاف على إطلاقه أفضل من الاتفاق على صفقة ناقصة في نظر الرجل ذي الأخلاق المتحجرة»(٢٢).

ثمة سبب وجيه لتحاشي السياسي الحذر إطلاق الكثير من التصريحات القطعية او اتخاذ مواقف أخلاقية خبط عشواء. لماذا؟ لأن الناس حينئذ سينتظرون منه أن يلتزم بمواقفه. فإن غير رأيه أو تراجع عن التزامه، عاقبه الناخبون واعتبروه أقل استحقاقًا للدعم ودوره أقل تأثيرًا(٢٣). إذ يتوقع الجمهور ألا تتذبذب قوة الالتزام الأخلاقي لدي ظهور معلومات جديدة، مثلما هي الحال في الالتزام الذرائعي(٢٤). ولكن هذه سخافة، مثلما يعرف أي فيلسوف أخلاقي مختص. إن ما يتوجب علينا فعله أخلاقيًا في أي حالة يعتمـد على الوقائع، مثلما تتغير اعتبـارات الحذر أو الجدوى نظرًا لظهور حقائق جديدة. أيجدر بنا خوض الحرب؟ أنفرض ضريبة على انبعاث الكربون؟ أنلغي قانون الحد الأدني للأجور؟ تعتمد إجابات هذه الأسئلة في جزء منها على مجريات الأحداث. ولا بد من النظر إلى الضرر المرافق وعدد القتلى من المدنيين إن أردنا الإجابة عن السؤال الأخلاقي بما يجدر بنا فعله. كما أن أفضل دليل لدينا هو تغير ماهية الحقائق كثيرًا، ولكن هذا لا يعني انتفاء وجود حقيقة أخلاقية في هذه الأسئلة، بل يعني أن الإجابة عنها صعبة، والعقلاء -ومنهم السياسيون-عليهم تغيير آرائهم بتغير البيّنة.

ولكن الناس يحسبون الآراء الأخلاقية لا تقبل التغيير، لذا يؤثر الاستعراض في قدرة الممثل السياسي على الحكم. ولدى إعطاء الجمهور ما يريد عبر الاستعراض أو محاولة تجنب التنافس داخل الجماعة بإظهار النقاء الإيديولوجي، يجازف السياسي بتأطير نفسه بدلًا من المحافظة على مرونته. بعبارة أخرى، قد يحتاج السياسي إلى تغيير مساره لفعل الصواب، ولكنه يُمنع من فعل ذلك لأنه اتخذ موقفًا أخلاقيًا متشددًا يظهر نقاءه الإيديولوجي. ولا يحول الاستعراض الذي يستهدف الأشياع بين السياسي وقدرته على التسوية مع الطرف الآخر فحسب، بل يحول ناخبوه أيضًا بينه وبين فعل الصواب، أو أن يفعله دون إثارة ردود فعل عنيفة خطيرة، مهما تكن الظروف.

ويتخذ الاستعراض السياسي أيضًا شكل الهجوم على الجماعة المخالفة. ويكون ذلك برسم فروق حادة بين المستعرض والجماعة المخالفة، مثل التي يتسم بها حزب سياسي معارض. فالطرف الآخر يكره الأقليات، لكنك تحب الجميع وترحب بهم. أنت تهتم بالعمل الجاد وتحمل المسؤولية، لكنهم يكافئون الكسول. أنت موظف مدني محب للغير، وهم

واقعون تحت سيطرة المصارف الكبرى. أنت تريد عالمًا مزدهرًا هادئًا، ولكنهم يريدون دولة عنيفة فاشية قائمة على الإثنية. تريد المحافظة على لغة ثقافتك وعاداتها، ويريدون إقامة الشريعة.

يتخذ الاستعراض عبر مهاجمة الجماعة المخالفة شكل تقديم صورة مشوهة لخصومك، أي تقديم بعبع واحد بوصفه بديلًا رمزيًا لكل الجماعة. وغالبًا ما يكون هذا البعبع شخصًا اشتهر بنقيصة مرتبطة بآرائه الأخلاقية والسياسية. بل قد يكون عديم الأهمية في القضية أو الحركة السياسية التي يفترض به تمثيلها. تأمل، مثلًا، استمرار بعض المحافظين في الولايات المتحدة في الإشارة إلى علاقات الرئيس الأسبق جون كندي خارج إطار الزواج باعتبارها دليلًا على فساد جوهر الحزب الديمقراطي المعاصر، أو انتقاءهم وتكرارهم تعليقات مسيئة لناشط من ليبرالي هوليوود باعتبارها أفضل مثال على طرح الطرف الآخر.

وينتقي التقدميون من غلاة شخصيات الإعلام المحافظ – من أمثال آن كولتر، وتومي لاهون وألكس جونز – فيضخمون خطورتهم حتى ينظر إليهم على أنهم تجسيد لليمين المختل. ويستشهد المستعرض بأسماء كهذه ليتبجح بمكانته، عبر الفكرة المعهودة: «هذا الشخص الذي نتصدى له».

ويحقق الاستعراض الترهيبي أمرين: فهو أولًا يلمح إلى أن الجماعة المخالفة ماكرة للغاية ولا يمكن الوثوق بها، ما دامت ترحب بالبعبع باعتباره واحدًا من أفرادها. ولا يشير ثانيًا إلى أن المستعرض وجمهوره ليسوا أفضل أخلاقيًا من أشخاص كهؤلاء فحسب، بل إنهم متحدون في التصدي لهم أيضًا. وقد يحمي المستعرض جمهوره من الشخصية المكروهة والحركة التي تمثلها. ولا توحي كلتا الرسالتين باحتمال التسوية مع الواقفين على الجانب الآخر وليسوا البعبع.

على نحو مماثل، ثمة حافز يدفع المستعرض إلى لفت الانتباه إلى مقترحات الجماعة المخالفة من القوانين الأكثر غلوًا واستهجانًا، والادعاء بأنها تمثل جوهر نهج تلك الجماعة. فيلجأ السياسي إلى «استعراض الفكرة المتطرفة» لتضخيم الإحساس العام بالخطر الذي تمثله الجماعة المخالفة، كما أن هذا الاستعراض يجعل المستعرض بطل الجماعة الواقعة تحت الحصار. فعلى سبيل المثال، كثيرًا ما يبدي المحافظون في الولايات المتحدة مخاوفهم من خطط يبدي المحافظون في الولايات المتحدة مخاوفهم من خطط البسار (السرية أحيانًا، أيضًا) لاستغلال مؤسسات الدولة للسيطرة على حيازة الأسلحة الشخصية، وهذا هو الهلاك كما يبدو لعين كثير من جمهور المحافظين (٢٥٠)، وتبلغ هذه

المخاوف من المصادرة الوشيكة [للأسلحة] لدى وقوع حادث إطلاق نار جماعي.

وحينئذ، يركّز التقدمي على مقترحات القوانين الأبشع التي ينادي بها أي محافظ ردًا على إطلاق النار الجماعي، ويعدها نتيجة تشريعية مقبولة وتهديدًا وجوديًا أيضًا. يواصل التقدميون، أثناء تأليفنا للكتاب، إذكاءهم للغضب على بعض اليمينيين – ومنهم الرئيس ترامب -لاعبين بطلبهم من المدرسين حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم ضد إطلاق النار في المدارس. لقد صارت مهمة الإيحاء بتطرف نهج سياسة الطرف الآخر أسهل، بطبيعة الحال، عندما انخرطت الجماعة المخالفة في التكثيف إلى حد منافحتها حقًا عن قوانين متطرفة غريبة. ويستطيع المستعرض، بالتلميح إلى الخطر الذي يفرضه العدو، أن يبني سمعة لنفسه باعتباره امرأ حساسًا للخطر الذي يغفل عنه الآخرون أو لا يأخذونه على محمل الجد. وقد تكون مخاوف المستعرض مؤثرة وإن كانت ملفقة، أو صورًا مختلفة متشددة لما يعتزمه الطرف الآخر. ويجعل استعراض الفكرة المتطرفة التسوية أصعب أيضًا. فحين تستخدم أكثر أفكار الأشياع تطرفًا لتمثيل جماعة كاملة، فإن أي تسوية مع تلك الجماعة ستكون مثل اتفاق مع الشيطان.

وأخيرًا، قد يعمد المستعرض إلى الترويج لمكانته في عصبته عبر تصوير القيم السائدة للجماعة المخالفة باعتبارها متطرفة وغريبة عن جماعته. نسمي هذا باستعراض التغريب؛ فإن تمكن المرء من الادعاء بأن مكونات الاتجاه السائد في الجماعة المخالفة تمثل قيمًا متطرفة، فستراها جماعته خطرًا أكبر. بل سيرون، مرة أخرى، العصبة والمنافحين عنها ذوي أهمية كبيرة. فيظهر المستعرض قيمه لعصبته، من خلال جذب الانتباه إلى تطرف الجماعة المخالفة والتعبير عن الاستياء منها.

إن هذه الآلية شائعة للأسف بين اليمين واليسار المعاصرين في السياسة الأمريكية. ويقدم المفسر المحافظ كيرت تشسلر، دون أن يدري، المثال النموذجي الآتي لاستعراض التغريب:

إنهم يكرهونك. لا يخالفك اليساريون في الرأي فحسب، ولا يرونك ضالًا فحسب، ولا يظنونك مخطئًا فحسب. إنهم يكرهونك، ويريدونك أن تكون عبدًا خانعًا، إن لم تكن ميتًا. حالما تدرك ذلك يصبح كل ما يحدث الآن منطقيًا، وستدرك ما يتوجب عليك الاستعداد لفعله.

إنك طبيعي، ولذا فإنك مهرطق. ترفض السجود لمعبوديهم، والإقرار بتعاليمهم المنحرفة،

وامتداح آلهتهم الزائفة، وهذا لا يغتفر، فلا بد من حرقك (٢١).

في سياق أكثر تحديدًا، يزعم كثير من اليمينيين أن اليسار لم يسع إلى إقرار الدولة لزواج المثليين باعتباره علاقة مكافئة للزواج التقليدي المغاير الجنسين فحسب، بل لنسف الأخلاق الجنسية التقليدية أيضًا. ويصرون على أن مطالبة اليسار للدولة «بالخروج من غرفة النوم» مبنية على مبدأ راديكالي أكثر بكثير من المطالبة المحضة باعتراف مماثل للنشاط الجنسي بالتراضي بين البالغين. إن كان السعي إلى تحرر الأخلاقيات الجنسية بلا رقابة، كما يقولون، فسيطالب اليسار في نهاية المطاف بالتساهل في شأن مضاجعة الحيوان ومضاجعة الأطفال.

من جانب آخر، اكتشف اليسار مؤخرًا رواية مارغريت أتوود حكاية الجارية، الصادرة عام ١٩٨٥، وفيها تسقط حكومة الولايات المتحدة على يد نظام مسيحي ثيوقراطي، يقر قوانين وممارسات كارهة للنساء، منها العبودية الجنسية. ويظهر بعض ناشطي اليسار اليوم في الاحتجاجات، وهم يلبسون الأردية الحمراء والقبعات البيضاء التي تلبسها الجواري في الرواية، مجسدين خوفهم من النهج الحقيقي لليمين في تجريدهم من

حقوقهم الإنسانية (۲۷). ويصر بعض اليساريين على أننا نعيش حقًا في حكاية الجارية (۲۸).

ومن باب العدل القول إن المرء يجد عادة أناسًا من الجماعة المخالفة يتعطشون لتبني سياسات أو قيم متطرفة يستغلها المستعرض في مهاجمته للجماعة المخالفة. وتتجلى إحدى أعظم هبات شبكة الإنترنت في أن المخاوف المقدّمة بصورة مغالطات المنحدر الزلق⁽¹⁾، يؤكدها على الفور متعصب يسعده اتباع النسخة المشوهة لحجج جماعته أينما أخذته. ولكن هذا كله يظهر سرعة المرء في مساندة فريقه والدفاع عنه أيًا كان الثمن.

إن الهجمات على الجماعة المخالفة كالتي وصفناها تعيق الوصول إلى الإجماع. فعندما تقتنع العصبة أن الجماعة الأخرى

⁽i) أو أنف الجمل كما تسمى، ويطلق عليها مغالطة الانزلاق بالنتائج فهي حينما يُعتقد بأن فعلًا ما، سوف يجر وراءه سلسلة محتومة من العواقب التي تنتهي بنتيجة كارثية، أو بمعنى آخر، هي المغالطة التي تتحقق عندما يُقفز بالنتائج على نحو خالٍ من المنطق والتسلسل في الأحداث أو الذي لا يحتمل حصوله بصورة كبيرة، بحيث تكون الفرصة للوصول لمثل هذه النتيجة فرصة ضيقة جدًا وليست لحظية. (المترجمة)

مليئة بأشخاص يخالفونها جوهريًا في المسائل الأخلاقية والسياسية، فإنها تنظر إلى نفسها نظرة سلبية، بمعنى أنها ليست كمثل الجماعة المخالفة (٢٩). وحين تترافق هذه النزعة مع اختبار نقاء أفراد العصبة، يغدو احتمال التسوية باهتًا. وحين يرى الممثل السياسي أرضية لاتفاق بسيط بين جماعته والجماعة الأخرى، فإن الاتفاق يجعله عرضة لهجمات الاستعراض من أنقى المؤدلجين في جماعته. ويواجه المنفتحين على التعاون معه الأمر نفسه.

نحن لا نعني أن السعي إلى التسوية مع الآخر أمر مناسب دومًا، إذ قد تكون التسوية خطأ في بعض المسائل. يقترح الفيلسوف أفيشاي مارغَلِت تسمية «التسوية المتعفنة» لوصف حالات كهذه «وهي تسوية لا ينبغي لنا الإقدام عليها، وليكن ما يكون» (۳۰). والمثال على التسوية المتعفنة الاتفاق على تأسيس نظام لا إنساني أو إدامته. ورغم وجوب تقديمنا أحيانًا بعض التنازلات للوصول إلى اتفاق مع خصومنا السياسيين الذين نحتاج إلى التعايش معهم، فإن علينا ألا نقبل التسوية التي تتضمن أمورًا من قبيل قوانين إباحة العبودية (۲۱). ويفيدنا تمييز مارغَلت بين أنواع التسوية، إذ يدرك العقلاء عدم اهتمام البرامج المفضلة لدى جماعتهم بحماية الحقوق الأساسية للإنسان، ولذا يمكن طرحها

على طاولة النقاش لصالح حماية التعاون السلمي. ولكن في نظر المستقطبين، بسبب الاستعراض إلى حد ما، فإن الحزب المعارض كثيرًا ما سيمثل نظامًا غير إنساني، وبذا تكون كل التسويات تسويات متعفنة في نظرهم. لا يمكن تسويغ «اختيار معاركك» وقبولك بما تستطيع حين يتخذ كل شيء طابع المبدأ الأخلاقي الجوهري. غير أننا نضطر أحيانًا إلى قبول تسوية غير عادلة، إن كان فعل ذلك سيمنع تبعات أسوأ (٢٣). ولكن المستعرض سيرى تسوية كهذه تواطوًا مع الأشرار ولذا يأباها الضمير.

لحسن الحظ، فإن في المؤسسات الديمقراطية قوى موازية تجعل التسوية صلحًا سياسيًا. فتسعى الأحزاب لتسمية مرشحين «قابلين للانتخاب»، أي يجذبون ناخبين من خارج دائرة الأشياع العنيدين، وإلا لن يفوزوا بالانتخابات، ثم يخفقون في الحصول على سلطة المؤسسة. بالمنطق نفسه، يملك المرشح دافعًا لجذب ناخب الوسط، أو الفوز بما أمكن من الأصوات وتعزيز فرصه في الفوز في الانتخابات «أولية»، يقتضي الفوز الانتخابية يتحدثون أحيانًا عن انتخابات «أولية»، يقتضي الفوز فيها تضخيم حضور مؤيديك، وإضعاف حضور خصمك، بدلًا من استمالة الطرف الآخر(١٤٠٠). وهذا يعني أن الدافع المؤسسي قد يكون مفيدًا، لكنه لن يكون بديلًا عن الجماهير الرشيدة.

عندما نُلجئ سياسيينا إلى الاستعراض، فإننا نصعب عليهم القبول بالتسوية. نطالب بنقاء إيديولوجي لا يلين ونكافئ السياسيين الذين يظهرون نقاء أخلاقيًا، ونصم من يتراجع عن قيم حزبنا بخيانة القضية، ونهلل سذجًا إن ترك السياسيون لدينا انطباعًا حسنًا بعد إصدار بيانات لم يكتبوها واستنباطهم أفكارًا تبهر العامة، كما نحب وقوفهم وسؤالهم عن النزاهة الأخلاقية للجماعة الأخرى. فهل من الغريب إذن أن يتفق قلة من السياسيين مع الطرف الآخر للوصول إلى تسوية؟

مشكلة السياسة التعبيرية

عندما تغدو السياسة مسألة إيماءات رمزية تظهر أن قلبك في مكانه المناسب، فسيدعمها السياسي لأنها تعبر عن قيم أخلاقية معينة. إذ سيدعم مثلًا فتح الحدود ليظهر أنه مضياف عطوف. ويناقش آخر خوض الحرب ليثبت أنه يثمن شرف بلاده. تخيل سياسيًا يؤيد قانونًا لأنه يثبت أنه على الجانب الصحيح من التاريخ، مهما كان المعنى من هذا. ولأسباب مماثلة، سيعارض السياسي القوانين التي لا تعبر عن قيم معينة، أو قد يعترض لأنها تعبر عن قيم عينة، أو قد يعترض لأنها تعبر عن قيم عن قيم «الطرف الآخر» (۳۰).

وإن أصبحت السياسة مهرجانًا أخلاقيًا، فسيعمد السياسي الى دعم القوانين لأسباب خاطئة. نسمي هذا مشكلة السياسة التعبيرية، وهي ثاني المشاكل الكبرى التي يفرضها الاستعراض على السياسة.

قبل أن نفهم المشكلة، لا بـد لنـا أن نوضح معنى أن يعبر السلوك عن قيمة. يقصد بالسلوك التعبيري التعبير عن الالتزام بمبدأ أخلاقي دون اتباع السلوك للمبدأ الأخلاقي فعليًا(٣١). سيجعل المثال الفكرة أكثر وضوحًا. فكّر في خاتم الزواج، إذ يعبر وضع الخاتم عن قيمة الإخلاص للزوج/ الزوجة في ثقافات عديدة. ويدل الخاتم على اهتمامك بقيمة الإخلاص الزوجي أوالتزامك بها، لكنك لست مخلصًا للزوج/ الزوجة لأنك تضع الخاتم فحسب. فوضعه يعبر عن الالتزام بالإخلاص، لكنه ليس فعلًا مخلصًا في حد ذاته، بل رفض الخيانة هو الفعل المخلص. قد يتبين أن الأشخاص الذين يضعون الخاتم أكثر إخلاصًا لشركائهم، لكن إخلاصهم الفعلي هو حقيقة أخرى عنهم. أي إن وضع خاتم الزواج يعبر عن قيمة فحسب.

ويصدق هذا كله على السياسات أيضًا. إذ يعبر دعمك لسياسة ما عن قيمة، عندما تقصد من دعمك إيصال اهتمامك أو التزامك بتلك القيمة (٣٧). لنقل، مثلًا، إن حزبًا سياسيًا قيمته

الأساسية إتاحة السكن للجميع، فيعبر الحزب عن التزامه بهذه القيمة عبر طرح قوانين ضبط الإيجار؛ أي وجود حد أعلى يفرضه القانون على المبلغ الذي يمكن لأصحاب الملك تقاضيه إيجارًا. أما نجاح قوانين ضبط الإيجار في جعل السكن متاحًا للجميع، فهي مسألة منفصلة عما تعبر عنه السياسة (٢٨). ومثلما لا يعني وضع خاتم الزواج إخلاصك للزوج/ الزوجة بالضرورة، فإن دعمك صراحة لقوانين ضبط الإيجار وموافقتك عليها لا يعني بالضرورة أنك تتيح السكن للجميع.

قد يبدو غريبًا أن نظن البعض يفضلون قوانين بناء على ما تعبر عنه، لا بناء على ما تحققه فعليًا. فلماذا يقيم الناس وزنًا للتعبيرية؟

سنتبنى رأيًا شائعًا في العلوم الاجتماعية يبدأ من حقيقة أن اكتساب المعلومة مكلف، والمعلومات عن السياسة والسياسة والسياسة العامة ليست استثناء (٢٩). لنفترض أنك شخص مسؤول تود أن تؤدي واجبك باعتبارك مواطنًا، وتريد تقديم مشاركات مطلعة في ثقافتك المدنية. يتطلب هذا الهدف عملًا كثيرًا، كأن تطلع على الأوضاع في العالم، وأن تتابع الأخبار، وإن أردت التأكد من حصولك على صورة واضحة لأحداث اليوم، ينبغي عليك

الحصول على الأخبار من مصادر متعددة متنوعة، وأن تفكر تفكر تفكر تفكر أنقديًا بالاختلاف في عرضها أثناء قراءتك أو مشاهدتك.

ولا يكفي أن تتابع الأحداث الراهنة، بل عليك أيضًا أن تدرس التاريخ الحديث على الأقل، لتفهم أهمية ما يحدث الآن. وما زال أمامك السؤال عما يتعين فعله. وإن قلنا إن الإجابة عن هذا السؤال سهلة في أي حالة، فإن معرفتك كيف تحدد مشكلات مجتمعك السياسي تتطلب معرفة كافية بأدوات السياسة المحتملة، يكون لكل منها تبعات ومنافع معقدة. يمكن للباحثين ملء مكتبة الكونغرس بأشياء يكاد لا يعرفها أحد، وهم يفعلون هذا حقًا(٠٠٠).

من غير المعقول أن نظن أن بوسع شخص متبحر اكتساب كل المعلومات المدونة. وإن كان ذلك ممكنًا، فلا يعقل أن يتمكن الجميع من فعل ذلك. فالحياة تغص بالأشياء التي يتعين على المرء فعلها. كانت حياتنا (نحن المؤلفين) خالية من الأحداث نسبيًا، بل تفتقر إلى الإثارة حقًا. لدينا اهتمامات غريبة، ولا بدلنا من الخروج أكثر. ولكننا نعرف أساليب للبحث عن قيمة الحياة التي يكون لها عوائد أكبر بكثير من القراءة عن السياسة والسياسة العامة. ومع اهتمامنا العظيم بهذه المواضيع (ونحن لسنا كذلك)، فإن التأثير الواقعي لمعرفتنا بها ليس بذي

أهمية. دائمًا، باستثناء حالات منفردة، لا يأتي المطلع سياسيًا بما يوازي الوقت الذي قضاه في دراسة هذه الأمور. إلى جانب أن احتمال كون صوت المرء حاسمًا في أي انتخابات مهمة، أو أن يسهم بصورة حقيقية في هامش النصر، احتمال بالغ الضآلة. باختصار، إن بناء الأساس المعرفي لمواطن صالح مكلف للغاية، فالأجدى أن تقضي وقتك في أن تكون أبًا أو صديقًا أو أخًا أو زميل عمل صالحًا، أو تفعل شيئًا ينفعك. هكذا يقسم جل الناس وقتهم، وهو تقسيم معقول.

ولكن كثيرين ممن لم يتوقفوا عن القراءة هم ناشطون سياسيون. وبغية التعويض عن افتقارهم للخبرة، يلجؤون إلى حدوس مهنية عدة، أو ما يعرف بقاعدة الإبهام(1)، لتعينهم على اتخاذ القرار. ومن الأمثلة على الحدس المهني، ولعلها الأكثر

⁽i) الحدس المهني: مصطلح يشير إلى الطرق المستخدمة في حل المشاكل الإنسانية والآلية باللجوء إلى التجارب أو الخبرات التقنية. قاعدة الإبهام: مبدأ ذو تطبيق واسع، غير دقيق، وضعيف الموثوقية، يشمل أي خبرة سهلة التعلم والتطبيق، بالاعتماد على الممارسة أكثر من النظرية. يعود أصل استخدامه إلى القرن السابع عشر إذ كانت الكميات تقاس بطول الإبمهمأو عرضه. وكتب سير وليم بلاكستون أنه قانون قديم يسمح للأزواج بضرب الزوجات ضربًا غير مبرح، ثم صار لاحقًا يستخدم للدلالة على العنف الأسري. (المترجمة)

استخدامًا، انتساب المرشح إلى حزب ما. لست متأكدًا لمن ستصوت، والسبب الذي يجعلك تصوت له؟ صوّت لمرشح الحزب الذي يعبر عن قيمك بوتيرة أكبر.

وقد يكون الحدس المهنى الأكثر جوهرية هو اهتمام المرشح (أو الحزب) بك. قد يستحيل على الناخب العادي أن يتوقع النتائج على المدى الطويل لبعض السياسات التقنية، لكن الناس يملكون حسًا فطريًا حيال اهتمام الشخص بهم؛ أو ربما الأدق أن نقول، إن الناس يشعرون أن عندهم حسًا كهذا.

سيفضل العوام الذين تنقصهم الخبرة في السياسة القوانين التي تحدد المشاكل التي تقلقهم بصور يسهل فهمها. لماذا؟ يقول الفيلسوفان غويدو پنكايوني وفرناندو تيسن: «يميل الناس إلى تصديق نظريات مفعمة بالحيوية عن المجتمع»، لأنهم «يسارعون إلى الإفادة 'من الدليل المتاح' الذي يلائم عقلياتهم النظرية غير المتبصرة» (١٤). ويستخدمان مصطلح 'مفعم بالحيوية' مثلما يستخدمه علماء النفس، للدلالة على معلومات (أ) مثيرة انفعاليًا، (ب) وملموسة محفزة للخيال، (ت) وتقريبية بصورة حسية أو مزاجية أو حيزية (٢٤). لنفترض مثلًا أن أشخاصًا يفكرون بنفسيرين محتملين بفشل المجلس التشريعي، المكتظ بسياسيين أثرياء حسني الهندام، في طرح نقد لتشريع ما. من جهة، قد يعود

فشل هؤلاء السياسيين إلى كونهم «فاسدين». ومن جهة أخرى، ربما تصرفوا وفقًا لضغط مجموعة من الدوافع المتصارعة المكشوفة - جعل الموافقة على أي خيار متاح ليصبح قانونًا أمرًا منافيًا للعقل. تفسير «الفساد» تفسير حيوي، إذ يؤجج الازدراء ويستدعي صور أيد تتبادل أكياس النقود، وهذا يفسر أيضًا حسن هندامهم. أما تفسير الدوافع المعقدة فهو مبهم، ووصفه أصعب، وسيتطلب تفاصيل أكثر مما يسمح مزاج المرء له بالاستماع إليها وفهمها. لذا فإن التفسيرات الحيوية تبدو أكثر جذبًا (٣٤).

يملك الممثل السياسي دافعًا لتعزيز سياسات تعبيرية تغري بالتفسير الحيوي. وتعبر مثل هذه السياسات عن قيم عصبته تعبيرًا أوضح، فتكون أكثر تأثيرًا باعتبارها أداة لتسويق الذات. ويُظهر دعم السياسات التعبيرية لعصبتك أنك تهتم بأناس مثلهم، وأن قلبك في مكانه الصحيح. وهكذا فإن السياسات التعبيرية مغرية للمستعرض، فيما تقل جاذبية نظيرتها غير التعبيرية للسبب نفسه.

للأسف، رغم أن السياسات القائمة على التفسيرات الحيوية جذابة للوهلة الأولى، فإنها كثيرًا ما تكون عقيمة، بل معيقة أحيانًا. يجب ألا نفاجاً بهذا، فالعالم معقد. فكر ثانية بمشكلة

نقص السكن منخفض التكاليف، إذ تحدد قوانين ضبط الإيجار تلك المشكلة تحديدًا واضحًا. الإيجار مرتفع جدًا، فلم لا نجبر مالكي البيوت على تقاضي إيجار أقل، أو نحدٌ من قدرتهم على رفع الإيجار؟ ولكن، مثلما يسع أي طالب في الاقتصاد الأساسي أن يشرح لك، يؤدي ضبط الإيجار إلى نقص السكن. إذ يتوقف الناس عن تغيير السكن للانتفاع من الإيجار المحدود. ويكف المطورون عن بناء بيوت جديدة، لأن الاستثمار في مكان آخر سيعود عليهم بربح أكبر(٤٤). السياسات ليست ناجحة، لكن المستعرض بها ينجح. يجهد السياسيون في الدراسة حتى يجدوا وسيلة لحل مشكلة، ثم يحاولوا تفسيرها لعصبة عجولة. أو أن يخرجوا بشعارات ووعود أو مطالب تثمر الآن شيئًا أخرق ظاهره جيد لكنه لا ينجح^(١٥).

والأمثلة على ذلك كثيرة. ففي عام ٢٠١٢، حاول الجمهوريون في المجلس التشريعي لولاية آيوا رفض ملياري دولار في تمويل فدرالي لمدك إيد [برنامج التأمين الصحي العام]، لأن ذلك البرنامج موّل اثنتين وعشرين حالة إجهاض في الولاية، رغم أن كل هذه الحالات كانت لأسباب يقبلها الناشطون المدافعون عن حق الحياة لتكون أساسًا للإجهاض المباح(٢١). يسمح هذا للمرشحين بالقول إنهم استخدموا كل الموانع للدفاع

عن غير المولودين - تعبير حيوي عن التزامهم بحق الحياة -رغم أن الخسارة المفاجئة لهذا القدر من المال سيكون كارثيًا بلا شك على أشخاص ضعفاء آخرين في ولايتهم.

تتيح برامج تبديل الإبر للناس - لمتعاطى المخدرات عادة-بتبديل الإبر تحت الجلدية المستخدمة بأخرى نظيفة. وهذه البرامج فعالة في الحد من انتشار نقص المناعة والتهاب الكبد إلى جانب أمراض أخرى. كما أنها هدف معهود للمستعرض الباحث عن فرص لاقتراح سياسات تعبيرية. تكون الحركة المعتادة ضد برامج كهـذه بالقول إنها تتغاضى عن السـلوك غير الأخلاقي، بل تشجع عليه. أما أنصار هذه البرامج، فلديهم جبال من البراهين التجريبية التي تثبت فعالية تبديل الإبر في الوقاية من انتشار الأمراض وعدم زيادتها في تعاطى المخدرات(١٤٠). لكنّ المستعرض يحتاج مادة، وكثيريـن لا يكترثـون لأمـر متعاطى المخدرات. لذا عندما تسنح الفرصة لانتقاد برامج تبديل الإبر سيحرص المستعرض فجأة على إبقاء يديه نظيفتين.

لعلك تخالفنا الرأي في بعض هذه الأمثلة أو كلها، وقد يثير هؤلاء السياسيون مخاوف محقة، ويدافعون عن حلول سياسية جيدة. ولكن لا شيء في نقاشنا يتكئ على صحته في هذه الحالات. إذ تظهر المشكلة عندما يركز السياسيون والناخبون

على ما تعبر عنه السياسة بدلًا مما تفعله. وتذكر أن سياسة تعبر عن قيمة ما لا يعني تعزيزها فعلًا لتلك القيمة. بل الأسوأ من ذلك أن السياسات التعبيرية كثيرًا ما تقوض القيم التي تعبر عنها.

هذا لا يعني أن لا خير في التعبير عن القيم، أو في معرفة الناخب القيم التي يتحلى بها السياسي (على افتراض أن السياسي يعبر عن قيمه بصدق عبر دعمه سياسات معينة). سنعود إلى هذا بعد قليل، ولكن الضرر يقع حين يفترض الناخب أن السياسي إن دعم قانونًا يعبّر عن قيمة محمودة، فإن إقرار ذلك القانون ينجح في تعزيز تلك القيمة. وينبغي ألا يظن الناخبون أن السياسي سيعزز قيمهم، لأنه يدعم سياسات تعبر عن تلك القيمة، بل عليهم أن يبحثوا عن سياسي يعزز السياسات التي تعزز قيمهم حقًا.

ولكن كيف لك معرفة ما إذا كان السياسي يدعم سياسة لأن قيمتها التعبيرية تظهره بمظهر الصالح؟ هذا اختبار سيحدد الكثير من الحالات: أيكون السياسي على استعداد لكشف العواقب الوخيمة المتوقعه لبرنامجه المقترح؟ يسمي پنكايوني وتيسن هذا باختبار المكاشفة (٨٤٠). واقعيًا، سيكون لأي برنامج مقترح عيوب – وعيوب كثيرة أحيانًا – لدى تنفيذه. فإن كان السياسي صادقًا في الكشف عن هذه العيوب ويدعم البرنامج على أية

حال، فهذا دليل على أنه يراه سيحقق نتائج جيدة إجمالًا. من جانب آخر، إن أخفى السياسي أو رفض الإقرار بسلبيات المقترح، فهذا عائد إما إلى جهله أو خداعه كما يرى پنكايوني وتيسن. فهو جاهل إن لم يكن مطلعًا على السلبيات، ومخادع إن كان على دراية بها وأخفاها لمصلحة خطابية، فيكون حينئذ «متشدقًا» على حد تعبير پنكايوني وتيسن (٤٩).

حين نقول إن سياسيينا مستعرضون، فإننا لا نعجب من دعمهم سياسات تعبر عن قيم تهمنا، دون النظر إلى تحقيق هذه السياسات أهدافها المرتقبة. وهذا ما يجعل من السياسة التعبيرية مشكلة، لأننا نهتم بالقيمة التعبيرية، فينتهي بنا الأمر إلى دعم السياسات الخطأ. ليس دافع السياسي فعل الصواب، بل فعل ما يكسبه تأييد الأشخاص المناسبين. وإن أكسبناه المكانة من أجل تقديمه مقترحات سياسات تعبيرية، فسيعطينا ما نريد، أي سياسات ظاهرها جيد لكنها لا تنجح.

مفارقة حل المشاكل الاجتماعية

لنأت إلى آخر مخاطر مكافأة الاستعراض في السياسة. يهدف الفعل السياسي إلى حل المشاكل، لا إلى تأسيس منتدى لتمجيد المشاركين فيه. ولكن حين تصبح السياسة مهرجانًا أخلاقيًا، فسيكون دافع المتنافسين إبقاء المشكلة دون مساس، والأسوأ من ذلك، أن يكون الدافع المشاركة في النشاط السياسي دون هدف واضح أبدًا. ونرى أنه كلما تحولت السياسة إلى منتدى تتفاخر فيه بخصالك الأخلاقية، كرس الناس وقتهم للنشاطية من أجل النشاطية، باعتبارها أداة للتباهي.

تأمل المقتطف الآتي من المنظّر السياسي مايكل فيرغسن حول حركة احتلوا⁽¹⁾:

راهن الناشطون المشاركون على الحرية نفسها بدلًا من النهج الواضح المشترك، بوصفه هدفًا مركزيًا للحركة. ووصف أحد المراقبين الهدف من أفعال حركة احتلوا في متنزه زوكوتي بأنه تأسيس «مخيم طويل الأمد في فضاء عام، أي قرية احتجاج مرتجلة دون قادة محددين مسبقًا أخذوا على عاتقهم النقد العام -الاقتصاد الأمريكي منهار، السياسة أفسدتها الشروات الكبيرة - ولكن دون دعوة صريحة لإجراء تشريعي أو تنفيذي».

⁽أ) حَركة احتجاجات عالمية بدأت بحركة احتلوا وول ستريت عام ٢٠١١، ثم توسعت لتشمل أمريكا قبل تحولها إلى حركة عالمية. (المترجمة)

وقد تكون هذه خطة سياسية ذكية، نظرًا إلى التلاشى السريع لاحتجاجات المهاجرين عام ٢٠٠٦ حالما تحققت الأهداف المشتركة لمنظميها. إن حددت حركة احتلوا أهدافًا واضحة وتحققت لها، فلن يكون ثمة ما يدعو إلى مزيد النشاطية. وإن لم تحقق أهدافها، فقد ينال الإحباط ممن وضعوا نصب أعينهم نتيجة محددة. وبجعل ممارسة التفويض الذاتي للديمقراطية غاية العمل السياسي، فقد تشجع حركة احتلوا على تنمية الحس الديمقراطي بين المشاركين الذين يمدون الحركة بالطاقة ويكررون ذلك لسنوات قادمة، أو يبقون بعدها إن هي انتهت(٥٠).

إن تحقيق الحركة لأهدافها أمر سيء في نظر فرغسن، إذ لن يبقى لها ما تفعله. وهذه مفارقة حل المشاكل الاجتماعية؛ أي لدى حصول الممثل السياسي على كل ما يريد، يخسر السبب الذي يجعله ممثلًا سياسيًا (١٥٠). وإذ كان مهتمًا بكونه ممثلًا سياسيًا أكثر من أي شيء آخر، فسيتداخل حل المشاكل الاجتماعية بينه وبين ما يريده في الحياة، فتختفي وسائله التي اختارها لكسب المكانة عبر الاستعراض.

تنشأ المفارقة على مستوى الأفراد والمنظمات. ففي نظر الفرد، تكون هويته باعتباره ناشطًا ومصلحًا على المحك. إذ لن يكون عنده سبب للبقاء فاعلًا، إن حقق كل أهدافه، باستثناء المراقبة بانتباه لعودة ظهور المشكلة التي حركته أول مرة. وقد يجد له قضية جديدة، لكن هذا سيستغرق الكثير من الوقت والجهد ليكسب مكانة مماثلة بين الناشطين الذين يركزون على مسائل مختلفة. صحيح أن انتهاء المشاريع حقيقة حزينة من حقائق الحياة، إذ تنتهى العلاقات الهادفة التي تأسست حول هدف مشترك، وستشعر بالضياع إلى أن يظهر هدف آخر يثير اهتمامك. وثمة نزعة طبيعية تتجسد في الرغبة في إطالة انتصارات الماضي وإدامتها، لكن ثمن هذه الحسرات زهيد إن قورن بإمكانية حل مشكلة اجتماعية مهمة بما يكفى ليكرس المرء نفسه لها. قضينا وقتًا عصيبًا في تخيل كثير من البالغين الناضجين يفصحون عن هذه الأفكار، وإن رأيناها مفهومة. لكن الظلم ليس فرصة لتتباهى أمام أصدقائك أو تشعر بأهميتك، إنه نداء لإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح.

تواجه المنظمات أيضًا شكلًا من هذه المفارقة. إن تأسست منظمة بهدف حل مشكلة ما، وحلت هذه المشكلة، سيفقد كثيرون أعمالهم، وربما غيروا مكان إقامتهم واشتروا بيوتًا

وأسسوا أسرًا ونظموا حياتهم بصور أخرى بناء على استمرار وجود تلك المنظمة. وسيلقي حل المشكلة بهم إلى التهلكة. لكننا نعيد القول إن هذا ليس سببًا وجيهًا يدفعنا إلى تمنّي ألا تحل المشكلة، والإصرار على وجود خطأ ما، في حين أن الأمر ليس كذلك. قد يكون المقصد في فائدة إبقاء مجموعة منظمة لتتمكن من الاستجابة سريعًا لأي نكوص في التقدم الذي أحرزته. ولا شك أن الأسهل تأسيس منظمة دائمة أصغر تقوم على الاستجابة بدلًا من المشاركة الاستباقية دون تحويل حركتك إلى المعادل السياسي لنوبة غضب لا هدف لها.

إلى جانب ذلك، نظرًا للدوافع الشخصية والجماعية لدى الناشطين للاستمرار في أداء أدوارهم، ثمة ضغط لإضفاء طابع أخلاقي؛ أي السعي إلى مزيد من التطبيق للأخلاق لشفاء العالم. في العالم كثير من الأخطاء بلا ريب، ولكنّ فيه أيضًا كثيرًا من الناشطين الساعين إلى استمرار عملهم لتحقيق الأهداف الغامضة المفتوحة النهايات، فلا يقاومون تسقط الأخطاء الأخلاقية.

انظر إلى بارِت ولسن في وصفه لنفسه سابقًا: «المناضل من أجل العدالة الاجتماعية المزكي نفسه»، الذي «كان له ذات يوم عمل مأجور فيما يمكن وصفه بصناعة العدالة الاجتماعية»(٢٥).

بعبارة أخرى، كان ناشطًا وفقد عمله عندما استهدفته عصبته من المدافعين عن العدالة الاجتماعية. ما يثير اهتمامنا هنا أن اعتراف ولسن بالغاية اللامتناهية في امتدادها لعين الناشط الأخلاقية المرتابة:

قبل سنوات قليلة، كان عدد من أصدقائي وأقراني ممن يصفون أنفسهم باليبراليين والتقدميين معجبين صريحين بممثلى الستاندأب كومدي الاستفزازيين من أمثال سارا سلفرمانن وبرامج مثل ساوث بارك. اليوم، ينظر إلى مواد كهذه على أنها «إشكالية» للغاية، بل توصم على أنها خطاب كراهية. فانتقلت من الإحجام عن التدخل عندما يلقى الناس نكاتِ ماجنة، إلى الإغماء فعليًا لدى استخدامهم الضمير الخاطئ أو تعبيرهم عن رأى وسط اليمين. وتحولت من السخرية ممن يأخذ النكات المستفزة على محمل الجد، لأصبح ذلك الرجل.

والأسوأ من هذا أن الصفات التي يتفاخر الناشطون بتحليهم بها – من مثل النضالية والعدائية وعدم التمسك بالتقاليد وغرابة الأطوار – هي الصفات التي تمنع الناس من تقبّل الناشطين

وتغييراتهم المقترحة. أجرت عالمة النفس ناديا بشير وزملاؤها دراسات عديدة تظهر أن:

ظاهريًا يخفق إخلاص المتعصب لقضية اجتماعية ويثير ردود فعل غير محبذة. وفي الحقيقة، يتجنب الأفراد الانضمام إلى الناشطين «النمطيين» ويتبنون سلوكيات تعارض التغيير الذي يدافع عنه هؤلاء الناشطون، لأن الأفراد يربطونها بأنماط سلبية. ما يثير السخرية وبعيدًا عن النوايا الحسنة، فإن الأفراد الأكثر انشغالًا بالترويج للتغيير الاجتماعي قد ينقرون العامة بغير قصد ويقللون الحافز المؤيد للتغيير "٥٥).

إن الناشط المستعرض الذي يتباهى بتفوقه الأخلاقي عبر الإهانة أو غيرها من السلوكيات العدائية ضرره أكبر من نفعه. والعبرة هنا واضحة؛ إذا أردنا تحقيق تغيير اجتماعي حقيقي في العالم، سندعم هذا الهدف أكثر إن لم نستعرض به.

وما دمنا قد حددنا المخاطر الثلاثة للاستعراض السياسي، فسنقدم جانبًا آخر له. أيكون للاستعراض السياسي أية عواقب حميدة؟

فوائد الاستعراض السياسي

عرضنا في الفصل الرابع فائدتين اجتماعيتين للاستعراض؛ إذ يظهر التعاون ويحفز الفعل الاجتماعي المثمر. إلى جانب هاتين الفائدتين، قد يثمر الاستعراض السياسي فائدة أخرى. فهو يمنح الناخبين معلومات مفيدة، وستكون معرفة قيم السياسي اكتشافًا نافعًا للناخبين الذين لا يتسنى لهم الوقت لقراءة مقترحاته السياسية أو سجلاته في التصويت. إن أردت التصويت لمرشح يهتم بالفقراء أو التجارة الحرة، فسيستفيد المرشح من عرض قيم كهذه. وهذا يعني أن الناخب سيُحرم من معلومات مهمة إن كف السياسي عن الاستعراض.

ولهذا السبب، نرى أنه يحسن بالسياسي أن يستعرض في بعض المواضع. لا شك أن حقيقة إصابة الاستعراض السياسي لبعض الخير تتسق مع كونه سيئًا لأسباب أخرى. إذ له عواقب وخيمة كقلة الاحترام، أو الافتقار إلى الفضيلة. ومع ذلك فقد يكون الاستعراض مباحًا في النهاية. وإن صح هذا، فهذا يمنح للسياسي رخصة في الاستعراض أكثر من غيره، إذ تؤدي وظيفة الاستعراض السياسي المتمثلة في مشاركة المعلومات دورًا هامًا في النظام الديمقراطي.

يجب ألا ننسى، على أية حال، أن استعراض السياسي لن يوصل دومًا (ولا حتى كثيرًا) إلى الناخبين شيئًا حقيقيًا حول صفاته الأخلاقية. فما كل سياسي تبجح باهتمامه بقيمة ما، يهتم بها حقًا. بل إن البعض لا يكترث بها البتة، أو يسعون إلى تجاهلها. لذا فإن الفائدة المعلوماتية المقترحة للاستعراض السياسي لا تتجسد في معرفتك شيئًا عن شخصية السياسي، إذ قد يقدم معلومات مغلوطة عن شخصيته.

ولكن القلق سيساورك من السيناريو الآتي، وإن قدم الاستعراض السياسي معلومات قيّمة. فلنقل إن عندنا حزبين سياسيين، حزب الشر وحزب العدل. سيستعرض السياسيون من كلا الحزبين ليظهروا قيمهم للناخبين المحتملين. ولأن حزب الشر مخطئ في كل شيء، أليس سيئًا أن يستعرض سياسيوه لكل الأسباب المذكورة، لكن الاستعراض مباح لسياسيي حزب العدل؟

يجب ألا ننسى أن الدفاع عن الاستعراض الذي ناقشناه لا يعني أنه يساعد الناخبين على التصويت للسياسيين الذين يفعلون الخير أكثر. بل ما يفعله هو مساعدة الناس على التصويت وفقًا لما يفضّلون. وتكمن واحدة من أبرز قيم الحكم الديمقراطي في إشعار الناس بأنهم في أوطانهم، تحكمها خياراتهم التي تعكس

قيمهم (1°). إن مساعدة الناس للتصويت بطريقة تناسب خياراتهم مهم إلى حد ما، وإن كانت أمور أخرى أكثر أهمية منه.

الخلاصة

يحدث الاستعراض ضررًا في السياسة في النظام الديمقراطي. فعندما يعتبر الناس الخطاب السياسي منتديً لتعظيم الذات، ستتعارض مصالحهم دومًا مع هدف حل المشكلة الاجتماعية. وبدلًامن التسوية مع الجماعة المخالفة، يهاجم المستعرض أعضاءها ويصف قناعاتهم ومقترحاتهم السياسية بالمخادعة. ويتساءل المستعرض عن نزاهة أفراد عصبته الراغبين بالتسوية، ويشجع الآخريـن على تجنبهـم. وبـدلًا من تحسين سياسات ضعيفة، تحدث فرقًا بصور معقدة، يفضل المستعرض الشيء اللافت الذي يحقق القليل، لكنه يتيح له المطالبة بالأفضلية لقاء جهوده. أما المستعرض الذي يستمتع بدوره الحالي أكثر، فإن عنده حافزًا ألا ينهي سبب وجوده عبر حله المشكلة الاجتماعية.

إن كانت هذه الآثار السلبية (وغيرها من المشكلات التي عرضناها) كافية لترجح الخير الذي يقدمه الاستعراض السياسي، فهو سؤال تجريبي لا نملك له إجابة قاطعة. وفي المقابل فإننا

نرى أن ضرر الاستعراض أكبر من نفعه في عمليتنا السياسية ومؤسساتها. ولذا علينا ألا نهلل بحماس إن أصبحت السياسة مهرجانًا أخلاقيًا.

الفصل الثامن ماذا نفعل بشأن الاستعراض

لقد قيّمنا أخلاقية الاستعراض، وخلصنا إلى أنه سلوك سيء يحسن بنا تجنبه. ونود مساعدة القارئ على استنباط الحلول، بدلًا من الاكتفاء بتعريفه على أنه مشكلة. كيف لنا أن نحسن الخطاب الأخلاقي العام؟ واقعيًا، لا يسعنا أن نطمح إلى التخلص من الاستعراض كليًا، ولكن بوسعنا تقليله إلى درجة كبيرة، وعلى أية حال، ولكل الأسباب التي عرضناها على امتداد صفحات الكتاب، لا بد لنا من فعل ذلك.

كيف نفعل ذلك إذن؟ كيف لنا أن نحد من التباهي والتشدق بالكلام الأخلاقي وكل ما يحدثانه من أضرار؟ إن أردنا الحق، فنحن لسنا بواثقين. كيف تجعل ملايين الناس، في مختلف مجالات الحياة، يكفون عن اللجوء إلى الكلام في الأخلاق لإرضاء الرغبة البشرية المشتركة في المكانة الاجتماعية؟ وما يزيد المشكلة سوءًا صعوبة معرفة متى يستعرض الناس. لا يمكن لأحد قراءة الأفكار أو التأكد من دوافع الآخرين، وهذا يجعل مراقبة الاستعراض صعبة. فكشف الاستعراض ليس كمثل تحرير

مخالفات السرعة. علاوة على ذلك، ونظرًا لمناخنا السياسي المثير للنزاع، فإن تقديم أي نصيحة حول الأسلوب الذي يشارك به الناس في الخطابين السياسي والأخلاقي محفوفة بالمخاطر. وقد يقضي كثيرون وقتًا صعبًا باعتبارهم هذه النصيحة قيمة ظاهرة لا هجومًا مقنّعًا على خصوم سياسيين.

سنقدم أفضل ما استطعنا جمعه من النصح حول التعامل مع مشكلة الاستعراض. ولا بدأن نشدد أن كل ما سنقوله استقصائي. وسنقدم استراتيجيات مدعومة بالتجربة نراها وسائل مجدية للتقليل من الاستعراض. ولكننا نتحرق شوقًا لنرى في المستقبل عملًا من خبراء في حقول أخرى يُعنى بغرس مزيد من التواضع في خطابنا العام.

ضد الزجر

تتمثل إحدى طرق تغيير السلوك في التوبيخ. ثمة دافع بشري مشترك لإخبار الآخر أنه أفسد الأمور. وقد يبدو ذلك طريقة واضحة لتعيين الاستعراض، أي أن تزجر أحدهم حين تراه يستعرض.

بِن: أظهر [مصرف] ولز فارغو ازدراء لعملائه مرة أخرى. مثل غيري ممن يهتمون كثيرًا بحقوق المستهلك ويمقتون الجشع، فإني أفكر بقوة في تحويل حسابي الجاري إلى مصرف آخر.

آن: «تفكرة بقوة؟» انتبهوا جميعًا، هذا رجل ثائر! كف عن الاستعراض.

ربما انتابت كثيرًا من القراء الرغبة في قول شيء كهذا، ولكننا نرى أن توبيخ المستعرض استراتيجية سيئة لتحسين الخطاب العام عادة.

يعني توبيخ أحد اتهامه علنًا بالسلوك المشين، وتوجيه اتهام كهذا يتطلب تبريرًا. فليس عدلًا أن تمضي متحمسًا وأنت تتهم أحدهم بخيانته لشريكه، أو الاختلاس من رب عمله. لا بد أن يكون موجه الاتهام واثقًا ثقة لها ما يبررها بصحة اتهامه. إذ غالبًا ما يعقب اتهام أحد دون وجه حق تبعات وخيمة، فذلك ليس ظلمًا فحسب، بل يضر بسمعة المستهدف ضررًا حقيقيًا، وقد يؤدي إلى تدمير حياته. المعنى بسيط؛ إن أردت اتهام أحد جهارًا بالسلوك المشين، عليك أن تكون واثقًا حق الثقة من صحة اتهامك.

يسهل تحقيق هذا الشرط أحيانًا، مثلما يُكتشف مشهور ثمل يقدح قدحًا عنصريًا أمام الكاميرا. ولكن سمات الفعل التي

تجعله فعلًا خاطئًا تتخفى أحيانًا عن عين الناظر. فلنأخذ الكذب مثلًا، إذ يصعب التأكد إن كان المرء يكذب أمامك، والأصعب أن تعرف من بيان مكتوب إن كان أحد يحاول خداعك. جرب ذلك:

«وورمكي يتجنب الغلوتن».

«حضر توزي حفلة لفرقة إنترپول خمس مرات».

تظهر الدراسات، وسطيًا، أن الناس ينجحون في كشف الكذب بمعدل ٤٥ بالمئة (١١)، أي أعلى بقليل من [نتائج] رمي العملة. وتتيح معظم هذه الدراسات «للكاشفين» رؤية علائم وجوه «الكاذبين»، لكنهم [الكاشفين] لا يتوفر لهم سياق إضافي. تخيل صعوبة كشف الكذب إن كل ما تعتمد عليه مقتطف من نص كتبه غريب.

هنا أيضًا نجد قاسمًا مشتركًا بين الاستعراض والكذب. تذكر أن المستعرض يلجأ إلى الكلام في الأخلاق لإبهار الآخرين بصفاته الأخلاقية المزعومة. ولكن يصعب التأكد أن مشاركة المستعرض في الخطاب العام لهذا السبب، وبخاصة إن كان الدليل الوحيد الذي نملكه هو مقتطف مكتوب. لا بد أن تكون واثقًا كل الثقة قبل أن تتهم أحدًا بالاستعراض. ولكن ما دمت لا تعرف عادة ما الذي يدفع أحدهم إلى اللجوء إلى الكلام في الأخلاق، فليس لك الحق في اتهامه على رؤوس الأشهاد بالاستعراض. وهذا سبب وجيه لنتجنب زجر الناس عن الاستعراض.

لنتوقف لحظة اتقاء لسوء الفهم. لقد زعمنا خلال الكتاب أن الاستعراض الأخلاقي شائع في الخطاب العام. لكننا نقر بصعوبة التأكد من استعراض شخص ما في حالات معينة. فكيف لنا أن نقول إن الاستعراض شائع إن كان التأكد منه أمرًا صعبًا؟

في كل مرة يخامرك شك قوي بأن أحدهم يستعرض، ثمة احتمال بمقدر ٥٠ بالمئة أنك مصيب (لا تعرف ذلك، ولكن لنفترض صحة هذا للحظة). لنقل إنك تقضي ساعة في مواقع التواصل الاجتماعي وترى ١٠٠ منشور يساورك شك قوي في أنها استعراضية. ولأنك اقتنعت بقولنا حول صعوبة التأكد من ذلك، تدرك أنك لا ينبغي لك أن تكون واثقًا كل الثقة بأن حالة بعينها هي مثال على الاستعراض. ومع ذلك، فسيكون أمرًا عجيبًا ألا ترى كثيرًا من حالات الاستعراض في تلك الساعة.

فكر بالكذب مرة أخرى. يصعب عليك التأكد من كذب

الشخص عليك، كما أشرنا. ولكننا نخطئ إذا استنتجنا من هذه الحقيقة وحدها أن ليس في العالم كثير من الكذب. قد يكون هذا واضحًا عندك، فلست بحاجة إلى البحث حول تفشي الكذب. ولكن العلماء درسوا أمورًا كهذه، ونحن نعلم أن الكذب شائع في الحياة الاجتماعية (٢).

لذا فإن هذا لا يعني أننا لا ندرك شيوع الاستعراض، رغم صعوبة التأكد من أي حالة بعينها. ولما كان معظمنا ممن يعزز لذاته أخلاقيًا، وأننا نحاول إدارة الانطباعات عنا فيظن الناس بنا ظنًا حسنًا، فليس غريبًا أن يشيع الاستعراض. في الحقيقة، أظهر بحثنا التجريبي الأول أن السعي نحو الوجاهة تحديدًا شائع للغاية (٣). ولكن ما دام يصعب التأكد من استعراض أحدهم، فإن في هذا سببًا كافيًا لمقاومة إغراء اتهام أحد على الملأ بفعله.

ولكن ماذا إن كنت واثقًا ثقة مبررة بأن أحدهم يستعرض؟ فهل يجوز لك توبيخه في هذه الحالة؟ حتى في هذه الحالة، لا تعني ثقتك المبررة بالضرورة بأن توجيه تهم على الملأ مباح. إن الدقة وحدها لا تبيح لك توجيه الاتهام. لنفترض أن صديقك قال طرفة مبتذلة في حفل عشاء. لا يحق لك عندئذ أن تقول لكل الجالسين إلى المائدة إنها نكتة سيئة، وإن كنت ترى ذلك. إذ ستكون هذه خسة لا داعي لها، ناهيك عن كونه فعل غير لائق.

على نحو مماثل، وإن كان شخص ما يستعرض حقًا، فإن زجره جهارًا استجابة ضعيفة لأنها تحول دون بلوغ الهدف. عندما توجه تهمة بالاستعراض، سيكون النقاش التالي (إن بدأ نقاش ما) بذيئًا عقيمًا. إذ يتمتع قليل منا، لدى اتهامنا بالاستعراض، بضبط النفس فيتجنبون الشجار. لذا، إن اتهمت أحدًا بالاستعراض، رُدت التهمة عليك (٤)، أو اتُهمت بقمع الآخرين (٥)، أو نالك اللوم لأنك لا تدرك مخاوف الآخرين الحقيقية (٢)، أو قيل إنك تحاول إقحام سياستك في النقاش (٧)، بل قد يصبح اتهامك مناسبة لمزيد من الاستعراض عند الآخرين.

تكون الاتهامات بالاستعراض معيقة، لأن المتهم سيلجأ الى ادعاءات لا يمكن إثباتها عما تحاول فعله. عندما يتهمك أحد بالاستعراض، فإن عندك استجابة بسيطة: «لم أكن أسعى للإبهار!»، ثم يناقش الجميع تقييم موجه الاتهام لدوافعك مقابل تقييمك لها. وإن أثمر نقاش كهذا، كانت تلك المرة الأولى لحدوث هذا.

ثمة مشكلة أخرى تشوب الاتهام بالاستعراض تكمن في ظهور الانحراف المفهومي في مصطلحات من مثل «الاستعراض». يحدث الانحراف المفهومي عندما تتسع حدود مفهوم ما، كان ذات يوم فكرة واضحة ليشمل ظاهرة منحرفة مماثلة (^). تأمل مثلًا

كلمة «التحذلق الذكوري mansplain». فقد كان المصطلح في بدايات ظهوره يستخدم عمومًا للإشارة إلى رجل يقدم شرحًا متعاليًا ويفتقر إلى الدقة غالبًا لامرأة عن أمر تفهمه النساء غالبًا أفضل من الرجال(٩). نكأت التهمة جرحًا شائعًا، وغدا المصطلح رائجًا، وسرعان ما أخذ يستخدم لوصف رجل يتحدث في أي سياق فعليًا. ولما رأى الناس الفائدة التي تجني من استخدام مصطلح «التحذلق الذكوري» في مزيد من الحالات، وسعوا نطاق الأشياء التي تنطبق عليها هذه الصفة. فمثلًا، أثناء جلسة استجواب الحكومة في مجلس العموم عام ٢٠١٧، قيال قائد حزب العمال البريطاني جيرمي كوربن: «غدًا هو يوم المرأة العالمي، وهي فرصة للاحتفال بما حققناه على صعيد حق النساء بالمساواة، وأن نفكر بما سنفعل للمضى قدمًا ليس في هذا البلد فحسب، بل حول العالم». فردت عليه رئيسة الوزراء تريزا ماي: «حسن، أيمكنني أولًا أن أشكر الرجل المهذب المحترم النزيه على إخباري أن غدًا هـو يـوم المرأة العالمي؟ أظن هـذا هـو مـا يسـمي «التحذلق الذكوري»(۱۰۰).

قد يقع مصطلح «الاستعراض» فريسة للنوع نفسه من الانحراف، إن كثر استخدامه في سياق الاستهجان العام. إذ تكون المصطلحات التي يصعب تعرفها والسلوكيات التي

يصعب تعيينها قابلة للانحراف تحديدًا. والدرب معروف. إذ يكتشف الناس أن بوسعهم اللجوء إلى الاتهام بالاستعراض لنبذ المتحدث دون اشتباك جوهري. ثم تعرف بعدئذ أن الناس سيستخدمون المصطلح ضد أي شخص يقلقهم إيديولوجيًا.

يمكننا تصور أن يقول أحدهم: «لقد اعترضتما على توبيخ المستعرضين، لكنكما ألفتما كتابًا كاملًا في نقد الاستعراض، أليس هذا نفاقًا؟ ألا يجدر بكما أن تعملا بما تنصحان به؟»

ثمة وجهان لنقد الاستعراض جهارًا. الأول: أن تتهم شخصًا على رؤوس الأشهاد بالاستعراض، فقد توجه الاتهام إليه مباشرة (في رد على أحد مواقع التواصل الاجتماعي مثلًا)، أو قد تتهم شخصًا صراحة دون أن تعرفه (كأن تنتقص من قدر سياسي مستعرض على تويتر). هذه انتقادات شخصية.

والوجه الثاني للنقد العام يشمل تقييم الاستعراض عمومًا. وهذا النقد ليس اتهامًا لشخص بعينه، وهذا هو النقد العام. مثلما تقول إن الكذب مشين، دون أن تزجر أحدًا ما على الكذب، فإن بوسعك القول إن الاستعراض مشين دون زجر المستعرض. إننا نحذر من النقد الشخصي للمستعرض، لكن هذا لا يحول دون النقد العام للاستعراض.

قليلًا ما تقدم لنا الأخلاق قواعد صلبة وثابتة في المواقف الصعبة في الحياة. لكننا نرى أن الاتهامات العلنية بالاستعراض، عمومًا، ستزيد الأمور سوءًا. إلى جانب ذلك، فحالما يرى الناس تأثير النقد الشخصي للمستعرض، سيرغب كثيرون في حيازة هذه السلطة على الآخرين عبر توبيخهم على أي كلام في الأخلاق، وهذه نتيجة فظيعة. لهذه الأسباب نوصي بعدم زجر المستعرضين.

إن توبيخ المستعرض هو الرد الوحيد الممكن في نظر العديد من القراء. ودون هذا السلاح في مستودع ذخيرتنا، سيبدو احتمال تقليص الاستعراض قضية خاسرة. ولكننا لا نيئس، إذ لدينا أفكار أخرى للحد من الاستعراض وتحسين الكلام في الأخلاق.

تغيير شخصى

تمكنت بعض العادات السيئة من كثيرين في استخدامنا للكلام الأخلاقي، بل قد يكون بعضنا مستعرضًا متسلسلًا. وقد يخوضه البعض بين الفيئة والأخرى عندما يكون الحافز قويًا للغاية تصعب مقاومته. إن كنا صادقين مع ذواتنا، فسنعترف جميعًا بالاستعراض، أو الرغبة بالاستعراض على الأقل.

إرادة البشر محدودة. وإذ توصينا قناعاتنا الأخلاقية الحقيقية بألا نرتكب الأخطاء، لكننا لا نفعل الصواب تلقائيًا. وبوسعنا أن نقاوم كل شيء إلا الإغراء، كما تقول الطرفة القديمة (١١). سيفهم ما نعنيه من يحاول الإقلاع عن التدخين، والمتزوج الذي يستمر في عبثه ويستحيل إصلاحه. ربما كان الاستعراض مغريًا إغراء مماثلًا. فإيمان المرء بتفوقه الأخلاقي أمر شائع، ويصعب عليه كبح رغبته في نيل استحسان الآخرين.

لكنه ليس سمة للخطاب العام يتعذر تجنبها. تنتابنا الرغبة في أن يقدرنما الآخرون تقديرًا أخلاقيًا ساميًا، لكن هذا لا يعني بالضرورة أننا نتبعها. فالإحساس برغبة في التودد لا يبيح مغازلة الزملاء، والرغبة بنيل الإعجاب لا تجيز احتكار أحاديث العشاء بتفاخرك بمنجزاتك. فقد تعلّم معظمنا، لدى بلوغنا، ألا يشارك في هذه السلوكيات اللااجتماعية. وبوسعنا تعلم ضبط النفس حين يتعلق الأمر بالاستعراض أيضًا. ثمة تغييرات شخصية كثيرة يمكن عبرها أن تقلل من استعراضك، ولاحظ أننا قلنا «تقلل» بدلًا من «تكف». التغيير الشخصى صعب، وستظل مقصرًا مهما بذلت قصاري جهدك. ولكن لا بأس، عليك أن تبتهج لدى نجاحك في التقليل من الاستعراض، وإن لم تتخلص منه كليًا.

هندس ظرفك

من أفضل الاكتشافات المدعمة بعلم النفس في القرن العشرين تتمثل في القول إن الظروف تؤدي دورًا مهمًا في تشكيل سلوكنا. ففي إحدى التجارب مثلًا، اختبر استعداد المشاركين لتقديم المساعدة لأحد في الغرفة المجاورة لدى سماع صوت ارتطام وصراخ. قدم المساعدة سبعون بالمئة ممن كانوا وحدهم أثناء وقوع الحادث، ولكن لدى وجود شخص آخر (حليف في الدراسة) لم يهتموا للضجيج، وهب للعون ٧ بالمئة فحسب(١٠٠). في دراسة أخرى، كان المشاركون مستعدين ضعفين لإيصال بعض الأوراق إلى مكان يبعد ٤٠ مترًا، إن طلب منهم ذلك بعد خروجهم من دورات المياه العامة مباشرة(١٠٠).

«الظرفية» نظرية تقول إن للظرف نفوذًا قويًا في تشكيل سلوكنا (١٤٠). وتدرك هذه الحقيقة ضمنيًا عندما تحاول تجنب الإغراء، فإن كنت تحاول الإقلاع عن التدخين مثلًا، ستتجنب السير في الطريق الذي يقع فيه محل السجائر المفضل عندك.

سيساعدك تغيير الظرف في تحسين سلوكك في الخطاب العام. فقد تظن أن بوسعك التقليب في تويتر لساعات في اليوم، دون أن تغضب غضبًا يدفعك لتكتب تغريدة تستعرض بها

نزاهتك. وتظن أن بوسعك تجنب نشر رأي مثير مغالى فيه على الفيسبوك، رغم معرفتك أنك ستحصد ثناء كبيرًا من أصدقائك الذين يماثلونك تفكيرًا. ولكن في نظر كثيرين، سيكون الإغراء قويًا تصعب مقاومته. لذا فإن الأفضل غالبًا تجنب هذه الظروف المغرية تمامًا، وإليك بعض المقترحات.

- حدد الوقت الذي تقضيه في وسائل التواصل الاجتماعي.
 يسمح واحد من خيرة أصدقائنا الأكاديميين لنفسه بثلاثين
 دقيقة في اليوم. ويمكنك تحميل تطبيق على هاتفك من
 مثل آپ ديتوكس App Detox، أوف ذا غرد Off the
 مثل آپ ديتوكس Antisocial، مما يحظر أو يحدد
 دخولك إلى مواقع التواصل.
- لدى استخدامك وسائل التواصل، حاول إسكات المستهترين والمتطرفين أو إلغاء متابعتهم عند خوض نقاش في السياسة. فرؤية هذا النوع من السلوك، وبخاصة ممن هم على الجانب الآخر، وسيلة للإغراء بالاستعراض. وجرب قاعدة «الضربات الثلاث»، فإن أغضبك أحدهم أو أزعجك ثلاث مرات، ألغ متابعته.
- فكر في تفادي مصادر الأخبار المفرطة في تأييدها، أو التي
 تغضبك من الطرف الآخر. أو جرب أن تحدد لنفسك

ساعة في الأسبوع مثلًا من ريتشل مادو أو شون هانتي^(ا).

خطة للنجاح

مارس الرياضة أكثر، واستهلك قدرًا أقل من السكر. اقرأ مزيدًا من الكتب الجيدة. باستثناءات قليلة، نفشل في تحقيق هذه الأهداف، لماذا؟ حدد عالم النفس بيتر غولفتز، في تسعينيات القرن الماضي، المشكلة بدقة: ليس عندنا خطة.

قدم غول فتز مصطلح «العزم على التنفيذ^(ب)» للإشارة إلى خططنا في تحقيق أهدافنا. عندما نعزم على التنفيذ، نقرر متى وأين وكيف نعتزم تحقيق أهدافنا. فلنفترض أن الهدف هو الإقلاع عن التدخين. بوسعك أن تعزم على التنفيذ عندما تقرر الذهاب إلى المتجر ليالي الأربعاء لشراء علكة النيكوتين، أو أن تقرر الذهاب في نزهة كلما راودتك الرغبة في التدخين. ويساعد العزم على التنفيذ الناس في بلوغ الأهداف الصعبة. ففي دراسة أجريت على مدمني المخدرات ممن يعانون أعراض

 ⁽۱) مادو: مذیعة أخبار أمريكية ليبرالية، وشون: مذيع برامج حوارية ومعلق سياسي محافظ. (المترجمة)

⁽ب) استراتيجية تنظيم ذاتي على هيئة «خطة إذا- ثم» تمنح قدرة أفضل على تحقيق الأهداف، جنبًا إلى جنب المساعدة في تغيير السلوك أو العادة. (المترجمة)

الانسحاب، طُلب من مجموعتين من المدمنين أن يكتبوا سيرة ذاتية قصيرة قبل الساعة الخامسة مساء. كان هذا هو الهدف، وأبلغت المجموعتان أيضًا أن تكتبا تفاصيل إتمامهم للمهمة ووقت حدوث ذلك. لم تعزم المجموعة الثانية على التنفيذ. وكتب ٨٠ بالمئة من أفراد المجموعة الأولى السيرة الذاتية و لم يكتبها أحد من المجموعة الثانية. ووجدت نتائج مماثلة للعديد من الأهداف الأخرى مثل الذهاب لإجراء تصوير الماموغرام، وخسارة الوزن، وتناول المزيد من الخضروات (١٥٠). ثمة دراسات أيضًا على قدرة العزم على التنفيذ على تنظيم عواطفنا أيضًا على قدرة العزم على التنفيذ على تنظيم عواطفنا

ويساعد العزم على التنفيذ من يودون تحسين الكلام في الأخلاق. فهو يفيد تحديدًا عندما نواجه إغراء قويًا في حرارة اللحظة. أي عندما تحبط أو تغضب مما يقوله الآخرون أو يفعلونه على الشبكة، يساعدك العزم على التنفيذ الذي اتخذته مسبقًا في توجيه سلوكك بمنحك خطة تلجأ إليها، وبهذا يغدو تحفظك أسهل. إليك بعض المقترحات حول العزم الذي يمكنك تشكيله، وسنكتبها في عبارات شرطية لتكون أكثر تأثيرًا(١٧٧).

- إن رأيتُ منشورًا سياسيًا يثير غضبي، سأفتح نافذة بحث جديدة وأقرأ في الرياضة/ أشاهد نتفلكس/ أرد على بريد الكتروني/ أفعل أي شيء لا يمت للسياسة بصلة.
- إن رأيتُ أحدًا يقول شيئًا غبيًا أو تنقصه المعلومات، فلن أسارع إلى التصحيح له.
- إن قلت شيئًا لئيمًا أو نرجسيًا لأحد على الشبكة في
 الأخلاق أو السياسة، فسأعتذر له على رؤوس الأشهاد.

أعد توجيه رغبتك في نيل التقدير

تنتاب كثيرون منا رغبة قوية طبيعية في أن يعجب الآخرون بخصالنا الأخلاقية. وقد اقترحنا بعض السبل لكبح هذه الرغبة وتجنب الاستعراض. وسيكون مفيدًا العثور على منافذ أخرى نرضي بها رغبتنا في نيل التقدير.

إن الخطاب الأخلاقي العام ليس المجال المناسب للسعي السي الوجاهة. وثمة طرق أفضل يراك الناس بها مبهرًا أخلاقيًا، طرق لها عواقب أفضل وتظهر الاحترام للآخرين، وتساعدك على أن تكون شخصًا أكثر صلاحًا. ومن البدهي أن تكون هذه الخيارات محبذة أخلاقيًا، كما أنها لا يصعب العثور عليها لحسن الحظ. لن نملي عليك ما تفعله في وقتك، ولكن بقليل

من البحث ستجد منظمات في مجتمعك ترحب بالمتطوعين ليساعدوها على فعل الخير. وسيكون الناس هناك شاكرين لكل ما تستطيع المساهمة به. أو بوسعك البحث حولك بصورة غير رسمية عن أشخاص قريبين منك يودون الاستفادة من محبي الخير. إن كنت تفعل الخير لأنك تود إبهار الآخرين، فستظل تفعل شيئًا إيجابيًا إجمالًا، على خلاف الاستعراض الأخلاقي.

رغم أن تغيير سلوكنا هو النهج الآمن لمقاومة الاستعراض، فإن عندك الكثير مما تستطيع فعله للحد منه عبر تقليص استعراضك. كما أننا بحاجة إلى وسيلة لتثبيط الاستعراض عند الآخرين، لذا سننتقل تاليًا إلى بعض الاقتراحات لتحفيز التغيير الاجتماعي على نطاق أوسع.

التغيير الاجتماعي

تخيل أن يكون التغوط في العراء عادة في مجتمعك، فيطرح الناس فضلاتهم في النهر، على الضفاف التي يسميها مجتمعك الوطن. لقد أسفرت هذه العادة عن تلوث ماء الشرب، وارتفاع معدل وفيات الرضع، وتأخر نمو الطفولة بسبب الأمراض. كان الأسهل استخدام النهر بدلًا من طرح الفضلات طرحًا مناسبًا. وحالما تدرك خطورة التغوط في العراء وحجم الضرر الذي تحدثه، ستقرر التوقف عن التغوط في النهر. غير أن مجتمعك لا يحذو حذوك، بل يستمر في استخدام النهر باعتباره مرحاضًا مشاعًا. إن كنت الوحيد الذي كف عن طرح فضلاته في النهر، فستظل متأثرًا بفضلات الآخرين. وما تحتاج فعله هو جعلهم يتوقفون عن طرحها هناك.

يعتبر الكثيرون الخطاب العام مثل ذلك النهر، فيطرحون فيه خبط عشواء. قد تتحاشى الاستعراض، ولكن إن استمر الآخرون بتلويث الخطاب العام باستعراضهم، ظللت مضطرًا لمواجهة النتائج. فلا بد من العثور على طريقة تساعد الآخرين بها ليكفوا عن الاستعراض.

لدى معظم الحضارات الحديثة معيار اجتماعي يعارض التغوط في العراء. ويؤمن أفراد هذه الثقافات أن الآخرين لا يفعلون ذلك، كما يعرفون أيضًا بوجود قناعة عامة بألا يتغوط الأفراد في الخلاء. غير أن بعض المناطق، وبخاصة المناطق الريفية في الهند، لم تزل تعاني معدلات مرتفعة من هذا الفعل، ولا يعود هذا إلى الفقر، فمعدل التغوط في العراء في الهند أعلى من بلدان أكثر فقرًا من الهند بكثير، كما أن المشكلة لا

تكمن في نقص البنى التحتية، إذ أنشأت الهند، على مدى عقود، مراحيض في المناطق الريفية لمكافحة هذا الفعل. إن المشكلة في المعايير الاجتماعية التي يعززها نظام الطبقية. فإفراغ المراحيض – التقنية الوحيدة المتاحة للتخلص من الفضلات البشرية – يعد عملًا للداليت (المنبوذين) ولن يقوم به غير هؤلاء. وهؤلاء يتحاشونه عمومًا خشية الطرد من المجتمع. لذا، في عدم وجود حل أفضل، يلجأ الناس إلى التغوط في العراء، ويعتبر أمرًا عاديًا (١٨).

جذبت هذه المشكلة في الهند اهتمام علماء الاجتماع، لأنها تثير أحجية عويصة: كيف تجعل ثقافة ما تغير معيارًا اجتماعيًا؟ تصدت الفيلسوفة كريستينا بيشيري لهذا السؤال ببراعة، وأطلقت استراتيجية مفصلة لإحلال عادات اجتماعية جيدة محل أخرى سيئة (١٩). وبالاسترشاد بنهج بيشيري في تغيير المبادئ، سنقدم استراتيجية لتحويل التيار لمواجهة الاستعراض ونحو خطاب عام أكثر تأثيرًا واحترامًا. جوهريًا، نود أن ننتقل من شيء من قبيل:

المعيار الحالي: يتباهى معظم الناس، ويظنونه أمرًا مباحًا، ويكافؤون على استعراضهم.

إلى شيء من قبيل:

المعيار الجديد: يستعرض قلة من الناس، أو يظنونه مباحًا، وإن استعرضوا لا يكافَؤون على استعراضهم.

نقترح ها هنا، وقد استوحينا ذلك من بيشيري، عملية من ثلاث خطوات تساعدنا على التفكير في كيفية تغيير الثقافة في أمر الاستعراض:

الخطوة الأولى: تصحيح المعتقدات

إن أردت أن يكف الناس عن التغوط في العراء، فأول ما يتعين عليك فعله أن تعلمهم مقدار سُميّة فضلاتهم، والطريقة المثلى للتخلص منها(٢٠). هذا ليس واضحًا، ولا بد من الشرح.

إن الخطوة الأولى في تغيير معيار اجتماعي هي تصحيح معتقدات الناس. ونود، على وجه التخصيص، تغيير المعتقدات الواقعية والمعتقدات المعيارية الشخصية.

المعتقدات الواقعية هي معتقداتك حول ماهية الأشياء. ولإصلاح ثقافة الاستعراض، نحتاج إلى مساعدة الآخرين في تغيير بعض من معتقداتهم. أولًا: يحتاج معظمنا إلى تغيير

معتقدات بعينها حول ذواتنا، إذ يحمل الناس آراء خاطئة حول تنورهم أخلاقيًا. إننا نعزز لذواتنا أخلاقيًا ونبالغ في صفاتنا الأخلاقية. ثانيًا: عندنا معتقدات واقعية خاطئة عن الآخرين. إذ نفرط في تقدير الحد الذي يحتاج إليه الآخرون أو يريدون أن يسمعوا عن صلاحنا. ثالثًا: نحمل معتقدات خاطئة حول إسهاماتنا في الخطاب العام، فالمستعرض ينظر نظرة حالمة لعواقب سلوكه.

يحمل المستعرض، إلى جانب المعتقدات الواقعية الخاطئة، معتقدات معيارية شخصية خاطئة، حول ما ينبغي أو لا ينبغى له فعله. فيظن المستعرض، مثلًا، أن عليه استخدام الكلام في الأخلاق لاستعراض صفاته الأخلاقية (أو أن ذلك جائز على الأقل). فهو يظن أن بوسعه توظيف الغضب أو التعيير لإخراس الناس الذين لا يتمتعون بالصلاح الأخلاقي مثله. لكنه مخطئ في هذا. ويمكنك اعتبار هذا الكتاب محاولة في هذه الخطوة الأولى، فهو نقاش مطول حول السبب الذي يدفعنا إلى التفكير بالكلام في الأخلاق تفكيرًا مختلفًا. وما دمت واصلت القراءة، فقد صرت مدركًا لطبيعة الاستعراض الأخلاقي وشِراكه أكثر من معظم الناس، وصرت على أتم الاستعداد لتشرح لأصدقائك المهتمين عما يعتور الخطاب

العام. لكنك شخص واحد فحسب، ولن تتمكن من فعل الكثير. دعنا نساعدك إضافة إلى عملك، وسيكون هذا الكتاب هدية مثالية لأصدقائك وعائلتك في هذا الموسم السياسي.

الخطوة الثانية: كن أسوة حسنة

لا يعرف كثيرون ممن يعتبرون الخطاب العام موضعًا لطرح فضلاتهم الشخصية كيف يتصرفون. وإن عرفوا، فقد لا يكون عندهم خبرة كبيرة في الخطاب العام السليم. إذ يظن كثير ممن نشؤوا على وسائل التواصل الاجتماعي أن كثيرًا مما يرونه هو معنى الكلام في الأخلاق. وسيؤثر تشرّبك لسنوات من الإعلام المتحيز في آرائك فيما يستحق أن يوصف بالكلام في الأخلاق. ويرى البعض تبادل الإهانات على تويتر هو ما يعنيه الكلام في السياسة، ولذا يحتاج الناس أن يتعرفوا طريقة أفضل.

في كتاب لماذا نجادل (وكيف نفعل ذلك)، يناقش الفيلسوفان سكوت أيكن وروبرت تاليسي الطرق العديدة التي يضل بها الخلاف السياسي طريقه، ويقدمان عددًا من الاقتراحات لتحسين مشاركتنا في الخطاب العام (٢١). قد يساعدك شيء من استراتيجياتهما في تجنب الاستعراض. إذ يقترح أيكن وتاليسي في البداية أن نتحاشى اعتبار كل مسألة

بأنها مشكلة بسيطة وحلها بسيط. لا بأس من الاعتراف، لدى نقاش الأخلاق والسياسة، أن معظم المشكلات معقدة وأن الحلول ليست واضحة لكل مَن لا يتسم بالفساد الأخلاقي. إلى جانب ذلك، يقترحان عليك أن تجعل فرضيتك واضحة. كما ناقشنا في هذا الكتاب، ينطوي كثير من الاستعراض الأخلاقي على محاولة إيقاف أحدهم عبر الغضب أو التعبير عن الصدمة أو عبر التنحية. لكن الصدمة والغضب ليسا نقاشًا ولا أسبابًا. يقول أيكن وتاليسي إن القفز من «أنا غاضب لما قاله سام» إلى «لذا فإن سام مخطئًا، فحدد أسبابك في رفض ما يقوله.

أخيرًا: يشجعنا أيكن وتاليسي على الاعتراف بالخطا عند إدراكه، أو عندما يكون لدى آخر رأي صائب في النقاش. ما الميزة في أن تكون محقًا في كل ما تراه وتقوله؟ إن الحوار يكون مثمرًا حين نعترف بأخطائنا، والعناد قد يحفظ لك ماء وجهك لكنه ليس وسيلة الخلاف المثمر حول اختلافاتنا.

لدينا اقتراح أخير منا. عندما تشارك في نقاش أخلاقي، كن على نفسك أقسى منك على الآخرين. يميل كثيرون إلى نقد الآخرين أكثر من نقد الذات، وهذا ليس بغريب. فنحن نقيم الآخرين مقابل مجموعة معايير خصوصية نلزم بها أنفسنا.

وسيفعل الآخرون ما هو أسوأ وفقًا لمجموعة من المعايير الأخلاقية التي لا يدركونها. إلى جانب ذلك، ورغم ميلنا إلى عزو إخفاقاتنا إلى الحظ السيء أو ظروفنا الخارجة عن إرادتنا (قطعت الإشارة الحمراء لأن الشمس كانت في عيني)، ونميل إلى عزو فشل الآخرين إلى شخصياتهم السيئة (قطعتِ الإشارة الحمراء لأنها مستهترة) (٢٢). لكن هذا ليس عدلًا، وكي نقاوم تحيّزنا علينا أن نكون مستعدين لمنح الآخرين الاستفادة من الشك. يقول الفيلسوف روبرت فُلنوِندر «تفرض الأخلاق فرقًا أساسيًا في العمل، إذ تطلب منا الإحسان إلى الآخرين، والصرامه مع أنفسنا» (٣٣).

إن الهدف من القدوة الحسنة ليس إظهار أنك أفضل من الآخرين قطعًا، بل كما تشرح بيشيري «إخبار الناس بعيب يشوب السلوك ليس كمثل إقناعهم بعرض القدوة عليهم من أفراد يمارسونه ممارسة صحيحة»(١٤٠). ويعني هذا أن تكون قدوة حسنة، فإذا رأى الآخرون طريقة أفضل للحديث عن المسائل الأخلاقية، فقد يدركونها ويردون بالمثل.

الخطوة الثالثة: عقاب المستعرض

إن أردنا أن يكف الناس عن فعل شيء- كالتغوط في الأماكن العامة أو الاستعراض- فعلينا فرض عقوبات لعدم

الامتثال. والهدف أن يعرف الناس أن الرد على استعراضهم لن يكون سارًا. قلنا إن توبيخ المستعرض فكرة سيئة، ولكن ثمة أشكال أخرى من العقاب قد يكتب لها النجاح أكثر في تنفير الناس من الاستعراض. إليك مجموعة من المقترحات التجريبية.

تتمثل إحدى الطرق في التنفير من الاستعراض في جعله محرجًا. وبوسعك تأدية دورك في تحقيق هذا الهدف بامتناعك عنه. ففي وسائل التواصل الاجتماعي، يمكنك أن توقف مديحك، والإعجابات في الفيسبوك وإعادات التغريد في تويتر. لا مزيد من التعليقات من قبيل «هذا شجاع شجاعة مدهشة» لأشخاص يتخذون مواقف مجانية في الدفاع عن قناعاتهم الأخلاقية، التي يوجهها محبوبو الجماهير إلى أصدقائهم الذين يماثلونهم فكرًا. لا تدعم سياسيًا لأنه يعطي انطباعًا بأنه من الصالحين في تحايل دعائي. وإن شارك الناس في استعراض نزاهتهم في العمل، أعرض عنهم. والمعنى الجوهري لهذا كله نزاهتهم في العمل، أعرض عنهم. والمعنى الجوهري لهذا كله ألا تمنح الآخرين فضلًا لسعيهم للفت الانتباه.

تخيل مشلًا كتابة منشور فيسبوك بحرفية عالية يذكر كل تفاصيل اشمئزازك من الجامعة المحلية لتقديمها طعامًا صينيًا مستحوذًا ثقافيًا في قائمة الطعام، ولم يحصد إعجابًا واحدًا. ما

يريد كاتب منشور كهذا هو الشيء الذي يجب ألا يحصل عليه: ثناؤك. وإن حبس المزيد منا ثناءهم على الاستعراض، فقد يتضح أكثر أنه لا يجدي نفعًا.

قلنا سابقًا إن توبيخ المستعرض أو إحراجه فكرة سيئة بسبب صعوبة التأكد من استعراض أحدهم. وقد يساورك القلق من تعارض اقتراحنا هذا مع ما قلنا. إن لم نكن متأكدين فنوبخ المستعرض المزعوم ونزجره، فكيف لنا أن نكون متأكدين فنحبس عنه ثناءنا؟

ثمة اختلاف حاد بين توبيخ الناس وحبس الثناء عنهم. وعندما توبخ أحد على استعراضه فإنك تنتقده على الملأ، وتضر بسمعته إن كنت مخطعًا. وإن كنت مصيبًا وكان مستحقًا للنقد، فإن توبيخه سيظل مؤديًا إلى نقاش عقيم فيما إذا كان يستعرض حقًا. كما ستتهم بمحاولة إخراس الآخر أو قمعه. ويكون الخطر عاليًا عندما تفكر فيما إذا كان عليك زجرهم.

ولكن هذا الخطر أقل بكثير إن حبست عنهم المديح. إن كتت محقًا في أن أحدهم يستعرض، فقد نجحت بألا تكافئ شخصًا لا يستحق المكافأة. وإن كنت مخطئًا ومنعت مديحك، فماذا فقدت؟ ليس أكثر مما ستفقد لو لم يكن لك حساب على وسائل التواصل مطلقًا. (في الحقيقة، بفعلك هذا تجد وقت فراغ كافيًا لفعل شيء هادف ومثمر أكثر، كالتطوع وغيره من المشاغل التي اقترحناها لتكون وسيلة بديلة يصرف بها المستعرض طاقته). وحتى المنشورات غير المستعرضة المتسمة بالحكمة والشجاعة في وسائل التواصل لا تحتاج انتباهك ودعمك. ولأن القليل منها على المحك، فلا بأس في حبس مديحك عن حالات الاستعراض المشتبه فيها، وإن لم يكن زجر الشخص نفسه مقبولًا.

اقتراحنا الثاني لردع المستعرض أكثر عنفًا، ونقدمه بشيء من التحفظ. وهو كالآتي: إن رأيت أحدًا يجعل من الاستعراض غطاء – أي يجعل الناس أقل ارتيابًا في كونه امراً يرتكب أفعالًا سيئة، كما ناقشنا مسبقًا – فكر بتوبيخه على الملأ على السلوك المشين الذي يحاول إخفاءه. ولا شك أن هذا يجب ألا يمارس باستهتار. إذ يجب ألا تتهم أحدًا بارتكاب الأخطاء ما لم يكن عندك دليل دامغ على اتهامك. وقد لا يكون من شأنك أن توجه الاتهام على أية حال، فقد لا يرغب ضحايا المستعرض بنشر تفاصيل حياتهم علنًا لأسباب وجيهة. لكن التباهي بقصد التغطية ظاهرة خطرة، إذ يؤخذ كثيرون بأفعال المستعرض، لذا فإنه يكون حرًا في مواصلته تخطئة الآخرين.

ربما لم تعد بعض الأشياء في الاستعراض تثير غضبنا، لكننا ما نزال نشعر بالإحباط عندما نسمع الناس يقولون إنهم لا يصدقون إن مشهورًا ما أو شخصية عامة يقدم على إيذاء امرأة، أو يسيء إلى طفل، أو غير ذلك، لأنه كثيرًا ما يؤيد بالكلام فحسب قيمهم الأثيرة. قل إذن لضحايا هارڤيه واينستين وروي مور وغيرهما من المستعرضين البارعين إن القليل من الاستعراض لن يضر بأحد. وإن رأيت في عمل أفعالًا نادمة كأفعالهما، فلا تتهم مقترفها بالاستعراض. بل اتهمه بالخطأ الذي اعتزم ستره عبر استعراضه.

ستتغير المعايير عندما ينظر الناس إلى الخطاب نظرة مختلفة. وسيكف عن الاستعراض كثيرون ممن جاؤوا لمعرفة الوجه القبيح في الكلام الأخلاقي. سيدركون أنهم يسيئون معاملة الآخرين ويدمرون موردًا عامًا. وسيلاحظون أن الاستعراض، على المدى الطويل، يخفق كثيرًا، وأن الإغراءات بالاستعراض تعدبالكثير وتؤتي القليل، وسيستشفون احتمالات بخطاب أفضل ويكونون قدوة حسنة. وسيتعهدون أن يمنعوا عن المستمرين في الاستعراض الشيء الذي يرغبون به: أي مديح الآخرين. حالما يعرف الناس خطر الاستعراض، ويرون أنه كثيرًا ما يقابَل بالصمت، سيصبح الانغماس في رغباتنا من أجل المديح في الميدان العام أمرًا محرجًا.

سبب للتفاؤل

سنسامحك لقراءتك وتأففك من نقاشنا حول تغيير المعايير بشأن الاستعراض. فنحن بعيدون للغاية عن عالم يرى الاستعراض خرقًا خطيرًا لمعيار ما، لذا سيبدو نصحنا غريبًا. كيف لنا أن نرى أن الأشياء ستتغير إلى هذا الحد؟

إن تغيير المعايير ليس سهلًا، وليس عملية سريعة. ويحتمل أنك ستحفز كثيرين للكف عن اعتبار الخطاب العام مشروعًا لغرورهم. ولكن المعايير تتغير عندما يبدأ كثيرون بالنظر إلى الخطاب العام نظرة مختلفة. تتغير المعايير دومًا، نحو الأحسن ونحو الأسوأ، وإن كان السلوك الذي تضبطه متجذرًا عميقًا في الطبيعة البشرية.

تذكر على سبيل المثال نوعًا آخر من المعايير: آداب المائدة. إليك مقتطفات شائعة من الإرشادات حول السلوك اللائق على المائدة مع جمع مهذب، مأخوذة من دليل آداب اللياقة من حقبة العصور الوسطى وعصور النهضة:

- «V يليق أن تنفر أنفك في مناديل المائدة» •
- لا «تنكب على الأطباق كالخنزير وتنخر نخيرًا مقرزًا وتتلمظ بشفتيك أثناء الأكل» (٢٦).

- إنها «لإهانة حقيقية» أن «تقضم عظمًا ثم تعيده إلى طبق
 [التقديم]»(۲۷).
- ويشير إراسموس باستياء، في مقطع نابض بالحياة، إلى أن البعض "يلتهمون الطعام ولا يأكلونه، كأنهم سيقادون إلى السجن». أو "يملؤون أفواههم فتنتفخ أوداجهم مثل المنفاخ». وآخرون "يفتحون أفواههم عند الأكل، فيصدرون أصواتًا كأصوات الخنازير»(٢٠).

قد يصعب على القراء تصديق أن هذه الإرشادات كتبت من أجل بالغين يعيشون في مجتمع متحضر. ولكنه مشجع حقًا، انظر إلى الأمر على هذا النحو. لا بدأن هذا السلوك الفوضوي كان شائعًا، بما يسوغ استخدام الحبر والورق للتحذير منه. علاوة على ذلك، لا بدأن هذا السلوك كان طريقة طبيعية وكافية عند كثيرين لإشباع الرغبات البشرية الأساسية. وقد بتنا نؤمن أن مصادفتنا لأحد يفعل هذه الأشياء غير معقولة. وبدلًا من أن ينفر الجميع أنوفهم في مناديل المائدة، ها قد - وصلنا بصورة ما إلى زمن يكون فيه هذا السلوك محرجًا. كيف وصلنا إليه؟ عبر ترويج معايير اجتماعية مختلفة، وأدى ذلك أن يعتبر الناس هذه خرقًا محرجًا للياقة.

يكون نجاح تغيير المعايير مشجعًا لمن يقلقه الاستعراض في الوقت الراهن. إن الاستعراض شائع أيضًا، ويقبله كثيرون باعتباره طريقة كافية وطبيعية لإشباع بعض الرغبات البشرية في نيل التقدير. ورغم أن التغيير لا يبدو واقعيًا من موضعنا الآن، فإن بوسعنا تغيير سلوكنا في الخطاب الأخلاقي العام، ويجب علينا ذلك.

الهوامش

توطئة

(1) https://quillette.com/2018/07/14/iwasthe-mobuntilthemobcameforme/ [accessed 9/15/18]

الفصل الأول

- (۱) كل واحد من هذه السلوكيات هو علامة تحذير لاضطراب الشخصية النرجسية عند الأطفال.
- https://www.psychologytoday.com/blog/warningsignsparents/201701/childhood-rootsnarcissisticpersonalitydisorder [accessed 7/8/18]
- (2) http://www.oxygen.com/veryreal/womanwasdestroyedontwitterforblamingwhitemensentitlementforalligatordeath [accessed 7/8/18]

(3) https://twitter.com/TheBrandonMorse/status/914885815901319168 [accessed 7/8/18]

ارشفت سركيسيان التغريدات المسيئة هنا https://femfreq.tumblr.com/
post/109319269825/oneweekofharassmentontwitter [accessed 7/8/18].

- (5) https://www.bbc.com/news/av/worlduscanada24308586/obamaattacksrepublicangrandstanding [accessed 7/7/18]
- (6) http://www.latimes.com/opinion/editorials/laedplannedparenthoodsenatevote-20150804story.html [accessed 7/7/18]
- (7) https://www.brookings.edu/blog/upfront/2012/10/09/mittromneysforeignpolicyagenda/ [accessed 7/7/18]
- (8) https://www.nytimes.com/2017/10/18/ opinion/whatsthematterwithrepublicans. html [accessed 7/7/18]

- (9) http://www.donaldjtrump.com/positions/ secondamendmentrights [accessed 1/6/16]
- (10) https://www.nbcnews.com/news/usnews/
 trumprevealsheaskedcomeywhetherhewasunderinvestigationn757821 [accessed
 7/7/18]
- (11) https://www.washingtonpost.com/news/thefix/wp/2018/06/26/trumpcantstop-dissingjohnmccain/[accessed 7/7/18]
- (12) http://money.cnn.com/2017/10/05/media/harveyweinsteinsfullstatement/ [accessed 7/8/18]
- (13) https://www.theatlantic.com/politics/ archive/2017/09/thelawlessnessofroymoore/541467/ [accessed 4/28/19]
- (14) https://www.washingtonpost.com/news/powerpost/wp/2017/11/14/innewtvad-alabamademocrathitsroymooreoverawful-allegations/ [accessed 7/8/18]

- (15) http://www.nationalreview.com/ corner/454230/philosophyprofessormakesterribleargumentroymoore [accessed 7/8/18]
- (16) http://edition.cnn.com/
 TRANSCRIPTS/0308/14/se.03.html
 [accessed 6/26/18]

الفصل الثانى

- (1) (Kelly 1888)
- (2) http://www.thecrimson.com/ article/1970/10/17/booksatwarwithasia313/[accessed 7/8/18]
- (3) https://newrepublic.com/article/91139/ indiragandhicorruptionindiasupremecourt[accessed 7/8/18]
- (4) https://www.rogerebert.com/reviews/just-beforenightfall1976 [accessed 7/8/18].

 (٥) قد يود الفيلسوف والقارئ الأكاديمي الاطلاع على وصفنا الأكثر تفصيلًا وعملية لمفهوم الاستعراض

الأخلاقي باعتباره عينة بدئية في عملنا (توزي ورمكي، ٢٠١٦).

- (6) (Cheng, Tracy, and Henrich 2010; Henrich 2015)
- (7) (Buss and Dedden 1990; Schmitt and Buss 2001)
 - (A) لخصت نتائجنا الأولى ونوقشت في بحث بالاشتراك مع علماء النفس جوشوا ب. غربز، وشانتي جيمس، و و. كيث كامپل بعنوان -»الاستعراض الأخلاقي في الخطاب العام: دوافع السعي نحو المكانة بوصفها آلية تفسيرية محتملة للتنبؤ بالنزاع»، يمكن الاطلاع عليه هنا:

https://psyarxiv.com/gnaj5/.

تتوفر كل بياناتنا هنا

the Open Science Framework here: https://osf.io/r3j45/.

- (9) (Grubbs et al. 2019)
- (10) (Leary and Kowalski 1990, 35)
- (11) (Grice 1989)

(12) (Pinker, Nowak, and Lee 2008)

(۱۳) مستوحي من (Wittels 2012, 71).

(١٤) لنقاش موجز حول أنواع الخصائص السياقية التي تساعد إدارة الانطباعات أو تعرقلها انظر:

(Steinmetz, Sezer, and Sedikides 2017, 2–3). See also (Grice 1989).

(١٥) حول المنافسة انظر

(Brown 2012; Möller and Savyon 2003).

حول الطموح انظر

(Alicke et al. 2001).

الذكاء انظر

(van Lange and Sedikides 1998).

حول الحكمة انظر

(Zell and Alicke 2011).

- (16) (M. Ross and Sicoly 1979; Fields and Schuman 1976; T. W. Smith, Rasinski, and Toce 2001; White and Plous 1995)
- (17) (Cross 1977)
- (18) (Goethals, Messick, and Allison 1991)-

- (19) (Tappin and McKay 2017)
- (20) (Epley and Dunning 2000; Fetchenhauer and Dunning 2006; Klein and Epley 2016, 2017)
- (21) (van Lange and Sedikides 1998)
- (22) (Tappin and McKay 2017; Dunning 2016) انظر (۲۳)

(Dunning 2016, 172).

(24) (Klein and Epley 2016, 660).

انظر أيضًا

(Allison, Messick, and Goethals 1989; van Lange and Sedikides 1998; Epley and Dunning 2000; Sedikides and Alicke 2012).

- (25) (Goethals 1986)
- (26) (Epley and Dunning 2000)
- (27) (Klein and Epley 2017)
- (28) (Sedikides et al. 2014)
 (۲۹) للنقاش حول استبيان مئات الآلاف حول العالم
 انظر

(McGrath 2015

الذي وجد «تقاربًا جوهريًا عبر ثقافي في التقييم الذاتي لمواطن القوة في الشخصية».

(McGrath 2015, 43)

(٣٠) تشير الأبحاث إلى ميل الناس في الثقافات الجمعية (٣٠) (كالصين مثلًا) إلى التعزيز الذاتي أخلاقيًا أقل منه في الثقافات الفردية (الولايات المتحدة وإنجلترا). (Liu 2013; Dunning 2016)

غير أن الناس في الثقافات الجمعية يميلون إلى تعزيز صفاتهم الجمعية الفائقة. بعبارة أخرى، تغير السياقات الثقافية طريقة التعبير عن التعزيز الذاتي، لكن الميل البشري العام إليه أعمق من الثقافة فيما يبدو.

- (31) (Tappin and McKay 2017)
- (32) (C. Miller 2017, 156)
- (33) (Epley and Dunning 2000)
- (34) (Epley and Dunning 2000)
- (35) (Tappin and McKay 2017)
- (36) (Leary and Kowalski 1990).
- (37) (Rom and Conway 2018

- (38) (Vonasch et al. 2018)
- (39) (Leary and Kowalski 1990).

(٤٠) يسمي علماء النفس هذا بإدارة الانطباع السابق على الانتباه

(Leary and Kowalski 1990).

- (41) (Nisbett and Wilson 1977)
- (42) https://aeon.co/ideas/confabulationwhytellingourselvesstoriesmakesusfeelok [accessed 7/7/18]
- (43) (Simler and Hanson 2018, 105)
- (44) (von Hippel and Trivers 2011)
- (45) (Grice 1989)
- (46) (Goffman 1959, 13)
- (47) (Laurent et al. 2014; Powell and Smith 2013)
- (48) (Heck and Krueger 2016)
- (49) https://www.vanityfair.com/ hollywood/2017/01/merylstreepdonaldtrumpgoldenglobesspeech [accessed 2/10/19]

- (50) https://twitter.com/Lavernecox/status/818295093564059648 [accessed 7/7/18]
- (51) https://twitter.com/unfoRETTAble/status/818295017152258048 [accessed 7/7/18]
- (52) https://twitter.com/MarkRonson/status/818292916787429377 [accessed 7/7/18]
- (53) https://www.nationalreview.com/2017/01/
 merylstreepgoldenglobesspeechpoliticaldonaldtrumpmoralizinghypocrisy/
 [accessed 7/7/18]. Though not everyone
 who shares Streep's political views was
 impressed. See https://variety.com/2017/tv/
 news/trevornoahmerylstreepspeechtone
 deaf1201956927/ [accessed 7/7/18]
- (54) https://www.nytimes.com/2017/08/08/magazine/virtuesignalingisnttheproblem-

- notbelievingoneanotheris.html [accessed 7/8/18]
- (55) (Grubbs et al. 2019)
- (56) https://www.spectator.co.uk/2015/10/ iinventedvirtuesignallingnowitstakingovertheworld/ [accessed 7/7/18]
- (57) (Zahavi 1975; Zahavi and Zahavi 1999)
- (58) (Jamie 2017)
- (59) (Caplan 2018)

الفصل الثالث

(1) (Nozick 1990, 303)

- (3) https://www.nytimes.com/2018/05/02/ world/asia/chinesepromdress.html [accessed 7/17/18]
- (4) (Asch 1956)
 (a) درس رود بوند وپيتر سمِث الأبحاث العلمية الاجتماعية حول الامتثال الاجتماعي، والتي بلغ عددها ١٣٣ دراسة في ١٧ دولة. ووجدا أن

«الامتثال يكون أعلى بكثير (أ) كلما كان حجم الأغلبية أكبر، (ب) كلما كانت النسبة الأكبر من المشاركين من الإناث، (ج) إن لم تكن الأغلبية تتألف من أعضاء الجماعة المخالفة، (د) كلما كان المثير مبهمًا». (بوند وسمث ١٢٤, ١٧٤). كما وجدا أيضًا أن مستويات الامتثال قد تراجعت منذ دراسات آش الأولى، وأن امتثال أفراد الثقافات الجمعية.

(٦) من الطريف أن تسجيلات الــڤيديو أظهرت تبادل المشاركين ما يمكن وصفه بنظرات الحب حقًا مع المشارك المخالف بالرأي. شاهد:

https://www.youtube.com/watch?v=TYIh4MkcfJA[accessed 7/17/18].

(۷) سيليمن: إنه شديد الكِبْر –
هذه الكلمة المناسبة لوصفه، يا لغروره الفظيع!
الفكرة الرئيسة الوحيدة التي تشغله
أنه «لم يحظ بتقدير» البلاط
الذي ينتقده طوال النهار، كل يوم

تجاهلته «السلطة»، كيف تجرؤ على ذلك؟ إنه هجاء فظيع أبدي لم يمنح رتبة، ولا عُين في منصب هذا ليس «ظلمًا مجحفًا» بحق الرجل. (مولير ٢٠٠٨)

- (8) (Willer, Kuwabara, and Macy 2009)
 - (٩) حول الظاهرة العامة «لتزييف الميول»، انظر (كوران، ١٩٩٥).
 - (۱۰) لم تبحث دراسة (ولر، كوابارا وميسي ۲۰۰۹) الفرض الزائف للآراء الأخلاقية صراحة. أمن الممكن أن يميل الناس أكثر إلى معارضة ما يرونه آراء شائعة، إن كانت هذه الآراء الأخلاقية عن الإجهاض او زواج المثليين على سبيل المثال؟» نشك في ذلك، رغم أننا لم نطلع على أي دراسة تبحث هذا على وجه التحديد. ولكن ثمة دليل أن الناس يغيرون أحكامهم الأخلاقية عامدين، بغية تقديم انطباعات إيجابية حسب مقتضى الموقف». (روم وكونوى ۲۰۱۸، ۳۲).
- (11) (C. S. Ryan and Bogart 1997)

(12) (Marques, Yzerbyt, and Leyens 1988; Pinto et al. 2010)

(١٣) يصعب طبعًا معرفة ما إذا كان أى مظهر بعينه للتكافل جديرًا بالثناء، أم أنه مثال على الاستعراض. قد يكون من المغرى تجنب هذه المشكلة بالقول إن كل مظاهر التكافل جديرة بالثناء، ولكن الواقع أكثر تعقيدًا من هذا. فبعد تصويت بركست، مثلًا، التزم البعض في المملكة المتحدة بوضع مشابك بادية للعيان على ثيابهم للإشارة إلى دعمهم للاجئين والمهاجرين. عاود الرمز الظهور في الولايات المتحدة بعد انتخاب الرئيس ترامي، إذ استخدم الناس المشابك ليقولوا إنهم يدعمون الأقليات. فعل بعض واضعى المشابك ذلك بدافع الاهتمام الحقيقى بهذه الجماعات، مؤمنين أن أفرادها سيشعرون بالراحة لدى رؤيتهم المشابك، ولم يكترثوا بإثارة إعجاب آخرين. غير أن البعض الآخر من واضعى المشابك شعروا بالفخر بأنفسهم وبأصدقائهم لإظهارهم إشارة لا تكلفهم شيئا مختلفة عن معارضة نتائج الانتخابات الأخيرة،

ومضوا في شؤونهم بمعزل عن الناس المظلومين الذين أعلنوا دعمهم لهم. في الحقيقة، لم يستطع بعضهم الانتظار حتى ينشر صورة للمشبك على حساباتهم في مواقع التواصل الاجتماعي مطعمة بالوسم المناسب، بدافع المشاركة بالفعل. نود تقديم شكرنا لتاملر سومرز وديفد پيزارو على هذا المثال.

(14) (Norris and Kristensen 2006)

(١٥) سيطر على خطابة الحرب الباردة تفكير واه حول «ثغرات» عديدة، سخر منها سخرية مرة ستانلي كوبرك في فيلمه «سترينجلوڤ» عام ١٩٦٤. للمزيد حول «تفاوت القذائف/ لا تكافؤ الصواريخ» انظر (Preble 2003)

- (16) (Festinger 1954)
- (17) (Rom and Conway 2018)
- (18) (Andersen 1993, 69).

تعرف الحكاية أيضًا بعنوان مختلف «الأميرة الحقيقية»، كما وردت في مجموعة أندرسن ثمة حكاية إيطالية لها حبكة مشابهة، تترجم عادة

- إلى «المرأة الأشد حساسية» في مجموعة (Schneller 1867, 128–29) في تلك القصة، يقرر الأمير الزواج من امرأة قدمها معصوبة مشلولة بعد أن جلب النسيم عليها بتلة من زهرة ياسمين.
- (19) h t t p://insider.foxnews.

 com/2014/09/23/%E2%80%98howdisrespectfulwasthat%E2%80%99karlroveblastsobama%E2%80%99s
- (20) https://www.breitbart.com/blog/2014/09/23/ObamasDisrespectful-LatteSaluteShocksandOffends/ [accessed 9/20/18]
- (21) (Driver 2005, 137)

 (21) لاحظ أن الوعظ لا يشبه الاستعراض، بل قد يكون

 الاستعراض شكلًا من أشكال الوعظ. لم يكن

 صاحب البيت المسن بحاجة لإثارة إعجاب أحد

 بخصاله الفاضلة. ولكن بعض أشكال الاستعراض

 كالفيركة قد تتضمن الوعظ.
- (23) (Mill 1989, 85)

(24) (J. Jordan et al. 2017; Kennedy and Schweitzer 2015; Tetlock 2002)

(٢٥) تشوب حكاية الثقة شائبة هامة. بينما يزيد المراقبون درجة ثقتهم الإدراكية بالمتهمين بمعنى أنهم يريدونهم أكثر مصداقية بوصفهم ناقلين للحقيقة فإن تقييمهم للمتهمين فيما يتعلق بالثقة المؤثرة ينخفض بوصفهم أناسًا يودون مشاطرتهم رابطة

الاتهام ميشير إلى درجة منخفضة من الخير. يحترم الناس المتهمِين فلا يميلون إلى اتهامهم، ولذا يثقون بهم ثقة أقل فاعلية.

عاطفية. يحصل المتهمين على ثقة مؤثرة قليلة لأن

- (26) https://newsroom.fb.com/companyinfo/ [accessed 7/17/18]
- (27) http://www.adweek.com/digital/datanever-sleeps/ [accessed 11/18/17]
- (28) http://files.shareholder.com/downloads/
 AMDA2F526X/5458918398x0x961121/3
 D6E46319478453FA8138DAB496307A1/
 Q3_17_Shareholder_Letter.
 pdf[accessed11/18/17]

(29) https://www.omnicoreagency.com/twitter-statistics/ [accessed 11/18/17]

(٣٠) وجد المؤلفان أن «اليمين يستخدم خطابًا أكثر غضبًا من اليسار قطعًا»، رغم «أن أسوأ الأفراد المنتهكين وجدوا في كل من اليسار واليمين». " (٢٠١٤) كان هذا بلا شك حقيقيًا عام ٢٠٠٩، العام الأول لتولي باراك أوباما الرئاسة. وقد نفاجاً أن اليسار لم يتفوق على اليمين في الكلام الحانق والغضب، ونحن نكتب هذا عام ٢٠١٩، أي العام الثالث على تولى دونلد ترامب الرئاسة. وجدت دراسة للفيسبوك أجراها مركز ييو للأبحاث، أن نسبة ردود فعل جمهور الفيسبوك التي استخدمت زر الغضب ردًا على منشورات لأعضاء الكونغرس الديمقر اطيين قد تضاعفت ثلاث مرات بعد الانتخابات [الرئاسية عام ٢٠١٦]. وبالمقابل، ظلت ردود الفعل الغاضبة على روابط الأخبار التي شاركها الجمهوريون «ثابتة نسساً».

http://www.peoplepress.org/2017/12/18/sharingthenewsinapolarizedcongress/
[accessed12/19/17]

(31) (Berry and Sobieraj 2014, 36)

(٣٢) انظر مثلًا

(Skitka, Bauman, and Sargis 2005; Skitka 2010).

(33) (Skitka 2010, 267)

(٣٤) هذا ما يحدث حتى لدى ضبط المتغيرات كاصطناع التدين، والمواقف المتطرفة والمشاركة السياسية. انظر

(Skitka 2010; Mullen and Skitka 2006; Skitka and Wisneski 2011).

(٣٥) يوظف الناس إحساسهم بالحنق لإدامة الإحساس بنزاهة الذات

(Green et al. 2019).

(36) (Skitka and Wisneski 2011, 329)

(٣٧) إن كان ثمة برهان على تأكيد اليسار واليمين على قيم أخلاقية مختلفة، فقد وجدت سكيتكا وزملاؤها فارقًا بسيطًا في الحدود -الإيديولوجية حين يتعلق الأمر بالقناعات الأخلاقية. باختصار، يختلف المحافظون والليبراليون في شدة القناعة الأخلاقية

التي يربطونها بمسائل معينة. فالمحافظون مثلًا أكثر اقتناعًا من الليبراليين بالميزانية الاتحادية، والعجز، والهجرة والإجهاض. أما الليبراليون فأشد اقتناعًا باللامساواة والتعليم والبيئة.

values (Haidt 2012)

- (38) (Rothschild and Keefer 2017).
- (39) (Rothschild and Keefer 2017)
- (40) (Green et al. 2019, 209)
 - (٤١) من حلقته الخاصة في كوميدي سنترال ٢٠١٢، ستاندأب كوميديان.
 - (٤٢) المسألة الرئيسة، وفقًا لإحدى مراجعات الاستنتاج، أن أجهزة كشف الكذب صممت لكشف التوتر، الذي قد يكون سببه مختلف الأمور التي لا علاقة لها بالكذب؛ كالخضوع لأسئلة مزعجة في مكان غريب.

(Saxe, Dougherty, and Cross 1985).

وعن ذلك، يمكن أن يهزم المشتركون الأجهزة عبر إجراءات مضادة كضغط أصابع الأقدام على الأرض، أو العد عكسيًا بسبعة أرقام أثناء الاستجواب.

(Honts and Kircher 1994).

(43) (Adelson 2004)

(٤٤) للمزيد انظر

(Grubbs et al. 2019).

الفصل الرابع

(1) https://www.youtube.com/watch?v=aFQFB5YpDZE [accessed 6/4/19].

من العدل أن نشير أنه، بعد خمسة عشر عامًا، مسرح كوميديا آخر الليل الذي عمل ستورت على تشكيله قد فقد حبكته، إذ أصبح يعتمد على كوميديا تسعد الجمهور، تقوم على التصفيق والضحك، كوميديا موجهة تقدم بغير قصد البغاء السياسي على المزايا الكوميدية، بدلًا من تقديم النكات الحقيقية.

https://www.vulture.com/2018/01/therise-ofclaptercomedy.html [accessed 6/4/19]

(٢) كما أقر أحد مذيعيه على الأقل.

https://www.cnn.com/2015/02/12/opinion/begalastewartblewupcrossfire/ [accessed 6/4/19]

- (3) (J. E. Campbell 2016, 61–90)
- (4) (J. E. Campbell 2016, 173–95; Theriault 2008)
- (5) (Groenendyk 2018; Mason 2018)
- (6) (Kalmoe and Mason 2019)
 (۷) الكتب الصادرة مؤخرًا حول الاستقطاب السياسي
 تشمل:
 - (J. E. Campbell 2016; Fiorina 2017; Rosenfeld 2017; Hopkins 2017; Mason 2018).
- (8) (Fiorina and Abrams 2010; Fiorina 2017)
 (٩) لنقاش هذه الدراسات انظر(Sunstein 2002, 2009).
 - (١٠) استعرنا المثال من

(Sunstein 2002, 175-76).

- (11) (Luskin et al. unpublished)
- (12) (Sunstein 2002, 176)

 (١٣) صنفه استفتاء حديث لعلماء السياسة حقًا بأنه أسوأ

 رئيس على الإطلاق، وهذا في السنة الأولى من

 فتر ته الرئاسة الأولى فحسب.

- https://www.nytimes.com/ interactive/2018/02/19/opinion/howdoestrumpstackupagainstthebestandworstpresidents.html [accessed 9/15/18].
- (14) Rush Limbaugh: https://www.facebook.
 com/RushLimbaughAndTheEIBNetwork/
 posts/10153549717677906 [accessed
 9/15/18].
- (15) A Rasmussen poll: http://www.rasmussenreports.com/public_content/politics/current_events/bush_administration/41_say_ bush_worst_president_ever_50_disagree [accessed 9/15/18].
- (16) (Will 2002, 238)
- (17) http://thehill.com/blogs/flooraction/house/363240pelosigoptaxproposalthe-worstbillinthehistoryoftheunited [accessed 3/5/18]
- (18) http://thehill.com/blogs/flooraction/

house/363240pelosigoptaxproposaltheworstbillinthehistoryoftheunited [accessed 3/5/18]

(19) (Le Bon 1897, 34–35)

(۲۰) لنقاش الآثار السيئة للجهل السياسي المتفشي، انظر (۲۰)

(J. Brennan 2016; Achen and Bartels 2016;

Caplan 2007; Somin 2013; Pincione and Tesón 2011).

- (21) (Oliver and Wood 2014)
- (22) http://www.newsweek.com/trumpbirtherobamapollrepublicanskenya744195 [accessed 9/15/18]
- (23) (Ahler and Sood 2018; Graham, Nosek, and Haidt 2012)

(٢٤) الأرقام السابقة مأخوذة من

(Ahler and Sood 2018).

- (25) (Somin 2013, 192)
- (26) (Walter and Murphy 2018) (27) يشير عالم الإدراك فيليپ فرنباخ وزملاؤه إلى تمتع

الناس بمستوى غير مبرر من الثقة في فهمهم للبرامج السياسية والاجتماعية، من مثل فرض العقوبات على إيران، أو تغيير نظام الرعاية الصحية أحادي الدافع. وحين طلب الباحثون من هؤلاء المشتركين ليشرحوا آلية عمل البرامج التي يستحسنونها، قال المشتركون إنهم أقل ثقة بفهمهم للبرنامج، كما عدلوا مواقفهم تجاهه. افترض الباحثون أن الطلب من المشترك ليشرح آلية البرامج أجبره على مواجهة جهله وتعديل ثقته وتطرف مواقفه.

(28) (Yamamoto and Kushin 2014, 441).

درس هذا البحث العلاقة بين إعلام الشبكة والنفور السياسي أثناء حملات الانتخابات الرئاسية عام ٢٠٠٨. لا بد من الإشارة إلى

أن الباحثين يعرّفان الكلبية السياسية تعريفًا يختلف عن تعريفنا، إذ استخدماها للإشارة إلى اتجاه يسيء الظن بالنظام السياسي ويفتقر إلى الثقة فيه.

يعرف ياماماتو وكوشن النفور باللامبالاة بالسياسة، أو قلة الاهتمام بها أو قلة الانتباه إليها.

(29) Citing (Jamieson 1992), Claes H. de Vreese

يعرف كلايس هد. دي ڤيرز الأخبار الاستراتيجية أنها أخبار تركز على الربح والخسارة، توجهها «لغة الحرب والمباريات»، وتبرز المذيعين والنقاد والجمهور، كما تركز على أسلوب المرشح وفطنته، وتولي أهمية لاستفتاءات الرأي. لأسباب عديدة، راجعت دراسة لاحقة استنتاج كاپلا وجيمسن، والذي ركز على المواضيع الأمريكية، وعارضته. لنقاش ردود الفعل هذه وللاطلاع على الدراسات في المواضيع الألمانية والدانماركية انظر

(de Vreese 2005).

يزعم دي ڤيرز على نحو حاسم أن آثار الإعلام الاستراتيجي في توليد السخرية محدودة إن كان مستهلكي الإعلام أكثر اطلاعًا.

(٣٠) لنقاش أكثر تفصيلًا حول معنى أن تكون الأخبار «استراتيجية» أو «مباراة» انظر

(Aalberg, Strömbäck, and de Vreese 2012).

في إطار «المباراة»، تركز «صحافة سباق الخيل» على استطلاعات الرأي، ونتائج الانتخابات، والرابحين والخاسرين، وتستخدم لغة الرياضة

والحرب. وفي إطار «الاستراتيجية» يركز الصحفيون على خطط الحملات والدوافع والشخصية والأسلوب، وتستفيد من (تغطية وسائل الإعلام نفسها)

"العنصر الأكثر استخدامًا في إطار الاستراتيجية"، يكتبون، "يشمل التركيز الصحفي على دوافع المرشح أو الحزب وراء اتخاذ موقف سياسي بعينه. القصص التي تتضمن هذا العنصر تهتم غالبًا في الأصوات، بدلًا من البحث عن حلول لمشاكل اجتماعية هامة". (٢٠١٢،١٦٨)

- (31) (Kruger and Gilovich 1999)
- (32) (Williams 2007, 601)

 (٣٣) بطبيعة الحال، لا يثبت كوننا أسرع في اكتشاف
 استعراض من هم من «خارج جماعتنا»، أن
 الاستعراض واضح لعين الرائي. إن استعراض
 المرء حقيقي، سواء أكنا قادرين على اكتشافه أم لا.
- (34) (Mill 2017, 47) (34) (Mill 2017, 47) يقدم فرانكفورت المثال التوضيحي الآتي: «إن الإفراط في التلميع والإجراءات الروتينية لا تضيف

حقًا إلى أهداف الموظفين في الجيش أو مسؤولي الحكومة، كما يظن، وإن كانت مفروضة من مؤسسات أو وكلاء يزعمون أنها مكرسة تمامًا لتحقيق هذه الأهداف. لذا فإن المهام التشريفية والروتينية التي تخلق تبجحًا منفصلة عن الدوافع المباحة للفعالية التي تتطفل عليها، مثلما يكون ما يقوله الناس في جلسات التبجح منفصلًا عن قناعاتهم الراسخة، ومثلما يكون الهراء منفصلًا عن الاهتمام بالحقيقة».

(Frankfurt 1988, 126-27).

(٣٦) يرتئي أستاذ اللغة الإنجليزية هانك دوڤرو، الابن، في رواية رجل مستقيم لرتشارد روسو:

«تحتوي صحيفة الطلبة دعابات كثيرة، رغم أن معظمها غير متعمد. فباستثاء الصفحة الأمامية (المخصصة لأخبار الجامعة)، والصفحة الخلفية (المخصصة لأخبار الرياضة)، فإن الجريدة ليس فيها إلا رسائل إلى المحرر، أتفحصها أولًا بحثًا عن تعريض بي، ثم بحثًا عن المحتوى غير العادي، الذي يجب ألا يكون، وفقًا للمناخ الراهن، شيئًا من

الثالوث المحرم: انعدام الحساسية، أو التمييز الجنسي أو التعصب. يريد كاتبو الرسائل الصالحين، رغم أنهم ليسوا من المثقفين دومًا، أن يعرف قراءهم بمعارضتهم. يبدو أن كلهم يؤمنون أن امتعاضهم الأخلاقي السامي يغطي ويتفوق على كل عيوب علامات الترقيم والإملاء والقواعد والمنطق والأسلوب. ولا يدعم هذه الفكرة إلا الثقافة كلها.

- (37) http://www.washingtonpost.com/wpdyn/
 c o n t e n t / a r t i c l e / 2 0 0 6 / 0 6 / 2 3 /
 AR2006062301378.html [accessed
 7/22/18]
- (38) http://www.washingtonpost.com/wpdyn/
 c o n t e n t / a r t i c l e / 2 0 0 6 / 0 6 / 2 3 /
 AR2006062301378.html [accessed
 7/22/18]
 - (٣٩) فسر سامول كروكسل الخرافة، في ترجمته عام ١٧٩٣، بالإشارة إلى نقطة اجتماعية سياسية: إن أثيرت مخاوفنا من أخطار متخيلة فيما يتصل بالجماعة، حتى تصبح الصرخة هادئة مكررة واهنة،

فكيف يفترض بنا أن نعرف متى نحمي أنفسنا من الأخطار الحقيقية؟

- (40) (Frijda 2006, 178-91)
- (41) (Frijda 2006, 10-11; Epstein 1973; McSweeney and Swindell 1999).

الاعتياد أحد أسباب نجاح العلاج بالتعرض بوصفه معالجة لاضطراب ما بعد الصدمة والقلق وغيرهما من الحالات.

(Marks 1973; Foa 2011; Rothbaum et al. 2000; Feeny, Hembree, and Zoellner 2003).

- (42) (Goethe 1884, 75)
- (43) (Rothschild and Keefer 2017)
- (44) (Collins 1993, 210)
- (45) (Kaufman 1999, 140; Simon 1987)
- (46) (Fehr and Gächter 2002; Fehr and Fischbacher 2004)
- (47) (Dickinson and Masclet 2015)

 (47) لمزيد من البراهين حول اعتبار العقاب قابلًا للتبديل
 مع استجابات أخرى على ارتكاب الخطا، انظر
 (47) J. J. Jordan et al. 2016)

إلى جانب استنتاج تجريبي يبين أن الناس يعاقبون عشوائيًا ليعززوا التعاضد، كما يفعلون لتعزيز المبادئ التي لا يجني أحد منفعة منها.

(Abbink et al. 2017).

- (49) (Baier 1965, 3)
- (50) http://www.pewinternet.org/2016/10/25/
 thepoliticalenvironmentonsocialmedia/
 [accessed 7/23/18]

(٥١) لمزيد من الآراء المثيرة حول أسباب عزوف المعتدلين انظر

(Loury 1994, 435–38).

- (52) (PreoţiucPietro et al. 2017)
- (53) (NoelleNeumann 1993, 37-57)
- (54) (Jang, Lee, and Park 2014)
 (٥٥) استوحينا الأفكار في هذا النقاش من دفاع جون
 ستورت مل الرائع عن حرية التعبير في كتابه عن
 الحرية

(1989, 19-55).

(56) (Mutz 2006, 29-33)

- (57) (Frimer, Skitka, and Motyl 2017)
- (58) https://www.politico.com/magazine/story/2017/12/06/theweirdcampaigntoget-taylorswifttodenouncedonaldtrump215994
 [accessed 3/18/18]
- (59) https://www.politico.com/magazine/ story/2017/12/06/theweirdcampaigntogettaylorswifttodenouncedonaldtrump215994 [accessed 3/8/18]
- (60) (Kogelmann and Wallace 2018)
- (61) https://www.usatoday.com/story/tech/2018/06/20/ragegivingfuelsrecord-fundraisingimmigrantchildren/718272002/[accessed 7/19/18]
- (62) https://www.usatoday.com/story/tech/2018/06/20/ragegivingfuelsrecord-fundraisingimmigrantchildren/718272002/[accessed 7/19/18]

الفصل الخامس

- (١) لوصف نفسي ممتاز للتشهير على الشبكة انظر (٢٥) (Crockett 2017).
- (2) https://twitter.com/nickwiger/status/623968683807801344 [accessed 8/6/18]
- (3) (Ronson 2015, 231–38)
- (4) (Norlock 2017)
- (5) (Sawaoka and Monin 2018)
- (6) (Wellman 2012, 380–84)
- (7) (Audi 2015)
- (8) (Isenberg 1964, 466)
- (9) (Alicke et al. 2001)
- (10) (Merritt et al. 2012)
- (11) https://www.nytimes.com/2018/02/03/opinion/sunday/thisiswhyumathurmanis-angry.html [accessed 2/3/18]

(١٢) إن أردنا العدل فإن داوكنز يغضب بسرعة في حواراته مع المتدينين. انظر مثلًا:

- https://www.theguardian.com/world/2006/jan/13/religion.comment [accessed 2/6/18]
- (13) https://web.archive.org/web/20110920212327/http://seattletimes.
 nwsource.com/html/nation-world/2003365311_jesuscamp08.html [accessed 2/7/18]
- (14) (Green et al. 2019)
- (15) (Hardin 1968, 1244)
- (16) (Schmidtz 1994)
- (17) (Grice 1989)
- (18) (Hart 1955; Tosi 2018)
- (19) (Boyd and Richerson 1992)

القصل السادس

(1) (MacIntyre 2007, 181–203; Hursthouse and Pettigrove 2018)

(۲) تشترط الفضيلة، من بين أمور أخرى، فعل الصواب في المقام المناسب (تكون كريمة عندما يطلب منها ذلك)، خلال مقامات مختلفة (لا يقتصر كرمها على البيت فحسب). كما تشترط تاريخًا من فعل الصواب في محله (الكرم عادتها).

(٣) يؤمن مؤيدو الرأي التقليدي الذي يعرف أيضًا باسم أخلاقيات الفضيلة الأرسطية أن الفضيلة تشترط «الفعل لأسباب وجيهة، وانفعالات مناسبة»، إن اتسق هذان العنصران.

(van Zyl 2018, 23),

يبسط نقاشنا الرأي بالإشارة إلى الدوافع الفاضلة. لنقاش هذا انظر:

(van Zyl 2018, 20–24; Annas 2011, 9–10; Hursthouse 2006, 101–5).

- (4) (C. Miller 2017, 151)
- (5) (Burtt 1990, 24)
- (٦) اقتبسنا هذه الحكمة من

(Schmidtz 2008, 187).

(۷) المدافعون عن عواقبية الفضيلة هم (Hume 1998; Moore 1993; Driver 2001).

(A) هذه النسخة من عواقبية الفضيلة وردت في دراسة جوليا درايــڤر، (٢٠٠١) وقد يكون الوصف الأكثر

توسعًا. لكن الأمور هنا معقدة، وأنصار العواقبية يختلفون عما يقوله هذا الرأي. للمزيد حول هذا انظر:

(Bradley 2005).

- (٩) مرة أخرى، يظهر برادلي (٢٠٠٥) أن الأمور أكثر تعقيدًا من هذا. لكن التبسيط يناسب غرضنا. -
- (10) (Treatise of Human Nature, 2.2.2.9). لنقاش مفيد حول رأي هيوم في الغرور، انظر (Schliesser 2003, 334–35).
- (11) (Treatise of Human Nature, 3.2.2.12)

 (17) يكتب هيوم: «حين ينشغل المرء بالصورة الراقية لرتبته وشخصيته اللتين في طور التشكل، فإنه يواظب تلقائيًا ليتصرف وفقًا لهما، وسيربأ بنفسه عن اقتراف أي فعل رذيل أو وضيع، قد يبعده عن الشخص الذي يخلقه في مخيلته».

(Hume 2006, 317).

(۱۳) نتقدم بالشكر لإريك تشيسلر على إثارة هذا السؤال. (۱۲) يرى آدم سمث مثلًا أننا نستحسن الغرور إن كان المرء مغرورًا بشيء يستحق ذلك.

(A. Smith 1985, 255).

كما يقصر هيوم ثناءه على الغرور بالذين يفخرون بأفعال فاضلة.

(Hume 2006, 321).

(١٥) في دراساتنا وجدنا أن الاستعراض لا يترافق مع مستويات متزايدة من المشاركة المجتمعية.

(Grubbs et al. 2019).

(١٦) لدراسة مستفيضة حول الأخلاق عند نيتشه انظر see (Leiter 2015).

- (17) (Nietzsche 1989, 107)
- (18) (Hurka 2007)

(۱۹) لقد فعلت المسيحية هذا كما يرى نيتشه. فقد أخذ أوائل المسيحيين المضطهدين صفاتهم من ضعف ووضاعة وحولوها إلى فضائل أخلاقية، كالتواضع والتصاغر والفقر والحلم والصبر. قد يكون المضطهدين نبلاء أقوياء، لكنهم صاروا بعد التمرد أشرارًا، وذلك لافتقارهم إلى التواضع والتصاغر والصبر والحلم، الصفات التي يتحلى بها المسيحيون الأوائل. وبعد إعادة تقييم القيم صار

الحليم والوديع والضعيف فاضلًا. والأخلاق كما عرفناها منذ ظهور المسيحية قد أحبطت محاولات معظم الفائقين الذين يحاولون عيش حياة العبقرية والإبداع وفقًا لرأي نيتشه. لقد قلبت المسيحية (إلى جانب غيرها من الفكر الديني والأخلاقي) التفوق الحقيقي رأسًا على عقب، وجعلتنا نشعر بالذنب لمحض الرغبة فيه. (ذكر نيتشه أمثلة على المتفوقين منهم غوته وبتهوڤن ونيتشه نفسه).

(٢٠) أشار إريك كامهل إلى تفشي الزيف في الخطاب الأخلاقي، وأننا نضلل ذواتنا عما يدفعنا إلى الكلام في الأخلاق.

(E. Campbell 2014).

(21) (Hurka 2010)

الفصل السابع

- (1) https://www.thetimes.co.uk/article/
 politiciansmuststopthegrandstandingandstartaddressingtherealitiesdnr0w93fx
 [accessed 8/12/18]
- (2) https://www.washingtonpost.com/news/

- thewatch/wp/2018/05/11/theprotectandserveactispoliticalgrandstandingoveranonexistentproblemanditcouldcauserealharm/ [accessed 8/12/18]
- (3) https://www.bbc.com/news/av/worlduscanada24308586/obamaattacksrepublicangrandstanding [accessed 8/12/18]
- (4) https://www.nationalreview.com/benchmemos/presidentobamasgrandstandingsigningstatementsedwhelan/ [accessed 8/12/18
- (5) (Hatemi and Fazekas 2018, 884)

(van der Vossen 2015).

(٧) أشار علماء السياسة دومًا إلى أن الشخصية محورية في تقييم الجماهير العام للسياسيين. انظر:

(A. H. Miller, Wattenberg, and Malanchuk 1986; Greene 2001; Hayes 2005; Bittner 2011; Clifford 2018).

- (8) http://archive.boston.com/news/nation/ articles/2007/03/11/poll_character_ trumps_policy_for_voters/ [accessed 8/12/18]
- (9) https://news.gallup.com/poll/12544/ valuesseenmostimportantcharacteristicpresidentialcandidates.aspx [accessed 8/12/18]
- (10) http://archive.boston.com/news/nation/
 articles/2007/03/11/poll_character_
 trumps_policy_for_voters/ [accessed 8/12/18]
- (11) (Kahn and Kenney 1999; Druckman, Jacobs, and Ostermeier 2004)
- (12) (Kinder 1986)
- (13) (Bishin, Stevens, and Wilson 2005) (14) للاطلاع على رأي يعترض على التصويت للمرشح بناء على شخصيته أو أخلاقه، انظر:

(J. Brennan 2011, 84-85).

وللرأي المؤيد انظر:

(Davis 2011).

(١٥) تظهر الكثير من الكتب الحديثة أن معظم الناخبين ليسوا على دراية كافية بأمور السياسة، لذا تفشل الأنظمة الديمقراطية في تشكيل حكومة كفؤة مسؤولة.

(Caplan 2007; Somin 2013; J. Brennan 2016; Achen and Bartels 2016).

منسوتا، مكتبة حقوق الإنسان]

(Hamilton, Madison, and Jay 2003, 37). كما رأى هاملتن أن هذا لن يكون مصير أمريكا لأنها ذات نظام لامركزي. انظر نقاش جيمس ماديسن في الحزاب في الورقة الفدرالية رقم ١٠: (Hamilton, Madison, and Jay 2003, 40–46).

- (18) (Vallier 2018)
- (19) https://www.salon.com/2014/11/20/ted_
 cruz_trolls_america_why_his_new_
 lecture_on_responsible_governance_real_
 chutzpah/ [accessed 2/ 26/18]
 - (٢٠) المصدر نفسه.

- (21) (T. J. Ryan 2017)
- (22) (Dahl 1967, 53)
- (23) (Kreps, Laurin, and Merritt 2017)

 (75) تشير عالمة النفس جليان جوردن وزملاؤها إلى أننا

 نكره المنافقين لأننا نعتبر آراءهم الأخلاقية السامية

 دليلًا على شخصياتهم الخيرة. لكن سلوكهم

 اللاحق يكشف لنا أن الكلام في الأخلاق كان

 اشارة كاذبة.
 - (J. Jordan et al. 2017).

(٢٥) انظر مثلًا:

- http://thehill.com/opinion/katie-pavlich/255971katiepavlichyesobama-doeswanttotakeyourguns [accessed 8/13/18].
- (26) https://townhall.com/columnists/kurtschlichter/2017/02/06/thelefthatesyou-actaccordinglyn2281602 [accessed 7/18/18]
- (27) https://www.nytimes.com/2017/06/30/us/handmaidsprotestsabortion.html [accessed 4/18/18]
- (28) https://www.newyorker.com/books/pageturner/weliveinthereproductivedystopiaofthehandmaidstale [accessed 4/18/18]

 (۲۹) يرى شانتو إنغر وماشا كروپنغن أن العدائية للحزب
 الآخر، في نظر الأمريكيين، دافع للتحرك السياسي
 أكبر من التشابه الإيجابي معه. (۲۰۱۸)
- (30) http://www.nybooks.com/

daily/2009/12/17/obamaandtherottencompromise/ [accessed 9/24/18]

(31) (Margalit 2009)

(٣٢) يشرح فابيان وندت السيناريو الآتي: تخيل ان طاغية فاسدًا قاسيًا يريد دعمًا ماليًا وتقديرًا دوليين مقابل تحقيق الاستقرار في المنطقة وحماية بعض الأقليات. إن عدم الوصول إلى تسوية ينطوي على مخاطر أكبر، إذ يشعر الطاغية أنه حر في التصرف كما يحلو له فيفضي ذلك في النهاية إلى عدم الاستقرار والحرب. مقارنة بالبدائل، يبدو من الأفضل محاولة الوصول إلى اتفاق مع الطاغية.

(Wendt 2019, 2871).

(٣٣) تنص نظرية الناخب المتوسطة على أن «قاعدة الأكثر الأغلبية ستحدد نظام التصويت النتيجة الأكثر تفضيلًا لدى الناخبين المتوسطين.

(Downs 1957),

(Holcombe 2006, 155).

لم يزل إمكانية تطبيق النظرية موضع جدل. (٣٤) يرى عالما السياسة جيمس آدامز وسامول ميرل أن المرشحين الساعين وراء الناخبين يكافَؤون على تمثيلهم برامج سياسية تعكس قناعات الناخبين المنحازين إليهم لأسباب غير سياسية. يحدث هذا لأن السياسيين يعلمون أن كثيرًا من الناخبين سيحجمون عن المشاركة إن لم يجذبهم المرشح بما يكفي، لذا يلجؤون إلى ما يستميل [الناخبين] كالطبقة والعرق والتحزبية التي لا تمت بصلة إلى موضع المرشح في الحملة الراهنة. (١٨٢.٢٠٠٣)

- (35) (Loury 1994, 441).
- (36) (Pincione and Tesón 2011, 124)
- (37) (Pincione and Tesón 2011, 124)
- (38) (G. Brennan and Lomasky 1997, 16)

(٣٩) لدراسة حديثة حول هذا انظر:

(Caplan 2007; Somin 2013).

(٤٠) إن كانت قراءة هذه الفقرة تثير قلقك حول مستويات معرفة رفاقك المواطنين، فلعلك تهتم بقراءة كتاب حول إصلاح الإبستقراطية. انظر

(J. Brennan 2016).

(41) (Pincione and Tesón 2011, 23) (emphasis in original).

(42) (Nisbett and Ross 1980, 45).

انظر أيضًا

(Tuan Pham, Meyvis, and Zhou 2001).

(٤٣) انظر

(Sloman and Fernbach 2017, 185).

(٤٤) يشرح عالم الاقتصاديول كيرغمان، وهو المعارض للسوق الحرة غير المقيدة: «إن تحليل ضبط الإيجار من المسائل المعروفة في كل الاقتصادات. كما أنه أقل المواضيع إثارة للجدل بين الاقتصاديين. في استطلاع أجرته الجمعية الاقتصادية الأمريكية عام ١٩٩٢، تبين أن ٩٣ بالمئة من أغضائها يرون أن تحديد سقف الإيجار يقلل من نوعية السكن وكمه. في كل كتاب للسنة الأولى [في كلية الاقتصاد] دراسة حالة عن ضبط الإيجار باستخدام آثاره الجانبية السلبية لتوضيح مبادئ العرض والطلب. أتعود الإيجارات الفلكية للشقق غير الخاضعة للقانون سببها عدم عثور المستأجرين البائسين على مكان آخر، وعدم بناء شقق جديدة، على رغم ارتفاع الإيجارات، إلى خوف أصحاب البيوت من تمديد

قانون ضبط الإيجارات؟ هذا متوقع. وأتؤدي العلاقات السيئة بين المستأجرين وأصحاب البيوت، وسباق التسلح بين الخطط الأكثر حذقًا لإجبار الساكنين على الإخلاء، إلى توالد ضوابط وضعت لمنع هذه الخطط؟ هذا متوقع.

https://www.nytimes.com/2000/06/07/opinion/reckoningsarentaffair.html[accessed 5/5/19]

(٤٥) اقترح ديــڤد كامـيوس، عضو مجلس المشرفين في سان فرانسيسكو، عام ٢٠١٥ إيقاف إعمار شقق بسعر السوق في نواحي ذا مشن، للتعامل مع أزمة السكن في المدينة، فقدم هذا التبرير الحيوى: «مستقبل المنطقة يتوقف على هذا. إن لم نفعل هذا سنخسر مشن، وإن خسرناها سنخسر سان فرانسيسكو ولهذا علينا أن نفعل شيئًا، ونفعله الآن». https://archives.sfexaminer.com/ sanfrancisco/campostoproposemoratoriumonmarketratehousinginthemission/Content?oid=2928953 [accessed 7/11/18]

(٤٦) تضمنت الأسباب عيوب خلقية في الجنين، والاغتصاب وإنقاذ حياة الأم. جادل الحزب رقم الميزانية، لكنه لم يكن يقترح بديلًا للمبلغ الذي حاول رفضه.

https://takingnote.blogs.nytimes. com/2012/06/20/antiabortiongrandstanding/[accessed 4/21/18]

- (47) (Vlahov and Junge 1998; Wodak and Cooney 2004)
- (48) (Pincione and Tesón 2011, 151)
- (49) (Pincione and Tesón 2011, 151)
- (50) (Ferguson 2012, 162) (emphasis added) (٥١) صاغ پنكايوني عبارة «مفارقة حل المشاكل الاجتماعية» في حوار.
 - (٥٢) بارت ولسن اسم مستعار.
- (53) (Bashir et al. 2013, 625)
- (54) (Christiano 2008, 61-63)

الفصل الثامن

(١) انظر

(Bond Jr and DePaulo 2006)

من أجل تحليل تلوي لدراسة حول إخفاء الكذب بلغ العدد الكلي لمشتركيها ٢٤٠٠ مشتركًا. كما يرى قون هيل وترقرز (٢٠١١) أن معدلات كشف الكذب ترتفع في الحالات التي تسنح فيها الفرصة للمخدوع بأن يستجوب المخادع، وإن كان الاثنان يعرفان بعضهما بعضًا.

- (2) (Vrij 2008). يشير البحث إلى أن الناس، وسطيًا، يكذبون مرة في اليوم.
 - (DePaulo et al. 1996).
- (3) (Grubbs et al. 2019)
- (4) https://medium.com/@EamonCaddigan/ accusationsofvirtuesignalingarefallaciousandhypocriticald86e9916e634[accessed 9/27/18]
- (5) https://www.theguardian.com/

- commentisfree/2016/jan/20/virtuesignallingputdownpassedsellbydate [accessed 9/27/18]
- (6) https://www.nytimes.com/2017/08/08/ magazine/virtuesignalingisnttheproblemnotbelievingoneanotheris.html [accessed 9/27/18]
- (7) https://www.newstatesman.com/politics/ uk/2017/02/peoplewhoaccuseothersvirtuesignallingaretryingstigmatiseempathy [accessed 9/27/18]
 - (۸) يسمي عالم النفس نِك هاسلام هذا «بانسلال المفهوم» (۲۰۱٦). يرى أن مفاهيم من قبيل الإساءة والتنمر والإدمان والصدمة والتحيز قد تضخمت معانيها بين علماء النفس. انظر أيضًا.

(Levari et al. 2018).

(٩) أحيت ربيكا سولنت المصطلح بعد جذبها الانتباه إلى الظاهرة، رغم أنها ليست من صك المصطلح. (Solnit 2015, 13-14).

- (10) https://www.nbcnews.com/news/world/ primeministertheresamayaccuseslabourleaderjeremycorbynmansplainingn854641 [accessed 9/ 27/18]
- (11) (Wilde 1903, 11)
- (12) (Latané and Rodin 1969). See also (Latané and Darley 1970).
- (13) (Cann and Blackwelder 1984, 224)
- (14) (L. Ross and Nisbett 1991).

كتب ماثيو ابرمان: "إن ترك عالم نفس اجتماعي على جزيرة مقفرة، وسمح له بأخذ مبدأ واحد من مبادئ علم النفس الاجتماعي لأخذ قوة الظرف». (٢٠٠٥).

- (15) (Gollwitzer and Oettingen 1998; Luszczynska, Sobczyk, and Abraham 2007; Chapman, Armitage, and Norman 2009)
- (16) (Gollwitzer et al. 2009)
- (17) (Gollwitzer et al. 2009)

 (18) لتحليل مدهش لمشكلة التغوط في العراء في الهند،
 انظر

(Coffey and Spears 2017).

(19) (Bicchieri 2016)

(٢٠) يعود سبب المشكلة في الهند إلى المسألة الأخيرة غالبًا. يدرك الهنود تسبب الجراثيم بالأمراض، لكنهم يتمسكون بآراء خاطئة عن عدد المرات التي يجب بها إفراغ المراحيض، وعن تكلفة المرحاض المناسب. انظر

(Coffey and Spears 2017, 67-73).

(21) (Aikin and Talisse 2013). This discussion draws from https://news.vanderbilt. edu/vanderbiltmagazine/howtoargueadvice-fromroberttalisseandscott aikin/ [accessed 8/23/18].

(٢٢) يسمي علماء النفس هذا بخطأ الإحالة الأساسي. (٢٢) (L. Ross and Nisbett 1991).

- (23) (Fullinwider 2005, 110). See also (Radzik 2012).
- (24) (Bicchieri 2016, 124). See also (Pascale, Sternin, and Sternin 2010).

- (25) (Elias 2000, 122)
- (26) (Elias 2000, 73)
- (27) (Elias 2000, 73)
- (28) (Elias 2000, 67)



الاستعراض الحسن والقبيح في الحوار الأخلاقي

يقدم هذا الكتاب تشخيصًا لسبب مهم للسلوك السيء في الخطاب الأخلاقي العام. يتسم كثير من خطابنا بالقبح؛ لأنه يتضمن استعراضًا أخلاقيًا، بمعنى توظيف النقاش الأخلاقي للتسويق للذات.

لا تسيء فهمنا، فنحن نرى النقاش الأخلاقي أمرًا حسنًا. فلا بد أن يتحدث الناس عن العدالة والحرية والمساواة وفعل الصواب. لكننا بحاجة لفعل ذلك بطرق ناجعة، لا أن نظهر أنفسنا بمظهر الأخيار فحسب، وهذا ما يهتم به المستعرضون عظيم الاهتمام.

لا يرتبط الاستعراض بأي وجهة نظر سياسية بعينها، فالناس ذوو الآراء الشتى يمكنهم، وعليهم أن يُجمعوا على استهجان الاستعراض. إنها ليست ظاهرة مقتصرة على الحزبيين، بل هي ظاهرة إنسانية. وإن كنت صادقًا مع نفسك، فلعلك تتذكر أوقاتًا شعرت فيها بحاجة للاستعراض.

ما الذي يدعونا إلى الاهتمام إن كان حديثنا الأخلاقي يكسب علامات الاستحسان من أناس لا نكاد نتفاعل مع معظمهم؟ ولِمَ نكون مستعدين للإلقاء بالناس تحت الحافلة للحصول على الاستحسان؟







مكتبة الرافدين للكتب الالكترونية https://t.me/ahn1972